الاصطفاء

صلى الله عليه وسلم

المصطفى

صلى الله عليه وسلم

محمد سعيد الخطاب

الجزء الثالث

دار إحياء التراث العربي
قطر

الاصطفا

في سيرة المصطفى ﷺ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري العامة
الرقم العام : ٣٠٦
رقم التصنيف : ٢١٩ خ م أ

الأصطفا

في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

محمد نبهان الخباز
إمام وخطيب جامع الأفندي بحماه
والمدرس الديني العام

قال الله تعالى
(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)
« قرآن كريم »

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري
الرقم العام : _____
رقم التصنيف : _____

٢١٩
م ٣٤
٦٩٨

الجزء الثالث

إدارة إحياء التراث الإسلامي
بدولة قطر

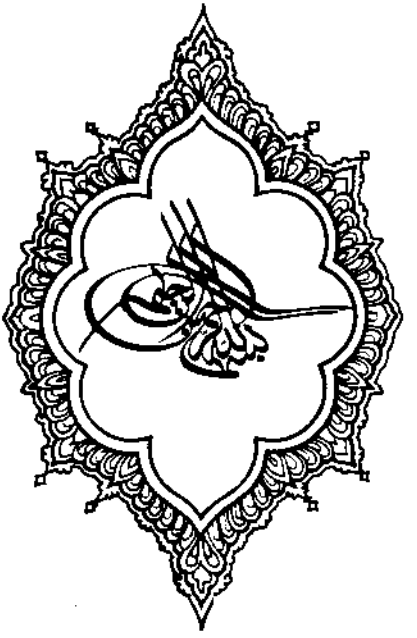

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مالك الملك ذي الجلال والإكرام، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ المبعوث رحمة للأنام.

وبعد: فهذا هو الجزء الثالث للاصطفا في سيرة المصطفى، ﷺ، وأوله غزوة الحديبية وما حدث فيها من الأمور، متابعين العدد في الصفحات، وسالكين[1] ما سلكناه في الجزءين الأول والثاني، ومن الله وحده نطلب العون والتوفيق لإتمامه.

المؤلف

(١) في الأصل (وسالكين حسب ما سلكناه). وقد حذفنا كلمة (حسب). المحقق.

٢٨٢ ــ غزوة الحديبية وما حدث فيها من الأمور

الحديبية: يقال: بتخفيف الياء الثانية وتشديدها، وهي قرية ليست بكبيرة، بينها وبين مكة مرحلة واحدة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، ويقال: إن بعضها من الحلّ، وبعضها من الحرم، وسميت بذلك لبئر فيها تسمى الحديبية.

سببها: ذكر العلماء الأعلام: أن النبيَّ ﷺ رأى في منامه، أنه دخل البيت هو وأصحابه آمنين، محلّقين رؤوسهم ومقصرين. لقد انقضتْ ستُّ سنوات منذُ هجرة النبي ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة، وهم فيما رأيت يا أخي القارىء من جهادٍ مستمرٍ، وغزوٍ متصلٍ، بينهم وبين قريش تارةً، وبينهم وبين اليهود أخرى، والإسلامُ أثناء ذلك يزداد انتشاراً، ويزداد قوةً ومنعةً.

ومنذ السنة الأولى من الهجرة، عدل سيدنا محمدٌ ﷺ بقبلته عن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام بأمر ربه، حيث قال تعالى: ﴿قد نرى تَقَلُّبَ وجهكَ في السماء فلنولينَّكَ قبلةً ترضاها، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾[1].

وكان ذلك يوم الاثنين للنصف من شهر رجب على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة[2]، وقد أمر ﷺ أن يستقبل المسلمون الكعبة فاستقبلوها. وجعل المسلمون وجهتهم بيتَ الله تعالى، الذي بناه إبراهيم بمكة بأمر مولاه سبحانه وتعالى، والذي تجدَّد بناؤه بعد ذلك وسيدنا محمد ﷺ

---

(١) من سورة البقرة آية (١٤٤).

(٢) كما ذكره ابن سعد في كتابة الطبقات.

في فتوّة الشباب، وقد رفع إذ ذاك حجره الأسود إلى مكانه من جدار هذا البيت في الركن المسمى بركن الحجر، وهو في موضعه حتى الآن يوم أن حكمته قريش في حل مشكلة وضع الحجر.

وكان هذا المسجد الحرام إلى مئات من السنين خلت وجهة العرب في عبادتهم يحجُّون إليه كل عام في الأشهر الحرم، فمن دخله كان آمناً، فإذا التقىَ المرء بأشد الناس له عداوة، لم يستطع عنده أن يحرّك سيفاً أو يسفك دماً، لكن قريشاً آلت على نفسها منذ هاجر محمدٌ والمسلمون معه أن يصدُّوهم عن المسجد الحرام، وأن يحولوا بينهم وبينه دون سائر العرب؛ وفي ذلك نزل قوله تعالى منذ السنة الأولى للهجرة: ﴿ يسألونَكَ عن الشهر الحرام قتالٍ فيه، قل قتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌّ عن سبيل الله، وكفرٌ به والمسجد الحرام، وإخراجُ أهلِهِ منه أكبرُ عند الله ﴾[1]، ونزل قوله تعالى كذلك من بعد غزوة بدر: ﴿ وما لهم ألاَّ يعذّبَهُم الله وهم يصدُّون عن المسجد الحرام، وما كانوا أولياءَهُ إنْ أولياؤهُ إلا المتقون، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون. وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديةً، فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون. إنَّ الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله فسينفقونها، ثم تكونُ عليهم حسرة ثم يغلبونَ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾[2].

وفي هذه السنوات الستّ التي مرت على هجرته ﷺ نزلت الآيات كثيرة متتابعة في هذا المسجد الحرام، الذي جعله الله مثابةً للناس وأمْناً، لكن قريشاً كانت ترى محمداً والذين آمنوا معه، كفروا بآلهة هذا البيت (هُبَل ومناة والعزّى وإساف ونائلة وسائر الأصنام الحجرية والخشبية)، ولذلك كانت ترى حربهم وحرمانهم من الحج إلى الكعبة، واجباً عليها، حتى يتوبوا إلى آلهة آبائهم.

---

(١) من سورة البقرة آية (٢١٧).

(٢) من سورة الأنفال من آية (٣٤-٣٦).

والمسلمون في أثناء ذلك يذوقونَ ألمَ الحرمانِ من أداءِ هذا الواجب الديني المفروض عليهم، كما كان مفروضاً من قبل على آبائهم، والمهاجرون منهم يذوقون إلى جانب ذلك هماً واصباً وألماً لذّاعاً. ألم النفي، وهمَّ الحرمان من الوطن، ومن أهلهم فيه، وهؤلاء وأولئك كانوا في ثقتهم بنصرِ الله رسولَهُ، وإعلاء دينهم على الدين كله؛ يؤمنون بأن يوماً قريباً لا بدَّ آتٍ يفتح الله لهم فيه أبواب مكة ليطوفوا بالبيت العتيق، وليؤدُّوا فريضةً فرضَها الله على الناس جميعاً؛ وإذا كانت الأيام تمر سراعاً وتنقضي السنة تمر تلو السنة، فتساجل الغزوةُ الغزوةَ، وتكون بدرٌ ثم أحدٌ ثم الخندق ثم سائر الغزوات والأعمال، فإن هذا اليوم الذي يؤمنون به لا ريب آتٍ، وما أشدَّهم لهذا اليوم شوقاً وما أشدَّ ما يشاركهم سيدنا محمدٌ ﷺ في شوقِهم، وما يؤكد لهم أن هذا اليوم قريب.

قرَّر الرسول ﷺ الخروج إلى مكة في شهر ذي القعدة من السنة السادسة الهجرية، وأوفد رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم للاشتراك للخروج إلى الكعبة مع المسلمين لزيارتها وتعظيمها لا للقتال، حتى تعلم العرب كلها بأنه خرج في الشهر الحرم حاجّاً لا غازياً؛ فإنْ أصرَّتْ قريشٌ على مقاتلته في الشهر الحرام، ومنعتْهُ من أداء شعائر الحج والعمرة أسوة بالعرب الآخرين، لم تجد من العرب مَنْ يؤيدها في موقفها هذا، ولا من يعينها على قتال المسلمين، ما لم يعاونها حلفاؤها من القبائل الأخرى.

فخرج رسولُ الله ﷺ معتمراً زائراً[1] البيتَ، لا يريد حرباً واستنفر العرب من البوادي ومن حوله من الأعراب، ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يتعرضوا له بحربٍ، أو يصدُّوه عن البيت، فأبطأ عليه كثيرٌ من الأعراب؛ فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن لحق من العرب، وساق معه الهدي[2]، وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس حربَهُ، وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت ومعظماً له، وأخرج معه زوجته[3] أم سلمة رضي الله عنها

---

(١) لو قال (قاصداً العمرة وزيارة البيت) لكان أوضح. المحقق.

(٢) الهدي: ما يهدي لله في حرمه من النعم (٧٠) وفي رواية (١٠٠) ناقة تنحر بمكة.

(٣) الأصح (زوجه) وهي لغة القرآن. المحقق.

واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، وكان جملة أصحابه من (١٤٠٠) إلى (١٦٠٠)[١].

أما ما رواه ابن إسحاق من أنه ﷺ ساق معه الهدي (٧٠) بدنة، وكان الناس (٧٠٠) رجل، فكانت كل بدنة ــ ناقة ــ عن عشرة نفرٍ، فلا بدَّ أن يكون هذا العدد في بدء خروجهم قبل أن ينضمَّ إليه ﷺ من عداهم من الأعراب، ولم يخرج ﷺ بسلاحٍ، إلا سلاح المسافر، السيوف في القرب، فلما كان بعسفان، لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال له: يا رسول الله! هذه قريش، فلما[٢] سمعوا بمسيركَ فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل[٣] قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طُوىً، يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم، قد قدموا إلى كراع الغميم ــ اسم موضع قريب من مكة ــ فقال رسول الله ﷺ: (يا ويحَ قريش! لقد أكلتهم الحربُ، ماذا عليهم لو خَلَّوا[٤] بيني وبين سائر العرب؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم، دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش؟ فوالله! لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة)؛ ثم قال: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ فقال رجل من أسلم أنا يا رسول الله! فسلك طريقاً وعراً، واسمه حمزة بن عمرو الأسلمي.

فخرجوا منه بعد أن شقَّ عليهم، وأفضوا إلى طريق سهلة عند منقطع الوادي، قال رسول الله ﷺ للناس (قولوا نستغفر الله ونتوبُ إليه)، فقالوا ذلك، (فقال: والله! إنها للحطَّة التي عرضتْ على بني إسرائيل فلم يقولوها).

ثم أمر رسول الله ﷺ الناس فقال: اسلكوا ذاتَ اليمين بين ظهري الحمض في طريق على ثنيَّة المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة، فسلك الجيشُ ذلك

(١) حسب رواية كتاب محمد رسول الله ص ٣٤٤.
(٢) الصواب (قد) بدل (فلما). المحقق.
(٣) أي النوق ذات اللبن.
(٤) في الأصل (خلُّوا) بضم اللام المشددة وهذا خطأ لأنه يكون حينئذ فعل أمر لا ماضياً. المحقق.

الطريق، فلما رأت خيلُ قريش قترة[1] الجيش قد خالفوا، رجعوا راكضين إلى قريش، ذلك أن فرسانَ قريش كانوا (٢٠٠) مائتين منهم عكرمة بن أبي جهلٍ وكان قائدهم خالد بن الوليد. خرج رسولُ الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنية المرار بركتْ ناقتُه القصواء، فقال الناس خلأت ــ أي بركت من غير علة ــ فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت وما هولها بخُلقٍ، ولكن حبسها حابسُ الفيل عن مكة، لا تدعوني قريشٌ اليوم إلى خطّةٍ يسألوني صلةَ الرحم إلا أعطيتُهم إياها».

ثم قال للناس: انزلوا، فقالوا يا رسول الله! ما بالوادي ماء يُنزلُ عليه، فأخرج سهماً من كنانته، فأعطاهُ رجلاً من أصحابه فنزل معه في قليبٍ من تلك القُلُب فغرزَهُ في جوفه، فجاشَ بالرواءِ حتى ضرب الناسُ عنه بِعَطَنٍ[2] كما جاء في سيرة ابن هشام. واختلف فيمن نزل في القليب لسهم رسول الله ﷺ فقيل: هو سائق بُدُنِهِ ــ ناجية بن جندب ــ، وقيل: إنه البراء بن عازب. وفي البخاري: عن البراء بن عازبٍ رضي الله عنهما أنه ﷺ جلس على البئر، ثم دعا بإناءٍ فمضمض ودعا الله، ثم صَبَّهُ فيها، ثم قال: دعوها ساعةً، فأرووا أنفسهم وركابهم حتى ارتحلوا. وفي حديث جابرٍ عند البخاري ومسلم قال: عطش الناسُ يوم الحديبية وبينَ يدي رسول الله ﷺ ركوة يتوضأ منها، فأقبل الناسُ نحوَهُ، فقال: ما بالكم؟ قالوا: يا رسول الله! ليس عندنا ما نتوضأ به ولا نشرب، إلا ما في ركوتكَ، فوضع يده في الركوةِ، فجعل الماءُ يفورُ من بين أصابعه ﷺ كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا.

وقد جمع بين الروايتين ابنُ حبان فقال[3]: بأن ذلك وقع في وقتين؛ وكانت قصة الركوة قبل قصة البئر.

---

(١) في الأصل (فترة) بالفاء. والصواب (بالقاف) كما في سيرة ابن هشام. والقترة: الغبار. المحقق.

(٢) في الأصل (بعَطْن) بإسكان الطاء. والصواب فتحها كما في لسان العرب. والعَطن: مبرك الإبل حول الماء. المحقق.

(٣) في الأصل (بين الروايتين ابن حبان بينها وقال). المحقق.

فلما اطمأنَّ رسول الله ﷺ، أتاهُ بديل بن ورقاء الخزاعي في رجالٍ من خزاعة، فكلموه وسألوه: ما الذي جاء به؟ فأخبرهم: أنه لم يأتِ يريدُ حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت، ومعظماً لحرمته، ثم قال لهم نحواً مما قاله لبشر بن سفيان؛ فرجعوا إلى قريشٍ فقالوا: يا معشر قريش! إنكم تعجلون على محمدٍ، إن محمداً لم يأتِ لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت، فاتهموهم وجبهوهم وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالا، فوالله! لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تحدّثُ عنا العربُ بذلك.

وكانت خزاعة لا يخفون عن رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة. ثم بعثت قريش إليه ﷺ مكرز بن حفص، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً، قال: هذا رجلٌ غادرٌ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلّمه، قال له رسول الله ﷺ نحواً مما قال لبديلٍ وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ.

ثم بعثوا إليه ﷺ الحليسَ بن علقمة، وكان يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألّهونَ، فابعثوا الهديَ في وجهه حتى يراهُ، فلما رأى الهديَ يسيلُ عليه من عرض الوادي في قلائدهِ وقد أكل أوبارَهُ من طول الحبس عن محلّهِ، رجع إلى قريشٍ، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا له: اجلس فإنما أنتَ أعرابي لا علم لكَ، فغضب الحليسُ عند ذلك وقال: يا معشر قريش! والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له؟ والذي نفسُ الحليس بيده! لتخلنَّ بين محمدٍ وبين ما جاء له، أو لأنفرنَّ بالأحابيش نفرة رجلٍ واحدٍ، فقالوا له: كفَّ عنا يا حليسُ! حتى نأخذَ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروةَ بن مسعود الثقفي فقال: يا معشر قريش! إني قد رأيتُ ما يلقى منكم من بعثتموهُ إلى محمدٍ، إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ وقد عرفتم أنكم والد وإني ولد ــ وكان عروة بن مسعود لسبيعة بنت عبد شمس ــ وقد سمعت بالذي نابكم فجمعتُ من أطاعني من قومي ثم

جئتكم حتى آسيتكم بنفسي، قالوا: صدقتَ، ما أنتَ عندنا بمتَّهم؛ فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد! أجمعتَ أو شابَ الناس ــ أي أخلاط الناس ــ ثم جئتَ بهم إلى بيضتك لتفضَّها بهم؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذُ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وايم الله! لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنكَ غداً ــ أي يفرون عنكَ ــ.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه خلف رسول الله ﷺ قاعداً فقال: امصُص بظرَ[1] اللات ــ أي فرجه ــ واللات هو الصنم بالطائف. نحنُ ننكشفُ عنه؟ وكانت هذه الكلمة معهودة عند العرب للشتم.

فقال عروة بعد أن سمع هذه الإهانة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أبي قحافة، فقال: أما والله! لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها.

قال الزهري: إن اليد المذكورة هي أن عروة كان يحمل ديةً، فأعانه فيها أبو بكر رضي الله عنه بعونٍ حسنٍ.

ثم جعل عروةُ يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفُفْ يدكَ عن وجهِ رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليكَ، فيقول عروة: ويحكَ! ما أفظَّكَ وأغلظكَ؛ فتبسم رسول الله ﷺ فقال عروة: مَنْ هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، قال: أي غُدَر! وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس؟ ومعنى ذلك: أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف، فتهايج الحيَّان من ثقيف، بنو مالك رهط المقتولين، والأحلاف رهط المغيرة، فودىَ عروة

(١) في الأصل (بظَر) بفتح الظاء. والصواب إسكانها. والتصحيح من لسان العرب. المحقق.

المقتولين ثلاث عشرة ديةً وأصلح الأمر. وبعد أن قال عروةُ ما قال، كلّمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم أصحابه، وأخبره أنه لم يأتِ يريدُ حرباً.

فقام من عند رسول الله ﷺ ورجع إلى أصحابه، وقد بهره ما رأى من احترام أصحابه ﷺ له. فقال: (أي قوم! فوالله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي، والله! ما رأيتُ ملكاً قط، يعظمه أصحابه ما يعظّمُ أصحابُ محمدٍ محمداً، والله! ما يتنخَّمُ نخامةً إلا وقعتْ في كفِّ رجلٍ منهم فدلك بها وجهَهُ وجلدَهُ، وإذا أمرهم ابتدروا أمرَهُ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه[1]، وإذا تكلَّمَ خفضوا أصواتهم عنده، إجلالاً وتوقيراً، ولا يمدُّونَ النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطَّة رشدٍ فاقبلوها، ولقد رأيتُ قوماً لا يسلمونه لشيءٍ أبداً، فروا رأيكم).

فلم يسمع القومُ ما قاله عروة بن مسعودٍ، وما رغَّبهم فيه من الصلح، فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعضُ أهلِ العلم أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على بعيرٍ له يقال له الثعلب، ليبلغ أشرافهم عنه، ما جاء له. فعقروا به جملَ رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، فمنعه الأحابيش، فخلّوا[2] سبيله حتى أتى رسول الله .

وبعثتْ قريشٌ أربعينَ أو خمسينَ رجلاً منهم ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً، فأُخذوا أخذاً، فأتيَ بهم رسول الله ﷺ فعفا عنهم، وخلّى سبيلهم، وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل؛ ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثهُ إلى مكة، فيبلّغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله! إني أخافُ قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحدٌ يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها،

(١) (وَضوئه) بفتح الواو. وهو ما يتقاطر من أعضاء وضوئه من الماء. المحقق.

(٢) في الأصل (فخلُّوا) بضم اللام المشددة وهذا خطأ لأنه يجعل الفعل أمراً لا ماضياً. المحقق.

وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجلٍ أعزّ بها مني، عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فبعثهُ إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأتِ لحربهم، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته.

فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبانُ بنُ سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه ثم أجارَهُ حتى بلّغَ رسالة رسول الله ﷺ، وكان أبان بن سعيد هو ابن عم عثمان وقد أسلم بعد ذلك.

فانطلق عثمانُ حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريشٍ، فبلّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبستْهُ قريشٌ عندها؛ فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قُتل.

وقيل: إن عثمان بن عفان دخل مكة ومعه عشرة من الصحابة بإذن رسول الله ﷺ، ليزوروا أهاليهم ولم يذكروا أسماءهم. وقيل: إن قريشاً احتبستْ عثمان عندها ثلاثة أيام، وأشاع الناس أنهم قتلوه هو والعشرة الذين معه، وعلى كل حالٍ أبطأ عثمان رضي الله عنه عن الرجوع، فقلق عليه المسلمون، فلما بلغ ذلك الخبر رسول الله ﷺ قال: لا نبرح حتى نناجز القوم ــ أي نقاتلهم ــ.

والظاهر أن أبا سفيان لم يكن بمكة وقتئذٍ لأننا لم نسمع له رأياً، ونرجح أنه كان غائبا في تجارة حسب عادته.

٢٨٣ ــ بيعة الرضوان التاريخية

لا شكَّ أن المسلمين قد قلقوا على عثمان، وعلى رأسهم حبيب الله ومصطفاه قلق أيضاً أشد القلق، وتمثّل أمامهم غدر قريش، وقتلهم لعثمان ومن معه من العشرة، في هذا الشهر الذي لا تجيز فيه أديانُ العرب جميعاً، لعدوٍ أن

يقتل في حرم الكعبة، ولا في حرم مكة عدوَّهُ، وتمثَّل أمامهم غدرُ قريشٍ برجل ــ هو عثمان ــ ذهب إليهم في رسالةِ سلمٍ وموادعةٍ، ووضع كلٌّ منهم يده على قبضة سيفه، سِمَةَ النذير، وسِمَةَ البطشِ والغضب، ودخل في روع النبي ﷺ أن قريشاً قتلتْ عثمان، فغدرتْ به في الشهر الحرام فقال: (لا نبرح حتى نناجز القومَ ــ أي نحاربهم ــ) ودعا رسولُ الله ﷺ أصحابه إليه، وقد وقف تحت شجرةٍ في هذا الوادي، فبايعوه جميعاً على ألاَّ يفرُّوا حتى الموت، بايعوه وكلهم ثابت الإيمان، قوي العزيمة، ممتلىء حماسةً للانتقام ممن غدر وقتل، بايعوهُ بيعةَ الرضوان التي نزل فيها قول الله تبارك وتعالى: ﴿لقد رضيَ الله عن المؤمنينَ إذْ يبايعونكَ تحتَ الشجرةِ، فعلمَ ما في قلوبِهم، فأنزل السكينةَ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾(١).

فلما أتمَّ المسلمون البيعة ضرب رسولُ الله ﷺ بإحدى يديهِ على الأخرىَ، بيعةً لعثمان كأنه حاضر معهم بيعة الرضوان. وبهذه البيعة، اهتزت السيوف في أغمادها، وتبدَّى للمسلمينَ جميعاً أن الحرب آتيةٌ لا ريب فيها، وجعل كلٌّ ينتظر يوم الظفر، أو يوم الاستشهاد، بنفسٍ راضيةٍ، وفؤادٍ مرتاحٍ، وقلبٍ مطمئن، وإنهم لكذلك، إذ ترامى إليهم أن عثمان لم يُقتل، ثم لم يطل بهم الأمرُ، حتى جاء عثمانُ بنفسهِ إليهم، على أن بيعة الرضوان هذه بقيتْ مع ذلك، كبيعة العقبة الكبرى علماً في تاريخ المسلمين.

كان رسول الله ﷺ يستريح إلى ذكره، لما كشف من متانة الروابط بينه وبين أصحابه الكرام، ولما دلَّ عليه من مبلغ إقدامهم على خوض مخاطر الموت لا يخافون؛ ومَنْ أقدم على مخاطر الموت، خافَهُ الموتُ، وعنَتْ له جبهةُ الحياة، وكان من الفائزين.

عاد عثمان برعاية الله يحملُ مقالةَ قريشٍ لرسول الله ﷺ، فأبلغه ما قاله لقريش من أن رسول الله ﷺ ومن معه، قدموا حاجين

(١) من سورة الفتح آية (١٨).

ومعتمرين ومعظمين للبيت؛ وأن قريشاً لا يقدرون على منع أحدٍ من العرب عن الحج والعمرة في الأشهر الحرم. وقد أوفدتْ قريشٌ سهيلَ بن عمرو للمفاوضة وقالوا له: ائتِ محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحهِ إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله! لا تحدَّثُ العربُ عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً، فلما انتهى سهيلٌ[1] إلى رسول الله ﷺ جرتْ محادثات طويلة للصلح وشروطهِ، كادت[2] تنقطع في بعض الأحيان، ثم يعيد اتصالها حرصُ الجانبين على النجاح؛ وكان المسلمون من حول النبي ﷺ يسمعون أمر هذه المحادثات ويضيق بعضُهم بأمرها صبراً، لتشدُّدِ سهيل في مسائل تساهل النبيُّ ﷺ في قبولها؛ ولولا ثقةُ المسلمين المطلقة برسولهم وإمامهم وقائدهم، ولولا إيمانهم به، لما ارتضوا ما تمَّ الاتفاق عليه، ولقاتلوا ليدخلوا مكة، أو لتكون الأخرى. فقد ذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أعقاب المحادثات إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ودار بينهما الحديث الآتي:

قال عمر: يا أبا بكر! أليس برسول الله؟
أجابه أبو بكر: بلى، قال عمر: أولسنا بالمسلمين؟
أجابه أبو بكر: بلى، قال عمر: فعلامَ نُعْطي الدنية في ديننا؟
أجابه أبو بكر: يا عمر! الزَمْ غرزكَ[3]، فإني أشهد أنه رسول الله.
فقال عمر: وأنا أشهدُ أنه رسول الله.

وانقلب عمر بعد ذلك إلى الرسول ﷺ وتحدَّثَ وإياه بمثل هذا الحديث، وهو مغيظٌ محنَقٌ، لكن ذلك لم يغيّر من صبر النبي ﷺ ولا من عزمه، وكل الذي قاله ﷺ في ختام الحديث لعمر: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمرَهُ، ولن يضيّعني»، ثم كان بعد ذلك كتابة العهد.

---

(١) كان سهيل سياسياً قديراً، وخطيباً مفوهاً، وشخصية فذة.
(٢) في الأصل (كادت تكاد) فحذفنا الكلمة الثانية. المحقق.
(٣) الغرز: معناه الرحل والمحاورة في كتاب حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص ٣٦٢.

٢٨٤ ــ نص كتاب الصلح في عهد الحديبية

دعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وقال له: اكتبْ بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل، لا أعرفُ هذا ولكن اكتب باسمك اللهمَّ، فكتبها، ثم قال: اكتبْ هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سُهَيْلَ بن عمرو، فقال سهيل: أمسك لو شهدتُ أنكَ رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، قال رسول الله ﷺ: اكتُبْ هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سُهَيْلَ بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهنَّ الناس، و يكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذنِ وليهِ رَدَّهُ عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمدٍ لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبةً مكفوفةً(١) وأنه لا إسلال ولا إغلال (٢)، وأنه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمدٍ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريشٍ وعهدهم دخل فيه، فتواثبتْ خزاعةُ فقالوا: نحن في عقد محمدٍ وعهده، وتواثبتْ بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريشٍ وعهدهم، وأنكَ ترجعُ عنا عامكَ هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عامٌ قابلٌ، خرجنا عنكَ فدخلتها بأصحابكَ، فأقمتَ بها ثلاثاً معكَ سلاح الراكب السيوفُ في القُرُبِ، لا تدخلها بغيرها (٣). وكُتبتْ نسخة أخرى من هذا العقد لتبقى عند المسلمين، لأن سهيلاً قال: يكون هذا الكتاب معي.

وقيل: إن الذي كتب النسخة الأخرى محمد بن مسلمة، ولم يكن أحدٌ في القوم راضياً بجميع ما رضي به النبيُّ ﷺ غير أبي بكر رضي الله عنه. وقد جاء في كتاب الصلح عبارة: (وأن بيننا عيبة مكفوفة) أي أموراً مطويةً في صدورٍ سليمة، إشارة إلى ترك المؤاخذة بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها.

---

(١) المراد أنك تكف عنا، ونكف عنك، فاستعار هذه العبارة لذلك.

(٢) الإسلال: السرقة الخفية، والإغلال: الخيانة.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٦٦، وكتاب حياة محمد ص ٢٦٣ وكتاب محمد رسول الله ﷺ.

٢٨٥ ــ مزايا هذا الصلح

نقل الإمام النووي عن العلماء: أن المصلحة المترتبة على هذا الصلح هي ما ظهر من ثمراته الباهرة، وفوائده المتظاهرة التي علمها النبيّ ﷺ وخفيتْ على قريش، فحمله ذلك على موافقتهم وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين، ولا تظهر عندهم أمورُ النبيّ ﷺ كما هي، ولا يجتمعون بمن يعلمهم بها مُفَصَّلَةً، فلما حصل الصلحُ، اختلطوا بالمسلمين، وجاءوا إلى المدينة، وجاء المسلمون إلى مكة، وخلَوْا بأهليهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونهم، وسمعوا منهم أحوال النبي ﷺ ومعجزاته الظاهرة، وأعلام نبوته المتظاهرة، وحسن سيرته وجميل طريقته، وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك، فمالتْ أنفُسهم إلى الإيمان، حتى بادر خلقٌ منهم إلى الإسلام، قبل فتح مكة، فأسلموا فيما بين صلح الحديبية وفتح مكة؛ كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وغيرهما، وازداد الذين لم يسلموا ميلاً إلى الإسلام، فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم لما قد تمَّ لهم من الميل. أقول: إن مزايا هذه الصلح التي غابت عن الصحابة الكرام، ولم تخف على الرسول ﷺ، وكانت عظيمة جداً، فقد اعتُرف له ﷺ في هذه المعاهدة بأنه قوة مستقلة نظير قريش وأن الهدنة تُوجد للمسلمين فرصةً لنشر دينهم في جزيرة العرب بلا معارضة، ثم إن النبي ﷺ كان واثقاً من جهةٍ أخرى من إخلاص أصحابه، وحبهم له، وشدة تمسكهم بالعقيدة الإسلامية فلا ينضمون إلى قريش، بينما كان يتوقع إسلام بعض القبائل وفوق ذلك فقد سمح له بزيارة مكة لتأدية الفريضة الدينية مع المسلمين في العام القابل، والإقامة بمكة مدة ثلاثة أيام، من غير أن يتعرَّضُوا لهم بسوءٍ، وبسبب ما جاء في هذه المعاهدة من المزايا، ازداد عددُ المسلمين زيادةً عظيمةً، فبعد أن كان عددُ جيش الحديبية (١٤٠٠) ألف وأربعمائة، بلغ عددهم عند فتح مكة بعد عامين (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف.

جاء في دائرة المعارف الإسلامية: (أن محمداً ﷺ فاز في صلح الحديبية

على قريش فوزاً سياسياً باهراً[1]). لما فرغ ﷺ من الصلح قام إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه بيد خراش بن أمية بن الفضل الخزاعي؛ فلما رأى الناسُ أن رسول الله ﷺ قد نحر وحلق، تواثبوا لينحروا ويحلقوا وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حلق رجال يوم الحديبية وقصَّر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: «يرحمُ اللهُ المحلقينَ قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين، قالوا والمقصرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين، قالوا والمقصرين يا رسول الله؟ قال: والمقصرين».

قال المحدّثُ الزهري في حديثه: ثم انصرف رسول الله ﷺ من وجهه ذلك، قافلاً، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح: ﴿إنا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً، ليغفر لك اللهُ ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ويتمَّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ ثم كانت[2] القصة فيه وفي أصحابه حتى انتهى إلى ذكر البيعة فقال[3] تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يدُ اللهِ فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكثُ على نفسه، ومن أوفىَ بما عاهدَ عليه اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾[4].

٢٨٦ ــ نتائج هذه الغزوة وفوائدها القيمة

أهم نتائج غزوة الحديبية، وفوائدها القيمة، هي ما يلي:

أ ــ اعتبار المسلمين طرفاً مساوياً لقريش، وهذا أول اعتراف بالدولة الإسلامية، من أشد أعدائها، وألدّ خصومها، وأقواهم في الحجاز.

لقد كانت قريش تعتبر المسلمين من قبل، عصاةً شقُّوا عليها، عصا الطاعة، ولم تكن تعتبرهم نداً لها قدراً وقيمةً وقوةً ومكانةً.

---

(١) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٣٥٤.
(٢) (ثم كانت) لو قال بدلها (ثم سرد.. الخ) لكان أوضح. المحقق.
(٣) لو قال (ثم ذكر قوله تعالى.. الخ) لكان أظهر. المحقق.
(٤) الآية رقم (١٠) من سورة الفتح. المحقق.

ب ــ أصبح المجال مفتوحاً أمام الرسول ﷺ لمحالفة القبائل، التي لم تكن تطمئن إلى محالفته، لقوة قريش ولوجود الكعبة بمكة؛ وبذلك قوي جانب المسلمين، وكثر حلفاؤهم، وازدادت قوتُهم الضاربة.

ج ــ التفريق بين قريش وحلفائها الطبيعيين، يهود خيبر الذين كانوا لا ينفكُّون يحرّضون القبائل على الرسول ﷺ.

د ــ الاستقرار الذي أمَّنَ التفرّغ للدعوة وانتشار الإسلام.

هـ ــ نجاح المسلمين في الحصول على الحياد المسلح: المسلمون محايدون ومُشرَّدوهُم لذين فرُّوا بدينهم من قريش وحلفائها مسلّحون يقاتلون.

و ــ إثارة المسلمين للرأي العام ضدّ قريش لصدّها المسلمين عن زيارة البيت الحرام وتعظيمه، مما أكسب المسلمين عطف كثير من القبائل، وكثير من قريش نفسها، وكثير من أهل المنطقة المجاورة لقريش؛ مما سهّل عمليةَ فتح مكة عليهم فيما بعد.

٢ ــ هذه هي نتائج (الحديبية) وهي بعض أهداف الرسول ﷺ البعيدة، التي لم يستطع المسلمون إدراكها في حينه، فلما عادوا إلى المدينة المنورة، واستقرَّ بهم المقام هناك، ورأوا بعضَ تباشير هذه النتائج، قال أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه، معبراً عن رأي المسلمين: (ألم يُجلبْ[1] نصرُ للإسلام ما جلب صلح الحديبية)[2].

ثم نزل في هذا النصر قول الله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ وقد ذكرته سابقاً.

وبدأ المسلمون حينذاك يلمسون بُعْدَ نظرِ الرسول ﷺ وما بشّرهم به من فتح قريبٍ بإذن الله تعالى.

---

(١) لعل صواب العبارة (لم يُجْلَبْ نصر للإسلام.. الخ). المحقق.

(٢) انظر كتاب قادة الفتح الإسلامي الرسول القائد ص ٢٨٨.

٢٨٧ ــ تنفيذ المعاهد بين رسول الله ﷺ وقريش

قد راعَى رسولُ الله ﷺ تنفيذ هذه المعاهدة بدقَّةٍ، فكان في مدة الصلح يردُّ الرجال المهاجرين، ولا يردُّ النساءَ بعد الامتحان، وكان الامتحان أن تُستحلف المرأة المهاجرة أنها ما هاجرتْ ناشزاً، ولا هاجرتْ إلا لله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكمُ المؤمناتُ مُهاجرات فامتحِنُوهنَّ﴾ (١) فلما هاجرتْ إليه أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط رضي الله عنها، وكانت قد أسلمتْ بمكة، وبايعتْ قبلَ أن يُهاجرَ ﷺ، ثم خرجت في مدة الصلح مهاجرة ماشيةً على قدميها من مكة إلى المدينة، وَصحبت رجلاً من خزاعة، وهي أخت عثمان بن عفان رضي الله عنه لأمه، لم يردَّها النبيُّ ﷺ، لأن الشرط يقتضي برجوع الرجال فقط؛ ولما خرج أخوها عمارة والوليد في ردّها بالعهد، أخبرهما رسول الله ﷺ بأن النساء المؤمنات لا يرجعنَ، وأن الشرط في الرجال فقط، وأن النساء يمتحن؛ فرجعا إلى مكة، وأخبرا قريشاً بذلك فرضوا به.

وردَّ رسولُ الله ﷺ أبا بصير، فذهب ــ بعد أن قَتَلَ خنيساً الذي جاء في طلبه ــ إلى محل في طريق الشام يمرُّ به ذوُو الميرة، واجتمع إليه جمعٌ من المسلمين الذين كانوا احتبسُوا بمكة، فكانوا يتسلَّلون إليه؛ وانفلت أبو جندل بن سُهَيل بن عمرو الذي رَدَّهُ ﷺ يوم الحديبية، وخرج من مكة في سبعين راكباً أسلموا فلحقوا بأبي بصير، وكرهوا أن يقدموا على رسول الله ﷺ في مدة الهدنة خوفاً من أن يردَّهم إلى أهلهم؛ وانضمَّ إليهم ناسٌ من غفار وأسلم وجهينة، وطوائف من العرب ممن أسلم، حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتلٍ، ولا تمرُّ بهم عيرٌ إلا أخذوها، حتى كتبتْ قريش له ﷺ تسأله بالأرحام إلا (٢) آواهم، ولا حاجة لهم بهم.

---

(١) من سورة الممتحنة آية (١٠).

(٢) في الأصل (ألاّ) بدل (إلاّ). المحقق.

فكتب رسولُ الله ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير أن يقدما عليه، وأن من معهم من المسلمين يلحق ببلادهم وأهليهم[1]، ولا يتعرّضوا لأحدٍ مرَّ بهم من قريش ولا لعيرهم. فقدم كتابُ رسول الله ﷺ عليهما وأبو بصير مشرف على الموت لمرضٍ حصل له فمات وكتاب رسول الله ﷺ في يده يقرؤه، فدفنه أبو جندل مكانه، وجعل عند قبره مسجداً، وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ مع ناسٍ من أصحابه، ورجع باقيهم إلى أهلهم[2]، وأمنتْ قريشٌ على عيرهم؛ وتحقّق قولُ رسولِ الله ﷺ يوم الحديبية: «سيجعلُ اللهُ لأبي جندلَ وأصحابِه فرجاً ومخرجاً».

٢٨٨ ــ اتجاه الرسول ﷺ بعد الهدنة واتّجاه قريش

اطمأنت العلاقات بعد الحديبية بين قريش وسيدنا محمدٍ ﷺ أعظم الطمأنينة، وأمِنَ كلُّ جانبَ صاحبِه، واتجهتْ قريش كلها إلى التوسع في تجارتها، لعلها تستعيد من طريقها، ما فقدتْهُ أيام اتصال الحرب بين المسلمين وبينها، وحين سُدَّتْ عليها طريق الشام وأصبحت تجارتُها معرَّضةً للضياع؛ أما الرسول الكريم فقد اتجه بفكره الثاقب، وعقله الناضج وتدبيره الحكيم: إلى متابعة إبلاغ رسالته للناس جميعاً، في مشارق الأرض ومغاربها، ووجَّهَ نظره إلى تمهيد أسباب النجاح لطمأنينة المسلمين في شبه الجزيرة العربية وهذا وذاك هو ما صنع عليه الصلاة والسلام بإرسال الرُّسُلِ إلى الملوك في مختلف الدول، وبإجلاء اليهود عن شبه جزيرة العرب، إجلاءً تاماً، بعد غزوة خيبر.

٢٨٩ ــ دعوة الإسلام والتنظيم الإجتماعي

عاد رسول الله ﷺ والمسلمون من الحديبية، قافلين إلى المدينة بعد ثلاثة أسابيع من إجراء الصلح بينهم وبين قريش، على ألا يدخلوا مكة هذا العام،

(١) في سيرة ابن هاشم ما يفيد أن النبي ﷺ استقدم أصحاب أبي بصير جميعاً وآواهم كما طلبت قريش. ولعل هذا هو الصواب. المحقق.

(٢) انظر الهامش رقم (١). المحقق.

وأن يدخلها[1] العام الذي يليه، عادوا وفي نفوسهم من أمر هذا الصلح شيء، حتى تلا عليهم ﷺ [2] ما نزل عليه من سورة الفتح كما أسلفتُ سابقاً.

وانتهى تفكير الرسول ﷺ فيما يقوم به لزيادة[3] دعوته وتعميمها على الناس، لأن رسالته رحمة للناس: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[4]﴾ لذا انتهى به التفكير إلى ما يعلمه، أن يرسل إلى الملوك والأمراء، إلى هرقل وكسرى والمقوقس ونجاشي الحبشة وإلى الحارث الغساني، وإلى عامل كسرى في اليمن، كما انتهى تفكير سيدنا محمد ﷺ إلى ضرورة القضاء قضاء أخيراً على شوكة اليهود سفّاكي الدماء وقاتلي الأنبياء، ومثيري الفتن والفساد، وناقضي العهود، ومؤلبي القبائل عليه ﷺ، والخلاص منهم، وتطهير شبه الجزيرة العربية منهم. والحق أن الدعوة الإسلامية كانت قد بلغتْ يومئذٍ من النضج ما يجعلها دين الناس كافّةً. فهي لم تقف عند التوحيد، وما يقتضيه التوحيد من عبادات، بل انفرج ميدانها لتنظيم المعاملات بين الناس، وتناولت من صور النشاط الاجتماعي كلها ما يوازي بينها وبين سموّ فكرة التوحيد، وما يرفع الفرد الإنساني إلى بلوغ أعلى مراتب الكمال البشري، وإلى تحقيق المثل الأعلى في الحياة؛ ولذلك نزلت الأحكام في كثير من الأمور الاجتماعية.

٢٩٠ ــ تحريم الخمر لمضارّه الجسمية والخلقية والاجتماعية

اختلف علماء السيرة في تحريم الخمر، ذهب بعضهم إلى أنه كان التحريم في السنة الرابعة للهجرة، ولكنَّ أكثرهم على أنه كان عام الحديبية، والفكرة في تحريم الخمر إجتماعية غير متصلة بالتوحيد وقد شرحت تحريم الخمر سابقاً في

---

(١) لو قال (وأن يدخلوها) لكان أوجه. المحقق.

(٢) لم يذكر المؤلف لفظ (النبي ﷺ). المحقق.

(٣) لو قال (لنشر) بدل (لزيادة) لكان أفضل. المحقق.

(٤) الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء. المحقق.

بحث رقم ٢٥٢ جـ ٢ ص ٢٠٧ من كتابنا هذا فلا حاجة لذكره مرة أخرى وإنما ذكرته لخلاف العلماء بعد نهاية غزوة الحديبية ورجوع المسلمين للمدينة.

ولكن لا بدَّ لي أن أذكر قبل أن أشرح مكاتبة رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء، حالة الإمبراطورية الرومانية ودولة الفرس، لنكون على بينة من حالهما، ولذا فإني أقول:

٢٩١ ــ حالة الرومان والفرس وما كان بينهما

كانت الحروبُ ناشبةً بين الإمبراطورية الرومانية والفرس ففي سنة (٦٢١)م انتصرت جيوش الفرس، واستولت على الشام ومصر، وآسيا الصغرى، وذلك قبل الهجرة بسنة، وكان الفرس وقتئذ يهدّدون القسطنطينية، وأخيراً ظهر هرقل وتحوَّل على[١] إعادة مجدِ دولته، وفي زمن الهجرة سنة (٦٢٢)م كان الأمبراطور الروماني يطارد المغيرين من آسيا الصغرى. وفي الموقعة الثانية من مواقعه، سارت جيوشُه إلى قلب بلاد الفرس نفسها، وفي أثناء السنوات الثلاث التي كان فيها يستردُّ هرقلُ مجدَ الإمبراطورية، كان رسول الله ﷺ في نزاع مع قريش، وأعقب ذلك حصار الفرس للقسطنطينية الذي كان قبل حصار المدينة في غزوة الأحزاب بنصف سنة، يوليو سنة (٦٢٦)م وفي الموقعة الثالثة والّى هرقلُ انتصاره السابق، فانتصر انتصاراً تاماً في أول ديسمبر سنة (٦٢٦)م في موقعه نينوَى، وبذلك انكسرت جيوش الفرس، وتشتَّت شملُهم. وفي التاسع والعشرين من هذا الشهر، فرَّ كسرَى إلى عاصمة ملكه، وفي فبراير سنة (٦٢٨) قتله ابنُه شيرويه، واستولى على العرش وعقد معاهدة صلح مع الإمبراطور الروماني، على أن تبقى حدودُ الدولتين على ما كانت عليه من قبل، وفي حوالي هذا الوقت، كان النبي ﷺ يعقد صلح الحديبية مع رؤساء قريش، وفي ربيع هذه السنة خرج هرقل لزيارة القدس[٢].

---

(١) لو قال (واستطاع) بدل (وتحول على) لكان أوضح. المحقق.

(٢) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٣٥٨.

٢٩٢ ــ رُسُلُ سيدنا محمدٍ ﷺ إلى الملوك والأمراء

بعد رجوع المسلمين من الحديبية في أواخر سنة ستٍّ من الهجرة، وأمن الطريق من قريش، كاتب ﷺ ملوك الأرض، يدعوهم إلى الإسلام؛ واتخذ إذ ذاك خاتماً من فضةٍ، نقش عليه: (محمد رسول الله). فوجَّهَ دحيةَ الكلبي، بكتاب إلى قيصر ملك الروم، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليوصله إلى الملك. وكان عظيم بصرى هو الحارث ملك غسَّان، وكان الكتاب هذا إلى هرقل (أول كتاب) وهذا نص الكتاب:

٢٩٣ ــ بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمدٍ رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم.

سلامٌ على من اتَّبع الهدى، أما بعد: أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن تتولَّ، فإن إثم الأكارين عليكَ، وفي بعض النسخ: فإن توليتَ فإنما عليكَ إثم الأريسيين[١]، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا الله، ولا نُشركَ به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

ودفعه ﷺ إلى دحية بن خليفة الكلبي، ولما توجه به ووصل إلى بصرى، ذهب إلى عظيمها الحارث، بعث الحارث[٢] معه عدي بن حاتم ليوصله إلى هرقل؛ ولما وصلا إليه دفع له الكتاب، ولما وصل الكتاب إليه، قال انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عن محمد.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[٣] قال: حدثني أبو سفيان بن حرب قال: كنا قوماً تجاراً، وكانت الحربُ بيننا وبين رسول الله، قد

---

(١) انظر كتاب محمد رسول الله ص ٣٦١ وحياة محمد ص ٣٧١ ونور اليقين ص ١٦٦ ومعنى الأكارين: الفلاحين والأريسيين: الخدم والحشم ومعنى ذلك: أنه مسؤول عن إثم رعيته المسؤول عنهم.

(٢) في الأصل (الحارس) بالسين. والصواب بالثاء. المحقق.

(٣) كما في تاريخ ابن جرير الطبري ج ٣. وكتاب محمد رسول الله ص ٣٦١.

حصرتنا، حتى نهكتْ أموالنا، فلما كانت الهدنةُ بيننا وبين رسول الله، لم نأمن أن لا نجد أمناً، فخرجتُ في نفرٍ من قريش تجاراً إلى الشام، وكان وجه متجرنا منها غزة، فقدمناها حين ظهر هرقل، على من كان بأرضه من فارس، وأخرجهم منها، وانتُزِعَ له منهم صليبُه [1] الأعظم، وكانوا قد استلبوهُ إياه، فلما بلغ ذلك منهم، وبلغه أن صليبه قد استنقذ له، وكانت حمص منزله، خرج منها يمشي على قدميه متشكِراً لله، حين ردَّ عليه ما ردَّ، ليصلي في بيت المقدس وتُبسط له البسط، وتلقَى عليها الرياحين؛ فلما انتهى إلى إيلياء، وقضَى فيها صلاتَهُ، ومعه بطارقتُه وأشرافُ الروم، أصبح ذات غداةٍ مهموماً، يقلِّبُ طرفَهُ إلى السماء، فقال بطارقتُه: والله! قد أصبحتَ أيها الملك الغداةَ مهموماً، قال: أجل أُريتُ في هذه الليلة أن ملك الختان ظاهر، قالوا: أيها الملك! ما نعلم أمةً تختتن إلا يهود وهم في سلطانك، وتحت يدك، فابعثْ إلى كل مَنْ لكَ عليه سلطان في بلادك، فمُرْهُ فليضربْ أعناقَ كل من تحت يده من يهود، واسترح من هذا الهمّ؛ فوالله! إنهم لفي ذلك من رأيهم يديرونه، إذ أتاهُ رسول صاحب بصرى رجل [2] من العرب يقوده، وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها، فقال: أيها الملك! إن هذا الرجلَ من العرب من أهل الشاء والإبل، يحدث عن أمرٍ عجبٍ حدثَ ببلادهم فَسَلْهُ عنه؛ فلما انتهى به رسول صاحب بصرى إلى هرقل، قال هرقل لترجمانه: سله ما كان هذا الحدث الذي كان ببلاده؟ فسأله: فقال: خرج بين أظهرنا رجلٌ يزعم أنه نبيٌّ، قد اتبعه ناسٌ وصدَّقوهُ، وخالفه ناسٌ وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة، فتركتهُم على ذلك؛ قال: فلما أخبره الخبر، قال: جرّدُوه، فجردوه فإذا هو مختون، فقال هرقل: هذا والله! الذي أريتُ لا ما تقولون، أعطوه ثوبه، ثم دعا صاحبَ شرطته فقال له: قَلِّبْ لي الشام ظهراً وبطناً، حتى تأتيني برجلٍ من قوم الرجل — يعني النبيَّ ﷺ —.

قال أبو سفيان: فوالله! إنّا لَبِغزَّةَ، إذ هجم علينا صاحب شرطتهِ، فقال:

---

(١) في الأصل (صليبه) بفتح الباء. والصواب ضمها. المحقق.

(٢) لعل الصواب (برجل). المحقق.

أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز؟ قلنا: نعم، فقال: انطلقوا بنا إلى الملك؛ فانطلقنا معه فلما انتهينا إليه، قال: أنتم من رهط هذا الرجل؟ قلنا: نعم، قال: فأيكم أمسُّ به رحماً؟ قلتُ: أنا، قال أبو سفيان: وايم الله! ما رأيتُ من رجلٍ أرى أنه كان أنكر من ذلك الأغلف ــ يعني هرقل ــ فقال: ادنه. فأقعدني بين يديه، وأقعد أصحابي خلفي، ثم قال: إني سأسأله فإن كذب فردُّوا عليه، فوالله! لو كذبتُ ما ردوا عليَّ، ولكني كنتُ أمرأً سيداً أتكرَّم عن الكذب وعرفتُ أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبتُه أن يحفظوا ذلك عليَّ ثم يحدثوا به عني، فلم أكذبه، فقال: أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدَّعي ما يدَّعي، قال: فجعلتُ أزَهِّدُ لَهُ شأنه، وأصغّر له أمره، وأقول له: أيها الملك! ما يهمكَ من أمره؟ إن شأنه دون ما يبلغك، فجعل لا يلتفت إلى ذلك، ثم قال: أنبئني عما أسألكَ عنه من شأنه، قلتُ؛ سل عما بدا لكَ، قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: محض أوسطنا نسباً، قال: فأخبرني هل كان أحدٌ من أهل بيته يقول مثل ما قال فهو يتشبَّه به؟ قلتُ: لا، قال: فهل كان له فيكم ملكٌ فاستلبتموهُ إياه، فجاء بهذا الحديث لتردُّوا عليه ملكَهُ؟ قلتُ: لا، قال: فأخبرني عن أتباعه منكم من هم؟ قال: قلتُ الضعفاء والمساكين والأحداث والغلمان والنساء، وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحدٌ، قال: أخبرني عن من تبعه أيحبه و يلزمه، أم يقليه و يفارقه؟ قال قلتُ: ما تبعه رجلٌ ففارقه، وفي رواية البخاري ومسلم: قال هرقل: فاذا يأمركم؟ قال أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وكل ما أمر الله أن يوصل. قال هرقل: أخبرني كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال قلتُ: سجال، يدال علينا وندال عليه، قال: فأخبرني هل يغدرُ؟ فلم أجد شيئاً مما سألني عنه أغمزه فيه غيرها، قلت: لا. ونحن منه هدنةٍ، ولا نأمنُ غدره، قال: فوالله! ما التفتَّ إليها مني، ثم كرَّ عليَّ الحديث، قال: سألتُكَ كيف نسبه فيكم؟ فزعمتَ أنه محضٌ من أوسطكم نسباً، وكذلك يأخذُ الله النبيَّ إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً، وسألتك هل كان أحدٌ من أهل بيته يقول

بقوله، فهو يتشبَّهُ به؟ فزعمتَ أن لا، وسألتك هل كان له فيكم ملكٌ فاستلبتموه إياه، فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه؟ فزعمتَ أن لا، وسألتكَ عن أتباعه؟ فزعمتَ أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمانٍ، وسألتك عمن يتَّبِعُهُ أيحبه ويلزمه، أم يقليه ويفارقه؟ فزعمتَ أن لا يتبعهُ أحدٌ فيفارقه. وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه، وسألتك هل يغدرُ؟ فزعمتَ أن لا، فلئن كنتَ صدقتني عنه ليغلبني على ما تحت قدميَّ هاتين، ولوددتُ أني عنده فأغسل قدميه، انطلق لشأنك. قال: فقمت من عنده، وأنا أضربُ إحدى يديَّ بالأخرى، وأقول: أي عباد الله! لقد أمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة[1]، أصبح ملوكُ بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام، قال: وقدم عليه كتاب رسول الله ﷺ، فأخذ الكتاب فجعله بينَ فخذيه وخاصرته.

وفي البخاري: أن قيصر لما صار إلى حمص، أذن لعظماء الروم في دسكرة له، ثم أمر بأبوابها فغلِّقَتْ ثم اطلع فقال: (يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبتَ ملككُم، فتتابعوا هذا النبيَّ؟ فحاصوا حيصةَ حُمُرِ الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد أغلِقَتْ، وقالوا: أتدعونا أن نتركَ النصرانيةَ ونصير عبيدَ الأعرابي؛ فلما رأى نفرتهم، وأيس من إيمانهم قال: ردُّوهم عليَّ، وقال: إني قلتُ مقالتي أختبرُ بها شدَّتكم على دينكم فقد رأيتُ؛ فسجدوا له، ورضوا عنه) اهـ فلم يسلم هرقل[2].

٢٩٤ ــ الكتاب الثاني إلى الحارث بن أبي شمر الغسَّاني

بعث رسول الله ﷺ شجاعَ بنَ وهبٍ الأسدي، إلى الحارث بن أبي شمر

---

(١) أمِرَ أمرُ أبي كبشة: أي عظم أمره. هذا وفي رواية: ما زلت مرعوباً من محمد حتى أسلمت، وقوله ابن أبي كبشة: قيل: إنه جد آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ، كان يكنى أبا كبشة، وكان قد خالف قريشاً في عبادة الأصنام، فشبهوا به النبي ﷺ لمخالفته إياهم في عبادتها.

(٢) انظر هذه المحاورة في كتاب (محمد رسول الله) ص ٣٦٤. وكتاب (نور اليقين للخضري) ص ١٦٦.

الغساني، وكان أميراً بدمشق من جهة قيصر، ومعه كتاب رسول الله ﷺ وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمدٍ رسول الله، إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتَّبع الهدَى، وآمنَ بالله، فإني أدعوكَ إلى أن تؤمن بالله وحده، لا شريك له، يبق ملكك». وختم الكتاب بخاتمه الشريف (١).

قال شجاع بن وهبٍ الأسدي: فانتهيتُ إليه، فوجدته مشغولاً بتهيئة الضيافة لقيصر، وقد جاء من حمص قاعدته، إلى إيليا، وفاءً منه بنذرِه، حيث كشف الله عنه جنود فارس ونصره عليهم، فهو يشكر الله تعالى على ما أنعم عليه.

قال شجاع: فأقمتُ على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسولُ رسولِ الله ﷺ، فقال حاجبُه: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا، وجعل حاجبه يسألني عن النبي ﷺ وما يدعُو إليه، فكنتُ أحدثه، فيرقُّ حتى يغلبه البكاء ويقول: إني قرأت في الإنجيل، وإني أجدُ صفة هذا النبي بعينه، وكنتُ أظنه يخرج بالشام، فأراهُ قد خرج بأرض القرظ، فأنا أومن به وأصدقه، وأنا أخاف من الحارث بن أبي شمر أن يقتلني؛ وكان هذا الحاجب روميأ اسمه (مُرّي).

قال شجاع: وكان يكرمني، ويحسن ضيافتي، ويخبرني باليأس من الحارث، و يقول: هو يخاف قيصر؛ قال: فخرج الحارث يوماً، فوضع التاج على رأسه، فأذن لي بالدخول عليه، فدفعتُ إليه الكتاب، فقرأه ثم رمىَ به وقال: مَنْ ينتزعُ مني ملكي، أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئتُه، عليَّ بالناس، فلم يزل جالساً حتى الليل، وأمر بالخيل أن تنعلَ، ثم قال: أخبِرْ صاحبكَ بما ترَى، وكتب إلى قيصر يخبرهُ بخبري، فصادفَ قيصرَ بإيليا، وعنده دحية الكلبي

(١) عن المصادر السابقة.

رضي الله عنه، وقد بعثه رسولُ الله ﷺ إلى قيصر كما ذكرته قبل قليل. فلما قرأ قيصر كتاب الحارث الغساني، كتب إليه، أن لا تيسر[1] إليه، وَالْهُ[2] عنه، ووافني بإيليا.

ولما بلغ النبيَّ ﷺ خبرُه قال: (بادَ ملكُه). ويفهم من هذا أنه لم يسلم.

٢٩٥ ــ الكتاب الثالث إلى كسرى بن هرمز عظيم الفرس

كتب رسولُ الله ﷺ إلى كسرى بن هرمز، وبعث بالكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمي، لأنه كان يتردد على كسرى كثيراً، وهذا نصُّ الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمدٍ رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس، سلامٌ على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيّاً، أسلمْ تسلمْ فإن أبيتَ فعليكَ إثم المجوس».

فلما سلَّمه الكتاب وقرأه، مزَّقه، قال رسولُ الله ﷺ (مُزّقَ ملكُهُ).

ثم كتب كسرى إلى أميرٍ له باليمن يقال له (باذان) أن ابعثْ إلى هذا الرجلِ الذي بالحجاز رجلين من عندكَ جَلْدَين ــ قويين ــ فليأتياني به؛ فبعث (باذان) قهرمانه وهو (بابويه) وكان كاتباً حاسباً، بكتاب فارس، وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له: (خرخسرة) وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وقال البابويه: ائتِ بلد هذا الرجل وكلمه، وائتني بخبره، فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجالاً من قريش، بنخبٍ من أرض الطائف، فسألاهم عنه: فقالوا: هو بالمدينة، واستبشروا بهما وفرحوا، وقال بعضهم لبعضٍ: أبشروا فقد نصب له كسرى ملك

---

(١) في الأصل: (تُير) بضم التاء. والصواب فتحها لأنه فعل مضارع من (سار) الثلاثي. وهو مجزوم بلا الناهية. المحقق.

(٢) في الأصل: (والة) بفتح الهاء. والصواب ضمها لأنه فعل أمر من (لها ــ يلهو). المحقق.

الملوك، كفيتُم الرجلَ، فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلمه بابويه فقال: إنَّ شاهنشاهْ ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمرُه أن يبعث إليكَ مَنْ يأتيه بكَ، وقد بعثني إليكَ لتنطلقَ معي، فإن فعلتَ كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك، ويكفَّهُ عنكَ، وإن أبيتَ فهو مَنْ قد علمتَ، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك؛ ودخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما، وأعفيا شواربهما، فكرهَ النظرَ إليهما، ثم أقبل عليهما فقال: ويلكما من أمركما بهذا؟ قالا: ربنا. ــ يعنيان كسرى ــ فقال رسول الله ﷺ: لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقصّ شاربي، ثم قال لهما: ارجعا حتى تأتياني غداً؛ وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء أن الله قد سلّط على كسرى ابنه شيرويه، فقتله في شهر كذا وكذا، ليلة كذا وكذا، بعدما مضى من الليل كذا وكذا.

قال الواقدي: قتل شيرويه أباه كسرى ليلة الثلاثاء لعشر ليالٍ مضينَ من شهر جمادى الأولى من سنة سبعٍ لستٍّ ساعاتٍ مضَتْ منها.

فدعاهما فأخبرهما، فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليكَ ما هو أيسر من هذا، أفنكتب هذا عنكَ ونخبرهُ الملك[1]؟ قال: نعم، أخبراهُ ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخفّ والحافر، وقولا له: إنك إن أسلمتَ أعطيتُكَ ما تحتَ يديكَ، وملكتُكَ على قومك من الأبناء[2]، ثم أعطى خرخسرةَ منطقةً فيها ذهب وفضة، كان أهداها له بعض الملوك. فخرجا من عنده، حتى قدما باذان، وأخبراه الخبر[3]، فقال: والله! ما هذا بكلام ملكٍ، وإني لأرى الرجلَ نبيّاً كما يقول، ولتنظرن

---

(١) يقصدان بالملك: (باذان). المحقق.

(٢) نص عبارة ابن الأثير بالكامل ص ١٤٦ جـ ٢ طبع ونشر إدارة الطباعة المنيرية بمصر؛ نصها (وأمرهما أن يقولا لباذان: أسلم. فإن أسلم أقرّه على ما تحت يده، وأملكه على قومه) ولم يذكر لفظ (من الأبناء). المحقق.

(٣) لم يذكر في الأصل عبارة (وأخبراه الخبر) وقد نقلناها من المصدر المذكور. المحقق.

ما قد قال، فلئن كان هذا حقاً ما فيه كلام [1]، إنه لنبيّ مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا.

٢٩٦ ــ إسلام باذان أمير اليمن

لم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه بن كسرى وهو يقول فيه: (أما بعد: فإني قد قتلتُ كسرى، ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان، استحلَّ من قتل أشرافهم، وتجميرهم في ثغورهم، فإذا جاءك كتابي هذا، فخذ لي الطاعة ممن قِبَلَكَ، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك، فلا تُهِجْهُ حتى يأتيك أمري فيه).

فلما انتهى الكتاب إلى باذان الذي بعثه شيرويه قال باذان: إن هذا الرجل لرسول، فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس [2] من كان منهم باليمن؛ فكانت حميرُ تقول لخرخسرة: ذو المعجزة للمنطقة التي أعطاه إياها رسول الله ﷺ، والمنطقة بلسان حمير، المعجزة [3]، فبنُوه اليوم ينسبون إليها خرخسرة ذو المعجزة؛ وقد قال بابويه لباذان: ما كلمتُ رجلاً قط، أهيبَ عندي منه، فقال له باذان: هل معه شُرَط [4]؟ قال: لا. ولما أسلم باذان، ولاّه النبيُّ ﷺ على مخاليف اليمن، وكان منزله بصنعاء دار مملكة التبابعة، وبقي حتى مات بعد حجة الوداع، فولّى النبيُّ ﷺ ابنه (شَهْر بن باذان) على صنعاء، وولّى على كل جهةٍ واحداً من الصحابة رضوان الله عليهم.

ثم ملَّكَ الله تعالى المسلمين ملك كسرى وخزائنهم وأموالهم في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب العادل رضي الله عنه، ومزَّقهم الله كل ممزق، تحقيقاً لدعوته صلى الله عليه وسلم حينما قال: (مُزِّقَ ملكُه).

---

(١) نصّ العبارة من المصدر السابق (فإن كان ما قال حقًا، فإنه لنبيّ مرسل. وإن لم يكن، فنرى فيه رأينا). المحقق.

(٢) بالمصدر السابق (فلما أتاه كتاب شيرويه أسلم، وأسلم معه أبناء من فارس). المحقق.

(٣) في العبارة تقديم وتأخير والأصح: والمعجزة بلسان حمير: المنطقة. المحقق.

(٤) في لسان العرب (والشُّرْطةُ في السلطان: من العلامة والإعداد. ورجل شُرْطِيّ وشُرَطِيّ: منسوب إلى الشُّرْطة، والجمع: شُرَط. سُمُّوا بذلك لأنهم أعَدُّوا لذلك وأعْلَمُوا أنفسهم بعلامات. المحقق.

٢٩٧ ـ الكتاب الرابع إلى المقوقس
جريج بن ميناء عظيم القبط

بعث رسولُ الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى المقوقس واسمه جريج بن ميناء عظيم القبط.

وذلك أنه ﷺ عند منصرفه من الحديبية قال: أيها الناس! أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر، وأجره على الله؟ فوثب إليه حاطبٌ وقال: أنا يا رسول الله! فقال: بارَكَ اللهُ فيك يا حاطب، وهذا هو نصُّ الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من عبد الله ورسوله[1]، إلى المقوقس عظيم القبط.
سلامٌ على مَن اتّبع الهدَى، أما بعد: فإني أدعوكَ بدعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسلَمْ يؤتِكَ الله أجرَكَ مرتين، فإن تولَّيْتَ فعليكَ إثمُ كلِّ القبط ﴿يا أهلَ الكتابِ تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشركَ به شيئاً، ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون﴾». ثم ختمه صلى الله عليه وسلم وأعطاه لحاطب رضي الله عنه.

وهذا الكتاب محفوظ بدار الآثار في الآستانة، قيل: عثر عليه عالم فرنسي في دير بمصر، قرب أخميم في زمن سعيد باشا.

أخذ الكتاب حاطب رضي الله عنه وسار به، حتى قدم على المقوقس في مصر، فلم يجده، فذهب إلى الإسكندرية وأعطاه كتاب رسول الله ﷺ، فضمَّهُ إلى صدره، وجعله في حق عاجٍ، ودعا كاتباً له يكتب اللغة العربية فكتب:

---

(١) نصّ مطلع كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس من كتاب «عيون الأثر» لابن سيد الناس جـ ٢ ص ٢٦٥ طبع دار الجيل /بيروت (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط؛ سلام على من اتبع الهدى... الخ). المحقق.

(جواب المقوقس لرسول الله ﷺ)

بسم[1] الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد : فقد قرأت كتابك، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه، وما تدعُو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظنُّ أنه يخرج بالشام، وذكر له ما كان من إكرامه لحاطب.

وقيل: إنه دفع له مائة دينار، وخمسة أثواب، ودعا رجلاً عاقلاً[2] فلم يجد بمصر أحسن ولا أجمل من مارية (مريم)وأختها سيرين، وهما من أهل حَفن من كورة أنصنا، وهي قرية بصعيد مصر[3]، فبعث بهما إلى رسول الله ﷺ، وأهدى له بغلة وعسلاً[4] من عسل بَتْهَا ــ اسم بلدة ــ وقيل: بعث له غير ذلك عشرين ثوباً من قباطي مصر وطيباً وعوداً ــ نوع من الطيب ــ ومسكاً ولكنه لم يسلم؛ وقد قَبِلَ رسول الله ﷺ هذه الهدايا فأخذ مارية لنفسه، وأهدى سيرين لحسَّان بن ثابت رضي الله عنه وهي أم عبد الرحمن بن حسان، والبغلة تسمَّى الدلدل[5] وكانت شهباء ولم يكن في العرب يومئذٍ غيرها، ودعا في عسل بَتْهَا البركة.

٢٩٨ ــ الهدايا التي أرسلها المقوقس إلى رسول الله ﷺ

ذكر المرحوم حفني ناصف[6]، أصناف الهدايا التي أرسلها المقوقس إلى

---

(١) في الأصل قبل (بسم الله الرحمن الرحيم) ذكر لفظ (إلى النبي ﷺ) فحذفنا هذا اللفظ لتكرره. المحقق.

(٢) (ودعا رجلاً عاقلاً) لم أعرف مصدراً لهذه العبارة. وكأنها وضعت في غير مكانها. والذي وجدته في (عيون الأثر) ص ٢٦٦ جـ ٢ طبع دار الجيل ببيروت هو (وأخذ) أي: المقوقس (كتاب النبي ﷺ فجعله في حق من عاج وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى النبي ﷺ، ثم ذكر نص الكتاب المذكور. المحقق.

(٣) جاء في الحديث الشريف: أهدى المقوقس إلى النبي ﷺ مارية من حفن من رستاق أنصنا، وأنصنا بلدة قديمة بها آثار عظيمة وبعضه[١١١] باق إلى اليوم.

(٤) في الأصل (وعسلٍ) بالجر. والصواب النصب لأنه معطوف على منصوب. المحقق.

(٥) الوارد بالمراجع (دلدل) بدون (ال). المحقق.

(٦) في الأصل (ناصيف) بزيادة ياء. المحقق.

رسول الله ﷺ وهي[1].

١ . ماريةُ بنت شمعون، وكانت أمها رومية
٢ . جاريةٌ أخرى اسمها سيرين، ولكنها أقل جمالاً من مارية.
٣ . جاريةٌ أخرى يقال لها قيسر.
٤ . جارية سوداء يقال لها بريرة.
٥ . غلامٌ أسود يقال له هابو.
٦ . بغلةٌ شهباء وهي التي سميت بدلدل.
٧ . فرسٌ مسرج ملجم وهو الذي سمي بميمون.
٨ . حمارٌ أشهب وهو الذي سمي بيعفور.
٩ . مربعةٌ فيها مكحلة ومرآة ومشط وقارورة دهن ومقص وسواك.
١٠ . جانبٌ من عسلٍ بلدة بَنْهَا.
١١ . ألفُ مثقال من الذهب.
١٢ . عشرونَ ثوباً من قباطي مصر.
١٣ . جانب من العود والندّ ــ نوع من العطر ــ والمسك.
١٤ . قدح من قوارير.
١٥ . طبيب.

فقبل النبي ﷺ الهدية كلها، عدا الطبيب فقد قال له النبيُّ ﷺ: «ارجع إلى أهلك، نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع».

وقد أسلمت مارية، قبل أن تصل إلى المدينة هي وسيرين بدعوة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه.

٢٩٩ ــ ترجمة مارية القبطية رضي الله عنها

ذكرت لكَ يا أخي القارىء أن مارية هي من جملة الهدايا التي قدَّمها المقوقس للنبي ﷺ؛ وكان عليه الصلاة والسلام يحبها، ويعجب

(١) راجع مجلة الهلال السنة (٤١) ج ١ ص ٧٨.

بأخلاقها، وكانت بيضاء جعدة جميلة؛ فأنزلها رسول الله ﷺ وأختها سيرين على أم سليم بنت ملحان فأسلمتا، فوطىء مارية بملك[1] اليمين، وحولها إلى مالٍ له بالعادية كان من أموال بني النضير، فكانت فيه في الصيف، وفي خرافة النخل، فكان يأتيها هناك، وكانت حسنة الدين ومن فواضل نساء عصرها. ووهب أختها سيرين لحسان بن ثابت الشاعر الإسلامي المجيد، فولدت له ولده عبد الرحمن، وولدت مارية لرسول الله ﷺ غلاماً سماه إبراهيم، وتوفيت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة (١٦)هـ ودفنت في البقيع، وكان عمر يجمع الناس بنفسه لشهود جنازتها وصلّى عليها ودفنت بالبقيع، ومن قبله كان أبو بكر ينفق عليها[2] أما ولدها إبراهيم بن رسول الله ﷺ فقد عقَّ عنه والدهُ بشاةٍ يوم سابعه، وحلق رأسه وتصدق بزنة شعره فضةً على المساكين و وأمر بشعرِه فدفن في الأرض، وكانت ولادته في ذي الحجة سنة ثمانٍ من الهجرة عام (٦٣٠)م ودفعه ﷺ إلى أم بردة بنت المنذر بن زيد بن لبيد بن خِداش بن عاصم من بني النجار. وعاش إبراهيم سنة وعشرة أشهر ودفت بالبقيع، وقبره مشهور أمام مدخل البقيع جانب قبر الإمام مالك، يزار من قبل الزائرين للبقيع.

وحزن عليه والدُه سيدنا محمد ﷺ حزناً عميقاً، وفاضت عيناه بالدمع الثخين عليه؛ قال سعد له: ما هذا يا رسول الله؟ قال ﷺ: هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء[3].

ما هذا يا رسول الله؟

هذا رسول الله في أصدق ما تكون عليه رسالة الرسل، في الرحمة، وفي أواصر المحبة الإنسانية، وغير هذا لن يكون. لما ولد إبراهيم كان ﷺ بأقصى الفرح عند ولادته وسماه باسم جده الأكبر خليل الرحمن متفائلاً،

---

(١) في الأصل (بالملك اليمين) والصواب ما أثبتنا. المحقق.

(٢) عن كتاب (مرآة الجنان) لليافعي.

(٣) انظر كتاب (عبقرية محمد) للعقاد ص ٢١٤.

وبمقدار فرحه هذا، كان الحزن الوجيع يوم وداعه له عند الدفن. وإنها إرادة الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وصرخ أسامة حين بكى رسول الله ﷺ فنهاه وقال: البكاء من الرحمة، والصراخ من الشيطان، وكسُفتِ الشمس يوم وفاة إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: إن الشمس والقمر آيتان من آياتِ الله لا تخسفان لموت أحدٍ ولا لحياة[1]، وهكذا رأينا رسول الله ﷺ يوم ولد إبراهيم ويوم أن مات.

٣٠٠ ـ الكتاب الخامس إلى النجاشي أصحمة ملك الحبشة

التجأ المهاجرون الأولون إلى الحبشة، فأكرمهم النجاشي، وبقوا هنالك آمنين من اضطهاد قريشٍ؛ ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، عاد أربعون من المهاجرين، والتحقوا بالنبي ﷺ بالمدينة، وبقي منهم في الحبشة نحو خمسين أو ستين تحت حماية النجاشي؛ وقد حمل عمرو بن أمية الضَمري[2] رسالتين إليه يدعوهُ في إحداهما إلى الإسلام، وفي الأخرى يأمره أن يزوّجه أمَّ حبيبة، وهذه صورة كتابه ﷺ إلى النجاشي، الذي يدعوه فيه إلى الإسلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله، إلى النجاشي الأصحَمْ ملكِ الحبشةِ، مسلمٌ[3] أنت[4]: فإني أحمدُ إليك الله[5] الملكَ القدُّوسَ السلامَ المؤمنَ المهيمنَ، وأشهد أنَّ عيسَى بن مريمَ روحُ اللهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ البتولِ الطيّبة الحصينةِ، فحملَتْ بعيسى من روُحِهِ ونفخهِ، كما خلق آدم بيدهِ ونفخهِ، وإني أدعوكَ إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعتِه، وأنْ تتبعني وتؤمنَ بالذي جاءني، فإني رسولُ

(١) الصواب (ولا لحياته). المحقق.

(٢) في الأصل (عمرو بن الضمري). المحقق.

(٣) في عيون الأثر (سِلْمٌ أنت). المحقق.

(٤) أي أنتَ سالم، لأن السلم هنا بمعنى السلامة.

(٥) بالمصدر المذكور (الله الذي لا إله إلا هو). المحقق.

الله، وقد بعثتُ إليكَ ابنَ عمي جعفراً، ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاءكَ فاقْرِهِم، ودَعِ التجبرَ، فإني أدعوكَ وجنودَكَ إلى الله، فقد بلَّغتُ ونصحتُ، فاقبلوا نُصحي، والسلام على من اتبع الهدى». فلما وصل إليه الكتاب، وضعه على عينيهِ، ونزل عن سريرِه، فجلس على الأرض، ثم أسلم، وكتب الجواب للنبي ﷺ، وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله، من النجاشي الأصحم بن أبجر.

سلامٌ عليكَ يا نبي الله! ورحمة الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام؛ أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله! فيما ذكرتَ من أمر عيسى، فوربِّ السماء والأرض! إن عيسى ما يزيد على ما ذكرتَ، وقد عرفنا ما بعثتَ به إلينا وقد قرَّبنا ابنَ عمكَ وأصحابَه، فأشهدُ أنكَ رسول اللهِ صادقاً مصدقاً، وقد بايعتُكَ وبايعتُ ابنَ عمك، وأسلمتُ على يديهِ لله ربِّ العالمين، وأرسلتُ إليكَ بابني (أرها بن الأصحم بن أبجر) فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئتَ أن آتيك فعلتُ يا رسول الله! (١).

قال ابن إسحاق: وذكر أن النجاشي بعث ابنه في ستين من الحبشة في سفينةٍ، فإذا كانوا (٢) في وسط البحر غرقت بهم سفينتهم فهلكوا (٣).

٣٠١ ـ إسلام النجاشي الأصحم بن أبجر

إن رواية ابن إسحاق صريحة بأن النجاشي أصحمة قد أسلم، وقد قرأ عليه جعفرُ بن أبي طالب رضي الله عنه، سورة مريم، وقول عيسى: ﴿قال إني عبدُ اللهِ آتاني الكتابَ وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنتُ، وأوصاني بالصلاة

(١) انظر الكتاب هذا في سيره ابن إسحاق.

(٢) لعل الصواب (حتى إذا كانوا) بدل (فإذا كانوا). المحقق.

(٣) انظر (محمد رسول الله) ص ٣٧٤.

والزكاة ما دمتُ حياً﴾[1]. وقد شكَّ بعضُهم في إسلام النجاشي، لكن المصادر التاريخية الصادقة الصحيحة المعتمدة تصرح بإسلامه[2]، وفي قول عمرو بن العاص أنه بايع النجاشي على الإسلام؛ ولكنه كان يخفي إسلامه على قومه.

ومما يقوي إسلام النجاشي أنه كان مسيحياً نسطورياً[3]، ومذهب نسطور قائم على التوحيد، و ينكر ألوهية المسيح، فمن ذلك قوله: (لا تقولوا مريم أم الله، لأنها من البشر، و يستحيل أن يولد الإله من البشر).

وجاء في مسند الإمام الشافعي رضي الله عنه (من كتاب الجنائز والحدود): عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ نعى للناس النجاشي اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلَّى فصف بهم، وكبَّر أربع تكبيرات. وهذا دليل قائم على إسلام النجاشي لأن رسول الله ﷺ لا يصلّي إلا على مسلمٍ. وفي صحيح البخاري عن جابر قال النبي ﷺ حيث مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة».

٣٠٢ ـ الكتاب السادس إلى صاحب اليمامة هوذة بن علي

وكان ممن كتب لهم رسول الله ﷺ من الأمراء، هوذة بن علي الحنفي، أمير اليمامة، وهي بلدة على بعد ستّ عشرة مرحلة من مكة؛ وكان رجلاً محباً لنفسه، منكباً على الملك والسلطان. فوجَّه إليه رسول الله ﷺ الكتاب الآتي مع سليط بن عمرو العامري وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمدٍ رسول الله، إلى هوذة بن علي:

سلامٌ على من اتَّبع الهديَ، فاعلم أن ديني سيظهر إلى منتهىَ الخفِّ والحافر، فأسلمْ تسلمْ، واجعلُ لكَ ما تحتَ يدك[4]». فختمه ﷺ بخاتمه،

---

(١) من سورة مريم الآيتان (٣٠ و ٣١).

(٢) راجع سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري، وأسد الغابة كلها تشير بإسلامه.

(٣) انظرها في كتاب حياة محمد تأليف إيرفنج ومو يرج (٤).

(٤) انظر كتاب رسالة الإسلام نور بدّد الظلام ص ١٤٢.

ثم أعطاه إلى سليط بن عمرٍو العامري وأمره أن يتوجه إلى هوذة بن علي و يقدم له الكتاب المذكور، فلما بلغه وقدمه إليه حسبَ النبيَّ شاعراً أو سلطاناً، فأخذ يساومه في أمر إسلامه، و يريد منه أن يشاركه معه في النبوة أو الحكم، فكتب إليه ما يأتي: (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعرُ قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر اتبعك)، فلما عاد سليطٌ إلى الرسول ﷺ وأبلغه الردَّ قال ﷺ: «بادَ وبادَ ما في يدهِ» وما لبث أن أباده الله وأسلم أهل اليمامة.

٣٠٣ ـ الكتاب السابع لأمير البحرين المنذر بن ساوى التميمي

وكان ممن وجَّهَ إليهم الرسولُ ﷺ الدعوة إلى الإسلام، المنذر بن ساوىَ التيمي أمير البحرين، فاستجاب لدعوته، واعتنق الإسلام، ولكنه كتب إلى الرسول ﷺ يستفتيه فيما يصنعُه بقومهِ، وهم خليط من المجوس واليهود، ويسأله الرحمة بهم، فكتب إليه ﷺ الكتاب التالي ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمدٍ رسول الله، إلى المنذر بن ساوىَ، سلامٌ عليكَ، فإني أحمد إليكَ الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أما بعد: فإني أذكّركَ الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي و يتبع أمرهم، فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتكَ في قومكَ، فاتركْ للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوتُ عن أهل الذنوب، فاقبلْ منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلكَ عن عملك، ومن أقام على يهوديتهِ أو مجوسيتهِ فعليه الجزية»(١).

فختم الكتاب بخاتمه الشريف، و بعثَ بهذا الكتاب مع العلاء بن الحضرمي، فلما سلمَّه إليه دعا قومه وعرض عليهم الإسلام، فدخل فيه من

(١) انظر المصدر السابق ص ١٤٣.

أحب، ومنهم من كرهه وبقي على دينه، ولكنه دفعَ الجزية، وقيل: إن المنذر سار بعد ذلك على رأس وفدٍ إلى رسول الله ﷺ.

٣٠٤ ـ الكتاب الثامن إلى ملكي عُمان (جيفر وعبدٍ)

وكان ممن كتب لهم رسولُ الله ﷺ، الدعوةَ إلى الإسلام بصورةٍ حازمةٍ وقوةٍ متناهيةٍ (جَيْفَر وعبد ابنا الجُلَنْدي) ملك بلاد عُمان في الخليج الفارسي حيث كتب لهما كتاباً مغفلاً من العنوان، بعثه مع عمرو بن العاص، وهذا نصُّ الكتاب:

«أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسولُ الله إلى الناس كافة، لأنذرَ من كان حيّاً ويحقَّ القولُ على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام، ولَّيتكما؛ وإن أبيتما أن تُقِرّا بالإسلام، فإن مُلككُما زائل عنكما، وخيلي تحلُّ بساحتكما، وتظهر نبوّتي على ملككما»[1]. فلما سلَّم عمرو بن العاص الكتابَ إليهما، لم يتردّدا في قبول الإسلام، وسألا عمراً أن يعلمهما الإسلام، وقد أسلم معهما خلقٌ كثيرٌ، ووضعت الجزيةُ على من لم يسلم.

٣٠٥ ـ ردُّ افتراء صادرٍ من خصوم الإسلام

جاء في كتاب تاريخ الإسلام، أنه زعم مرجليوث وقال: (لم يوجّه محمد أي كتاب للملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية ودليلنا على ذلك أننا لم نعثر على أثر لهذه الكتب في تاريخ هؤلاء الملوك والأمراء).

ويقول (وليم مور) و(كتياني): (إن الإسلام لم يفكر بخارج الجزيرة العربية مطلقاً).

أقول: لقد ثبت في كتب التاريخ والسير المعتمدة والصحيحة[2] أن رسول

(١) انظر المصدر السابق ص ١٤٣.

(٢) كسيرة بن إسحاق، وكتاب محمد رسول الله، وحياة محمد، وكتاب رسالة الإسلام وسيرة ابن هشام، والكامل لابن الأثير، والمواهب اللدينا للزرقاني وتاريخ الطبري وغيرها من الكتب المعتبرة في الشرق والغرب.

الله ﷺ وجّه الكتب المشروحة آنفاً للملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية، يدعو فيها الملوك والأمراء في سورية ومصر والحبشة وفارس إلى الإسلام، وبعض هذه الكتب لا تزال محفوظة في الآستانة، يشهد على صحتها والرد على هؤلاء الخصوم المنكرين.

وهؤلاء المنكرون يحاولون في مزاعمهم[1] أن الشريعة الإسلامية محدودة في الجزيرة العربية، وليست بشريعة عامة. والله سبحانه يرد على هؤلاء حيث قال: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾[2]. من سورة ص. وقال في سورة الفرقان: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[3] وقال في سورة سبأ: ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً﴾[4] وقال في سورة الأعراف: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[5] فالرسول ﷺ أرسله الله رحمة للعالمين وجعل شريعته عامة خالدة، ويكفي فخراً الإسلام ورسوله، قولُ الفيلسوف، (جوته) حيث قال: ﴿وهكذا وجب أن يظهر الحقُّ ويعلو، كما نجح في هذا محمد ﷺ، الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد﴾[6] أي الإسلام. ونحن نعتمد أيضاً فوق ما قدمناه، قول حبيب الله ومصطفاه: «كان كل نبيّ في قومه خاصةً، وبعثتُ إلى كل أحمر وأسود» متفق عليه.

٣٠٦ ــ زواج النبي ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان

عن محمد بن عمر[7] رضي الله عنهما قال: أرسل رسول الله ﷺ إلى

---

(١) لو قال مثلا (يحاولون إثبات أن الشريعة الإسلامية .. الخ) لكان أوضح. المحقق.

(٢) الآية رقم (٨٧) آخر سورة «ص». المحقق.

(٣) الآية رقم (١) من سورة الفرقان. المحقق.

(٤) الآية رقم (٢٨) من سورة سبأ. المحقق.

(٥) الآية رقم (١٥٨) من سورة الأعراف. المحقق.

(٦) انظر كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) ص ٤٦٥.

(٧) هذه القصة رواها الطبري عن محمد بن عمر بلفظ (حدثت عن محمد بن عمر) ولعله (محمد بن عمر الواقدي). انظر ص ٨٩ جـ ٣ المطبعة الحسينية المصرية. ووردت هذه القصة أيضاً مع زيادات في طبقات ابن سعد مجلد ٨ ص ٩٧، ٩٨ طبع بيروت عن محمد بن عمر عن عبد الله بن عمرو بن زهير، عن اسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص. المحقق.

النجاشي، ليزوّجه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، وأمها صفية بنت أبي العاص عمة عثمان بن عفان ــ وقد ذكرت ذلك في رسالة النبي ﷺ إلى النجاشي سابقاً ــ ويبعثُ بها إليه مع من عنده من المسلمين؛ فأرسل النجاشي: جارية له يقال لها أبرهة إلى أم حبيبة يخبرها[1] بخطبة رسول الله ﷺ إياها، فأعطتها أوضاحاً لها وفتخاً، سروراً بذلك، وأمرها توكل من يزوجها؛ فوكّلت خالد بن سعيد بن العاص، فزوجها فخطب النجاشي على رسول الله ﷺ، وخطب خالد، فأنكح أم حبيبة، ثم دعا النجاشي بأربعمائة دينار صداقها فدفعها إلى خالد بن سعيد، فلما جاءت أم حبيبة تلك الدنانير، جاءت بها أبرهة فأعطتها خمسين مثقالاً، وقالت: كنا أعطيتكِ ذلك[2] وليس بيدي شيء، وقد جاء الله عز وجل بهذا، فقالت أبرهة: قد أمرني الملكُ أن لا آخذ منكِ شيئاً، وأن أردَّ إليكِ الذي أخذتُ منكِ، فردَّتهُ، وأنا صاحبة دهن الملك وثيابه، وقد صدّقتُ محمداً رسول الله، وآمنتُ به، وحاجتي إليكِ أن تقرئيه مني السلام؛ قالت: نعم؛ وقد أمر الملكُ نساءهُ أن يبعثن إليكِ بما عندهنَّ من عودٍ وعنبر، فكان رسولُ الله ﷺ يراهُ عليها وعندها فلا ينكره.

قالت أم حبيبة: فخرجنا في سفينتين وبعثَ معنا النواتي حتى قدمنا الجار ــ اسم مكان ــ ثم ركبنا الظهر إلى المدينة، فوجدنا رسول الله ﷺ بخيبر، فخرج من خرج إليه، وأقمتُ بالمدينة، حتى قدم رسول الله ﷺ، فدخلتُ إليه، فكانَ يسألني عن النجاشي، وقرأت عليه من أبرهة السلام، فردَّ رسولُ الله ﷺ عليها.

---

(١) في طبقات ابن سعد بالمصدر المذكور أنها أعطت أبرهة سوارين من فضة، وخدمتين كانتا في رجليها، وخواتيم فضة كانت في أصابع رجليها. المحقق.

(٢) بالمصدر المذكور (قالت أم حبيبة: فلما وصل إليّ المال أرسلت إلى أبرهة التي بشّرتني فقلت لها: إني كنتُ أعطيتك ما أعطيتُك يومئذ، ولا ما بيدي. فهذه خمسون مثقالا فخذيها فاستعيني بها. فأبتْ، فأخرجت حُقّا فيه كل ما كنتُ أعطيتُها، فردّتْه عليَّ وقالت: عزمَ عليَّ الملك أن لا أرْزَأكِ شيئاً وأنا التي أقوم على ثيابه ودهنه، وقد اتبعتُ دين محمد رسول الله ﷺ وأسلمتُ لله. المحقق.

ولما جاء أبا سفيان، تزويجُ النبي ﷺ أم حبيبة قال: (ذلك الفحلُ لا يقرع أنفهُ).

وقد أراد رسولُ الله ﷺ بزواج أم حبيبة بنت أبي سفيان، أن يستميل أباها إلى قضيته[1]؛ وقد كان وصول مهاجري الحبشة إلى المدينة في فصل الخريف في جمادي الأولى من[2] السنة السابعة من الهجرة، أغسطس سنة (٦٢٨)م. وفي سيرة ابن هشام أسماء من عادوا من الحبشة من أصحاب النبي ﷺ[3].

٣٠٧ ــ نتائج إرسال الكتب مع إرسال[4] رسل رسولِ الله ﷺ إلى الملوك والأمراء

ذكرت لإخواني القراء، الكتب الثمانية التي أرسلها النبيُّ ﷺ إلى الملوك والأمراء، يدعوهم فيها إلى دين الله الإسلام، بعد صلح الحديبية، وقبل فتح مكة؛ ولا شكَّ أن في ذلك قوة عجيبة وشجاعة عظيمة، وسياسة حكيمة، لأن رسول الله ﷺ، وإن كان قد عقد الصلح مع قريش أهل مكة؛ لكنه لم يكن قد تمَّ له فتحها، ولم يسلم أهلُها، وهذه الكتب ليس من السهل إرسالها إلى هؤلاء، ولا سيما إلى هرقل، وكسرى، والمقوقس، يدعوهم فيها إلى الإسلام؛ ولو كان غيرُ رسول الله ﷺ لخشي عاقبة ذلك، فإنَّ هؤلاء ملوكٌ أقوياء، على تخوم بلاده وخارج شبه الجزيرة العربية، ولكان إرساله سابقاً لأوانه، إلا أن رسول الله ﷺ لما كان واثقاً من قوَّةِ رسالتِه، ونصر الله سبحانه وتعالى أقدمَ على إرسالِ رسلِه، بقلبٍ ثابتٍ، وعزمٍ صادق، وجرأة منقطعة النظير، فكانت النتيجة حسنةً، كما يلي:

١ ــ أنه ﷺ تمكَّنَ من معرفة سياسة هؤلاء الملوك والأمراء نحوه، وميلهم إليه.

---

(١) لو قال (إلى الإسلام) لكان أوضح. المحقق.

(٢) لم يذكر المؤلف كلمة (من). المحقق.

(٣) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٣٧٧.

(٤) لو حذف كلمة (إرسال) من العبارة لكان أوجه وأوضح. المحقق.

فكانت هذه الكتب بمثابة جسّ نبضٍ، أو ما نسميها في العصر الحديث: حرب دعاية.

٢ ــ إسلام باذان أمير اليمن، ومَنْ معه.

٣ ــ ظهور الود ومنتهى الإخلاص بالحب ما[١] ظهر من المقوقس بهداياه، وميوله الأدبية والدينية.

٤ ــ إسلام النجاشي على ما هو مشهور في كتب التاريخ ــ وقدمر ــ وإن كان لم يستطع حَمْلَ شعبه على الإسلام، لكن ميوله كانت نحوه ﷺ.

٣٠٨ ــ غزوة خيبر[٢] وتطويق اليهود فيها

خيبر: واحةٌ كبيرة على ثمانية بردٍ من المدينة المنورة، إلى جهة الشام ــ والبريد اثنا عشر ميلاً عربياً، فتكون المسافة كلها (٩٦) ميلاً، وتكون خيبر بالكيلومتر[٣] إلى المدينة (١٧٣) كـ م ــ وسكان خيبر يهود، وهي ذات حصون ومزارع ونخل كثير، وكان سكانها غير مجتمعين في صعيدٍ واحدٍ، بل كانوا متفرقين، في الوديان المجاورة، و يقطنون بيوتاً حصينةً، وسط النخيل وحقول القمح؛ وكانت خيبر مركزاً لدسائس اليهود، الذين هاجروا إليها، وهي تشتمل على سبعة حصونٍ مبنيةٍ بالحجارة وهي:

١ ــ حصن ناعم.

٢ ــ حصن القموص وهو حصن أبي الحقيق.

٣ ــ حصن الشق.

٤ ــ حصن النطاة.

٥ ــ حصن السلالم.

٦ ــ حصن الوطيح.

٧ ــ حصن الكتيبة.

---

(١) لو قال (فيما) بدل (ما) لكان أوجه. المحقق.

(٢) خيبر: معناها باللغة العبرية: الحصن أو القلعة.

(٣) عن مقاييس كتابنا (زاد المحتاج فيما يلزم للحاج) للمؤلف.

قال القزويني: وخيبر موصوفة بكثرة الحمّى، لا تفارق الحمّى أهلها، وكان أهلها يهودَ موصوفين بالمكر والخبث، ومنها كان السموءل بن عادياء المشهور بالوفاء.

كانت غزوة خيبر سنة سبع من الهجرة عام (٦٢٨)م. وذلك أن رسول الله ﷺ لما عاد من الحديبية أقام بالمدينة، ذا الحجة وبعض شهر المحرم[١] من السنة السابعة، ووَلِيَ تلك الحجة المشركون، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر، لما بدر من اليهود، من تحريض القبائل، وجمع الأحلاف ضدَّ المسلمين، وقذف التهم للإسلام والمسلمين، وإيواء أعداء الإسلام والمسلمين، والغدر بالمؤمنين كلما رأوا إلى ذلك سبيلاً.

لقد كانوا موطن خطرٍ يهدد المسلمين في الشمال، والهدنة حرمتهم من معاونة قريش، فاستمالوا غطفان لمعاونتهم عندما يتهددهم الخطر. إنهم ينظرون إلى مصلحتهم الخاصة، ولا يبالون لكي يحصلوا عليها أن يستخدموا أي وسيلة لمنفعتهم.

لذا فكّر ﷺ أن يتخلص من اليهود نهائياً بالقضاء عليهم؛ فسار إليهم وكان معه (١٦٠٠) ألف وستمائة منهم (٢٠٠) مائتا فارسٍ، ويلاحظ أن عدد الفرسان في هذه الغزوة قد ازداد، لأنهم لم يكونوا في الغزوات السابقة يجاوزون الثلاثين؛ وذلك بفضل عناية رسول الله ﷺ بتربية الخيل.

وخرج ﷺ ومعه من نسائه أم سلمة رضي الله عنها وهي التي خرجت معه إلى الحديبية، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، واستنفر ﷺ مَنْ حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه؛ وجاء المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة، فقال: لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا، وكان الله قد وعد رسوله ﷺ عند انصرافه من الحديبية في سورة الفتح بمغانم كثيرة، بقوله تعالى: ﴿وَعَدَكم الله مغانمَ كثيرة تأخذونها﴾[٢].

---

(١) في الأصل (محرم) بدون (ال). المحقق.

(٢) جزء من الآية رقم (٢٠). المحقق.

جاء في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه: (أن النبيَّ ﷺ أتى خيبر ليلاً، فنام هو وأصحابه دونها، ثم ركبوا إليها بكرة فصبَّحوها بالقتال). وفي روايةٍ لابن إسحاق: أنه ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه: قِفوا ثم قال: «اللهمَّ! ربَّ السمواتِ وما أظللنَ، ورب الأرضين وما أقللنَ، ورب الشياطين وما أضللنَ، ورب الرياح وما ذَرَين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بكَ من شرها وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا بسم الله».

فلما أصبح خرجت اليهود إلى زروعهم بمساحيهم ومكاتلهم، وقد دفع ﷺ رايته العقاب إلى الحباب بن المنذر ودفع رايةً لسعد بن عبادة، ونزل بوادٍ يقال له الرجيع، بينهم وبين غطفان لئلا يمدوهم، وكانوا حلفاءهم ومظاهرين لهم على رسول الله ﷺ، وإن غطفان تجهزوا وقصدوا خيبر، فسمعوا حسّاً خلفهم، فظنوا أن المسلمين خلفوهم في ذراريهم، فرجعوا وأقاموا، وخذلوا أهل خيبر. وكان يهود خيبر أدخلوا أموالهم وعيالهم في حصن الكتيبة السابع وجمعوا المقاتلة في حصن النطاة الرابع من حصونهم السبع، وكان النبيُّ ﷺ نزل قريباً من حصن النطاة، فأشار عليه ﷺ الحبابُ بنُ المنذرِ بالتحوّل، قائلاً: إن أهل النطاة لي بهم معرفة، ليس قوم أبعد مدى منهم، ولا أعدل رميةً منهم، وهم مرتفعون علينا، وهو أسرع لانحطاطِ نبلهم، ولا نأمن من بياتهم، يدخلون في حر النخل[1]؛ فتحوَّلَ رسولُ الله ﷺ، وتحوَّل الناسُ إلى موضع حائلٍ بين أهل خيبر وغطفان، وابتنى هنالك مسجداً، صلَّى به طول مقامه بخيبر، وأمر بقطع نخيل أهل حصون النطاة، فوقع المسلمون في قطعها، حتى قطعوا (٤٠٠) أربعمائة نخلةٍ، ثم نهاهم عن القطع. وقاتل ﷺ يومه ذلك أشدَّ القتال، وعليه درعان وبيضة ومغفر، وهو على فرسٍ يقال له الظرب، في يده قناة وترسٌ، وفي ذلك اليوم قُتِلَ محمودُ بنُ مسلمة أخو محمد بن مسلمة رضي الله عنهما برحى

(١) أي النخل المجتمع بعضه على بعضٍ.

ألقيتْ عليه من حصن ناعم، وهو الحصن الأول، ألقاها عليه مرحب اليهودي، وكان الحرُّ في ذلك اليوم شديداً، ومكث ﷺ سبعة أيام يقاتل أهل حصن النطاة وهو الحصن الرابع، يذهب كل يوم بمحمد بن مسلمة للقتال، ويخلف على محل العسكر عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإذا أمسى رجع إلى ذلك المحل، ومن جرح من المسلمين يحمل إليه ليداوي جرحه، وكان اليهود كعادتهم يحاربون أمام الحصون، لأنهم يخشون الحرب في الميدان، فإذا انهزموا، عادوا إلى حصونهم، وأغلقوها دونهم، ولما كانت الليلة السادسة أتى رجلٌ من يهود خيبر في جوف الليل إلى النبي ﷺ وأخبره أنه خرج من حصن النطاة، من عند قومٍ يتسللون من الحصن في هذه الليلة ويذهبون إلى حصن الشق ــ الحصن الثالث لليهود ــ يحملون فيه ذراريهم، ويتهيأون للقتال، وأخبره أن في حصن الصعب من حصون النطاة في بيت فيه تحت الأرض منجنيقاً[1] ودبابات ودروعاً وسيوفاً، فإذا دخل فيه رسول الله ﷺ أوقفه على أسراره.

وكان رسولُ الله ﷺ تأخذه[2] الشقيقة ــ وجع يأخذ نصف الوجه والرأس ــ في بعض تلك الأيام، فيبعث أناساً من أصحابه فلم يكن فتح، ومنهم أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

ثم قال ﷺ لمحمد بن مسلمة لأعطينّ الرايةَ غداً لرجلٍ يحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، لا يولي الدبر، يفتح الله عز وجل على يديه، فيمكنه من قاتل أخيك محمود بن مسلمة.

وفي الغد بعث رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان أرمد شديد الرمد، فجيء به إلى رسول الله ﷺ وقد عصب عينيه، فعقد له لواءه الأبيض، وبصق في عينيه ودلكهما، فبرىء حتى كأن لم يكن بهما وجع بإذن الله تعالى، قال سيدنا عليٌّ كرم الله وجهه فما

---

(١) في الأصل (منجليقا) باللام بدل النون. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٢) في الأصل (تأخذ) بدون هاء. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

رمدت بعد يومئذٍ.

ثم دعا النبيُّ ﷺ لعليّ بقوله: «اللهمَّ! اكفِهِ الحر والبرد». قال سيدنا علي رضي الله عنه: فما وجدتُ بعد ذلك لا حراً ولا برداً. فكان يلبس في الحر الشديد القباء المحشو الثَّخين، ويلبس في البرد الشديد الثوب الخفيف، فلا يبالي بالبرد.

فلما أخذ عليٌّ الرايةَ قال: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال رسول الله ﷺ انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن لم يطيعوا لك بذلك، فقاتلهم، فوالله! لأن يهدي الله بكَ رجلاً واحداً، خير لكَ من حمر النَّعم.

فخرج سيدنا علي رضي الله عنه حتى ركز الراية تحت الحصن، فكان أول من خرج إليه من أهل الحصن الحارث أخو مرحب، وكان مشهوراً بالشجاعة، فقتله سيدنا علي رضي الله عنه، وانهزم اليهود إلى الحصن، ثم خرج إليه مرحب لابساً درعين، ومتقلداً سيفين، ومعتماً بعمامتين، ولبس فوقهما مغفراً وحجراً قد ثقبه قدر البيضة ومعه رمح، فبرز له سيدنا علي رضي الله عنه، ثم حمل مرحب على عليّ وضربه فطرح ترسه من يده، فتناول عليٌّ رضيَ الله عنه باباً كان عند الحصن، فتترَّس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه الحصن، ثم إن علياً ضرب مرحباً فتترس فوقع السيف على الترس فقدَّهُ وشقَّ المغفرَ والحجر الذي تحته والعمامتين وفلقَ هامتهُ، حتى أخذ السيفَ بالأضراس (١).

ثم خرج ياسرٌ أخو مرحب، فخرج إليه الزبير بن العوام رضي الله عنه وقتله، وعند ذلك قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: فداك عم وخال، لكل نبي حواري وحواريِّ (٢) الزبير(٣).

---

(١) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٣٨٣.

(٢) في الأصل (وحواريَّ) بفتح الياء المشددة. والصواب كسرها لأن كلمة (حواري) هنا مضافة إلى ياء المتكلم المحذوفة فيبقى كسر ما قبلها. المحقق.

(٣) الحواري: معناه الناصر.

وكان أول حصن فتحه المسلمون هو حصن الناعم من حصون النطاة على يد عليٍّ رضي الله عنه، ثم القموص، ولم يزل القتال ناشباً بين المسلمين واليهود، والمسلمون يفتحون حصونهم حصناً بعد حصنٍ حتى أتموها. بعد دفاعهم، لأنهم علموا أن اندحارهم معناه القضاء الأخير على بني إسرائيل اليهود في الجزيرة العربية.

وكانت النتائج في هذه الفتوحات للحصون اليهودية،من المسلمين تسعة عشر شهيداً مع كثير من الجرحى، ومن اليهود ثلاثة وتسعون قتيلاً والجرحى لا يعدون، وقد أخذ رسول الله ﷺ كنز آل أبي الحقيق وكان من بني النضير الذي حمله حيي بن أخطب لما أُجليَ عن المدينة، وأمر رسولُ الله ﷺ بقتل كنانة وأخيه الربيع لأنهما أخفيا مال حيي بن أخطب، وقد علم رسول الله ﷺ بمكان المال، وأتى إليه به أصحابهُ، وقوّم بعشرة الآف دينار، وأصاب المسلمين مجاعة قبل فتح الحصون، فلما فتح حصن الصعب وكان أكثر الحصون طعاماً، فيه شعير وتمر ــ أي سمن ــ وزيت وشحم ومتاع وماشية، وكان به (٥٠٠) خمسمائة مقاتل، أمر النبيُّ ﷺ المسلمين أن يأكلوا ويعلفوا، ولا يخرجوا به إلى بلادهم، وكان صاحب الغنائم أبا اليسر كعب بن زائد الأنصاري. فتحت الحصون كلها عنوةً إلا حصن الوطيح وحصن سلالم، فقد مكث المسلمون على حصارهما أربعة عشر يوماً، فلم يخرج أحدٌ منهم، فهمَّ رسولُ الله ﷺ أن يحمل عليهم، وأن ينصب عليهم المنجنيقَ، فلما أيقنوا بالهلكة، سألوا رسول الله ﷺ الصلحَ على حقن الدماء للمقاتلة، وترك الذرية والخروج من خيبر وأرضها بذراريهم، وألا يصحب أحداً منهم إلا ثوبٌ واحدٌ، فصالحهم على ذلك، وعلى أن ذمة الله تعالى ورسوله بريئة منهم إن كتموه شيئاً؛ فتركوا مالهم من أرضٍ ومالٍ وصفراء وبيضاء، والكراع والحلقة والبزّ، إلا ثوباً واحداً؛ ووجد المسلمون في الحصنين المذكورين (١٠٠) مائة درع و(٤٠٠) أربعمائة سيف و(١٠٠٠) ألف رمح و(٥٠٠) خمسمائة قوسٍ عربية بجعابها، ووجدوا في

أثناء الغنيمة صحائف متعددة من التوراة، فجاءت يهود تطلبها، فأمر رسولُ الله ﷺ بدفعها إليهم، وبهذه المناسبة ما كتبه ولغنسون في كتابة تاريخ اليهود ببلاد العرب ص ١٧٠.

(ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية، مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان، ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوءٍ لصحفهم المقدسة، ويذكرون بإزاء ذلك، ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم، وفتحوها سنة (٧٠)ب م إذ أحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة، هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام) اهـ. ونضيف إلى ذلك أن هذه ليست أول مرةٍ تسامح فيها رسول الله ﷺ وترك فيها صحائف اليهود المقدسة، ولم يتعرض لها بسوءٍ، ولم يحقرها، مع شدة عداوتهم له ﷺ، فقد سمح لهم قبل ذلك بأخذ صحفهم المقدسة، المشتملة على وصية موسى لبني إسرائيل، عند إجلائهم من المدينة في غزوة بني النضير كما تقدم سابقاً في نفس كتابنا هذا.

ثم جمع رسول الله ﷺ السبيَ، فكان من نصيب دحية بن خليفة الكلبي صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت امرأة عاقلة حسناء فتنافس الناسُ فيها؛ فجاء رجلٌ إلى النبي ﷺ وقال: يا نبي الله! أعطيتَ دحيةَ صفية سيدة بني قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك، فقال: ادعوهُ بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال لدحية: خذ جاريةً من السبي غيرها، فأخذ دحية أختَ كنانة بن الربيع ابن أبي الحقيق زوج صفية.

وكانت صفية بنت حيي من سبط هارون أخي موسى عليهما السلام فاصطفاها لنفسه، ثم أعتقها وتزوَّج بها.

وفي المواهب اللدنية: أنه ﷺ أخذ صفية لأنها بنت ملكٍ من ملوكهم.

وفي هذه الغزوة سمّت اليهودية الشاة للنبي ﷺ، وأهدتها إليه، واسمها

زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم وأخت مرحب انتقاماً لقتل أبيها وزوجها وأخيها.

روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتحتْ خيبر واطمأنَّ ﷺ بعد فتحها، أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سمٌّ، فلاكَ منها مضغة ثم لفظها حين أخبره العظم أنها مسمومة، وازدرد بشرُ بن البراء لقمةً، فقال ﷺ: ارفعوا أيديكم، وأرسل إلى اليهودية ــ زينب بنت الحارث ــ فقال: هل سممتِ هذه الشاة؟ فقالت: من أخبركَ؟ قال: أخبرتني هذه التي في يدي مشيراً للذراع، قالت: نعم، قال لها: ما حملك على ذلك؟ قالتْ: إن كنت نبيّاً، يطلعكَ اللهُ، وإن كنتَ كاذباً، فأريحُ الناسَ منكَ، وقد استبانَ لي أنكَ صادق، وأنا أشهدكَ ومن حضركَ أني على دينكَ، وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدهُ ورسولهُ، فعفا عنها، ﷺ ولم يعاقبها.

قال القاضي عياض في كتابه الشفا: إنه ﷺ لم يقتلها أولاً، حين اطلع على فعلها، وقيل له: اقتلها، فقال: لا، فلما مات بشر بن البراء من أكل شاتها المسمومة، سلمها لأولياته فقتلوها قصاصاً. وقد احتجم رسول الله ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة. وبعد فتح خيبر، قدم من الحبشة جعفرُ بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن معه من المسلمين وهم ستة عشر رجلاً؛ فتلَقى النبي ﷺ جعفراً، وقَبَّلَ جبهتَهُ وعانقه، وقام له ثم قال ﷺ: «ما أدري بأيهما أفرحُ، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟» وقال ﷺ لجعفر: «أشبهتَ خَلقي وخُلقي» فرقص جعفر رضي الله عنه لسروره بهذا الخطاب، ولفرط ما أصابه من الفرح، ولم ينكر عليه ﷺ رقْصَهُ[1] وجعل ذلك أصلاً[2] لرقص الصوفية، عندما يجدون من لذة التوحيد والذكر؛ وقد قدم من الحبشة أبو موسى الأشعري وجماعة من قومه فأسهم لهم، ولم يسهم لأحدٍ غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا

---

(١) في صحة هذا الكلام نظر. المحقق.

(٢) من الذي جعل ذلك أصلاً؟ إلا إذا كان المؤلف يقصد (وجُعل ذلك أصلٌ بالبناء للمجهول. وهذا الجعل متوقف على ثبوت ما ذكر، ولا دليل على ثبوته. المحقق.

لمن شهدها معه. وقد قسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر، فأعطى الراجلَ سهماً، والفارس ثلاثة أسهم، بعد أن خمَّسها خمسة أجزاء، ثم دفع ﷺ لأهل خيبر الأرض ليعملوا فيها بشرط ما يخرج منها، من ثمرٍ أو زرعٍ، وقال لهم: إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، ثم استمروا على ذلك، إلى خلافة عمر رضي الله عنه إلى أن وقعت منهم خيانة وغدر لبعض المسلمين، فأجلاهم إلى الشام، بعد أن استشار في ذلك الصحابة رضي الله عنهم.

ولما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر، فكان ببعض الطريق، فلما كان آخر الليل، قال ﷺ: مَنْ رجلٌ يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام؟ قال بلال: أنا يا رسول الله! أحفظه عليكَ، فنزل رسول الله ﷺ ونزل الناسُ فناموا، وقام بلالٌ يصلي، فصلَّى ما شآء الله أن يصليَ، ثم استند إلى بعيره، واستقبل الفجرَ يرمقهُ، فغلبته عيناهُ فنام، فلم يوقظهم إلا مسُّ الشمسِ؛ وكان رسولُ الله ﷺ أوَّلَ أصحابه هبّاً، فقال: ماذا صنعت بنا يا بلال؟ قال: يا رسول الله! أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسكَ، قال: صدقتَ، ثم اقتاد رسولُ الله ﷺ بعيره غير كثير، ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس، ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلَّى رسول الله ﷺ بالناس، فلما سلَّم أقبل على الناس فقال: «إذا نسيتم الصلاة فصلُّوها إذا ذكرتموها، فإن الله تبارك وتعالى يقول: أقم الصلاة لذكري». وكان فتح خيبر في شهر صفر من[1] السنة السابعة من الهجرة عام (٦٢٨)م.

٣٠٩ ــ صلح أهل فدك تلبية لطلبهم

فدك: بلدة يهودية بالقرب من خيبر.

لما علم أهلها اليهودُ بانهزام خيبر، خافوا فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، فقدمتْ عليه ﷺ رسلهم، فقبل ذلك منهم، فكانت فدكُ لرسول الله ﷺ خالصة، لأنه لم يوجف عليها بخيلٍ، ولا ركابٍ، يصرف ما يأتيه منها على أبناء السبيل.

---

(١) لم يذكر المؤلف كلمة (من). المحقق.

وتم هذا الصلح بعد خيبر، وبنفس شروط خيبر دون قتال.

٣١٠ ــ غزوة وادي القرى لجماعة من اليهود فيه

لما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر، نزل وادي القرى أصيلاً مع الغروب ــ وهو موضع قرب المدينة كان به جماعة من اليهود ــ فحاصرهم ﷺ أربعة أيام، وهيَّأ أصحابه للقتال؛ فقتل منهم أحد عشر رجلاً، وفتحها رسولُ الله ﷺ عنوة؛ وغنَّمه الله أموالهم، وأصاب المسلمون أثاثاً ومتاعاً كثيراً، وقسّم رسول الله ﷺ ما أصابه على أصحابه، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود، وعاملهم عليها، وولاَّها عمرو بن سعيد بن العاص، وصالح أهل تيماء على الجزية؛ لما بلغهم فتح وادي القرى، وولاها ﷺ يزيد بن أبي سفيانَ؛ وكان إسلام يزيد يوم فتحها، وتيماء: بلدة معروفة بين المدينة والشام على سبع مراحل من المدينة، ثم رجع إلى المدينة، بعد أن بسط نفوذه على القبائل اليهودية شمالي المدينة.

٣١١ ــ خمس سرايا في خريف وشتاء السنة السابعة سنة (٦٢٨)م

بعد عودة رسول الله ﷺ من خيبر قضى بقية فصل الخريف والشتاء في المدينة المنورة مشرق النور والهدى وقاعدة الإسلام، وفي هذه الأثناء بعث عليه الصلاة والسلام خمس سرايا منها ثلاث في شهر شعبان في السنة السابعة عام (٦٢٨)م.

١ ــ **(الأولى)**: سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعه ثلاثون رجلاً إلى قبيلة بني هوزان بجهة تربة دارٍ بقرب مكة؛ فلما علموا بمجيئه هربوا، فانصرف راجعاً إلى المدينة.

٢ ــ **(الثانية)**: سرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى بني كلاب، قبيلة بنجدٍ، فسبى منهم جماعة، وقتل آخرين.

٣ ــ **(الثالثة)**: سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بفدك ومعه ثلاثون رجلاً، فلما وصلو إلى محلّ القوم، لقوا رعاء الشاء، فاستاق بشير النعَم والشاء(١)، وانحدر إلى المدينة ثم أدركه العدو الكثير من بني مرة عند الليل، فباتوا يرمونه بالنبل، حتى فنيتْ نبلُ أصحابه، فأصيبوا، وولىَّ منهم من ولىَّ، وخرج بشير وعاد إلى المدينة بصعوبة.

٤ ــ **(الرابعة)**: وفي رمضان كانت سرية غالب بن عبد الله الليثي، إلى أهل المنيعة، بناحية نجد على ثمانية بُرد من المدينة، في مائة وثلاثين راجلاً، فهجموا عليهم في وسط محالّهم، وقتلوا كثيراً منهم، واستاقوا نعماً وشاءً إلى المدينة؛ وفي هذه السرية قتل أسامةُ بن زيدٍ رجلاً يقال له: نهيك بن مرداس الأسلمي، وفي روايةٍ: أن اسمه مرداس بن نهيك، بعد أن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: يا أسامة! من لك بلا إله إلا الله؟ فقال: يا رسول الله! إنما قالها تعوذاً من القتل، قال: «هل شققتَ عن قلبه، فتعلم أصادقٌ هو أم كاذب؟» فقال أسامة: لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إلّه إلا الله.

٥ ــ **(الخامسة)**: وفي شهر شوال أرسل رسول الله ﷺ بشير بن سعدٍ إلى يُمْنٍ وجناب، وهي أرض لغطفان، ومعه ثلاثمائة رجلٍ لجمعٍ تجمعوا بأرض غطفان؛ وأعدَّهم عيينةُ بنُ حصنٍ للإغارة على المدينة؛ فلما بلغهم سير بشير هربوا، وأصاب لهم نعماً كثيرةً فغنمها؛ قال الواقدي: وفي هذه السنة السابعة، ردَّ رسولُ الله ﷺ زينب ابنتهُ على أبي العاص بن الربيع، وذلك في المحرم ــ أسر أبو العاص يوم بدرٍ، فمنَّ عليه ﷺ بلا فداء بسبب زوجته(٢) زينب بنت رسول الله ﷺ ــ ردَّها بنكاح جديد(٣) لإسلامه، وقد أسلم قبيل فتح مكة.

---

(١) في الأصل (والشاة). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٢) الأفضل (زوجه) بدون تاء. المحقق.

(٣) الأصح أنه ﷺ ردّها إليه بنكاحها الأول. المحقق.

وفي هذه السنة قدم حاطب بن أبي بلتعة من عند المقوقس ومعه الهدايا، وقد ذكرتها في حينها سابقاً.

وفي هذه السنة، اتَّخذَ النبي ﷺ منبره الذي كان يخطب الناسَ عليه، واتخذ له درجتين ومقعداً، وفي رواية تاريخ الطبري: أنه عمل سنة ثمانٍ.

٣١٢ ــ عمرة القضاء أو عمرة القصاص وحديث قريش

قد اختلف الأئمة في[١] تسمية هذه العمرة «عمرة القضاء»، فقال مالكٌ والشافعي والجمهور: لأنه قاضى قريشاً سنة الحديبية، فالمراد بالقضاء الفصلُ الذي وقع عليه الحكمُ لا لأنها قضاء عن العمرة التي صُدَّ عنها، لأنها لم تكن فسدتْ حتى يجب قضاؤها، بل كانت عمرةً تامةً.

وقال أبو حنيفة وأحمد: إن مَنْ صُدَّ عن البيت فعليه القضاء فتسميتها قضاء على هذا ظاهرة.

لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خيبر، أقام بها شهري ربيع وشهري جمادى، ورجب وشعبان ورمضان وشوالاً، ثم خرج في شهر ذي القعدة في السنة السابعة في فبراير سنة (٦٢٩)م في الشهر الذي صدَّه فيه المشركون بالحديبية معتمراً، عمرة القضاء مكان عمرته التي صَدوهُ عنها؛ واستعمل على المدينة عويف بن الأضبط الدِّيلي[٢]؛ ويقال لها: عمرة القصاص: لأنهم صدوا رسولَ الله ﷺ في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ستٍّ من الهجرة، فاقتصَّ رسولُ الله ﷺ منهم، وأمر أن لا يتخلّف أحدٌ ممن شهد الحديبية، وخرج معهم غيرُهم أيضاً، فكانوا ألفين سوى النساء والصبيان، وساق معه صلى الله عليه وسلم ستينَ بدنة، وحمل السلاح والدروع والرماح، وقاد مائة فارس، خوفاً من غدر أهل مكة.

---

(١) الصواب في (سبب تسمية.. الخ) بزيادة كلمة (سبب). المحقق.

(٢) في الأصل (الدِّيلي) بفتح الدال المشددة، والصواب كسرها كما أثبتنا. المحقق.

فلما سمع به أهلُ مكة، خرجوا عنه، وتحدثتْ قريشٌ بينها: أن محمداً وأصحابه في عسرٍ وجهدٍ وشدة، فصفُّوا له عند دار الندوة لينظروا إليه، وإلى أصحابه؛ فلما دخل رسولُ الله ﷺ اضطبع بردائه، وأخرج عضده اليمنى[1]، ثم قال: رحم الله امرأ أراهم اليومَ من نفسه قوة، ثم استلم الركنَ، وخرج يهرول، ويهرول أصحابه معه، حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركنَ الأسودَ، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف، والمسلمون يطوفون معه؛ وكان بين يديه لما دخل مكة عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقته، وهو يقول[2]:

خَلُّوا بَني الكفارِ عن سبيلِهِ ... خَلُّوا فكلُّ الخيرِ في رسولِهِ[3]
يا ربِّ إني مؤمنٌ بقيلِهِ ... أعرفُ حقَّ اللهِ في قبولِهِ[4]
نحنُ قتلناكم على تأويلِهِ ... كما قتلناكم على تنزيلِهِ
ضرباً يُزيلُ الهامَ عن مقيلِهِ ... ويُذهلُ الخليلَ عن خليلِهِ[5]

وكان المشركون على جبل قعيقعان، ثم سعى ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته، وبعد فراغه نحر هديه عند المروة وحلق هناك، ثم أمر مائتين من أصحابه أن يذهبوا إلى أصحابه ببطن يأجج ــ موضع على ثمانية أميال من مكة ــ يقيمون على السلاح، ويأتي الآخرون ليقضوا نسكهم، ففعلوا، وأقام ﷺ بمكة ثلاثاً، كما شرطه قريش في الهدنة، فلما كان الظهر من اليوم الرابع جاءه سهلُ بنُ عمرٍو، وحويطبِ بن عبد العزَّى فقالا: ننشدكَ العهدَ إلاّ ما خرجتَ ن أرضنا، فردَّ عليهما سعد بن عبادة رضي الله عنه، فأسكتهُ ﷺ وأذن بالرحيل.

---

(١) الاضطباع الذي يؤمر به طائف البيت: أن يدخل الرداء تحت إبطه الأيمن، و يرد طرفه على يساره، و يبدي منكبه الأيمن و يغطي الأيسر، سمي بذلك لإبداء أحد الضبعين.

(٢) انظر كتاب (سيرة ابن هشام) ج ٣ ص ٤٢٥.

(٣) سبيله: طريقه التي اتجها له الله تعالى.

(٤) قيله: بقوله.

(٥) الهام: جمع «هامة» والمراد هنا: الرأس، ويذهل: يشغل.

جاء في صحيح البخاري من حديث البراء: فلما دخلها ــ أي مكة ــ ومضى الأجل، أتوا علياً رضي الله عنه، فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج رسول الله ﷺ.

٣١٣ ــ زواج رسول الله ﷺ بميمونة بنت الحارث الهلالية

في هذه السنة، سنة سبع وفي عمرة القضاء تزوَّج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية، وكان اسمها بَرَّة، فسماها رسولُ الله ﷺ ميمونة، وهي أخت أم الفضل زوجة العباس رضي الله عنه، وأخت أسماء بنت عُميس، زوجة[1] حمزة رضي الله عنه؛ وكان الذي زوجه إياها العباس بن عبد المطلب، وأصدقها عنه ﷺ أربعمائة دينار وأراد ﷺ أن يبنيَ بها في مكة، فلم يمهلوه يبني بها، وقال لهم: ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، فصنعتُ لكم طعاماً؟ فقالوا: لا حاجة لنا في طعامك اخرجْ عنا من أرضنا، هذه الثلاثة أيام[2] قد مضت؛ فخرج ﷺ فبنَى بها بسرف ــ اسم محل قريب من مكة ــ.

قال الكاتب إيرفنج في كتابه حياة محمد: (إن النبي لم يتزوج بميمونة بنت الحارث، إلا سياسة يريد بها استمالة رجلين قويين، لأن ميمونة كانت أرملة مسنة، تبلغ من العمر إحدى وخمسين سنة، وهذان الرجلان هما خالد بن الوليد ابن أخت ميمونة وهو البطل المشهور الذي حارب محمداً في غزوة أحدٍ؛ ولما أسلم سمّي سيف الله، وصديقه عمرو بن العاص).

وكانت ميمونة آخر زوجاته ﷺ.

ولا بدَّ لي عند هذه المناسبة أن أذكر كلمة عن سر تعدد زواج[3] الرسول ﷺ بنسائه رداً على بعض المغرضين أعداء رسول الله والإسلام.

---

(١) في الأصل (لأنها زوجة حمزة) وقد حذفنا كلمة (لأنها) ليستقيم المعنى. المحقق.

(٢) الصواب (الثلاثة الأيام) لأنه يمتنع إضافة المعرف بأل إلى النكرة. المحقق.

(٣) لعل الأوجه (أزواج) بدل (زواج). المحقق.

٣١٤ ــ رد افتراء خصوم محمدٍ ﷺ والكشف عن سر تعدد الزوجات

إن المستشرقين خصوم محمد ﷺ لم يتركوا ميداناً إلا اقتحموه ولا باباً إلا ولجوه، لبثّ سمومهم وافتراءاتهم ومطاعنهم على الإسلام ونبيّ الإسلام، وتذرعوا باسم الزواج للنيل من شخصه ﷺ واتهامه بالشهوانية، للتشكيك في دعوته ودينه القويم.

هم يقولون: لماذا تزوج النبي بهؤلاء النساء كلهنَّ؟ إنها الشهوة الجنسية، لقد كانت هذه الشهوة دافعاً لتعدد زوجاته، وعلى رأي هؤلاء المتشرقين (موير، ودرمنجهم، وواشنطن، وإرفنج، ولامانس) وغيرهم، لقد بالغوا بالقول وقالوا: إن النبي بعد وفاة خديجة كان قد بلغ الخمسين، وكانت أكبر منه سناً، فما كاد أن يفرق الموت بينها وبينه، حتى رجع إلى صباه، يطلق له العنان بمن يشاء من الزوجات (١).

والواقع: أن الرسول ﷺ كان مصيباً في زواجه كله، وما قام به من تأليف القلوب، وجمع أواصر القبائل المتنازعة بما قام به، من التقارب والتفاهم، والتلاحم والتراحم فيما بينها بسبب زوجاته، وحاشاه من أن تسيطر الشهوة الجنسية عليه أبداً.

١ ــ إنما تزوج قبل بعثته بالسيدة خديجة وهي في سن الأربعين وقد قضى سِني شبابه معها، في وقت كان تعدد الزوجات سارياً، ولم يتزوج بغيرها مدة حياتها، ولما توفاها الله تعالى، كان لزاماً عليه أن يتزوج بغيرها لخدمة أولاده وحاجة البيت للزوجة، فتزوج بعد بضعة أشهر بسودة بنت زمعة القائلة: والله! ما بي على الأزواج من حرص، ولكني أحب أن يبعثني الله تعالى يوم القيامة، زوجاً لرسول الله ﷺ (٢)، وقد تزوجها النبي ﷺ بعد إسلامها وهجرتها للحبشة

---

(١) انظر كتاب الإسلام بين الإنصاف والجمود.

(٢) انظر كتاب نساء النبي (ص) للدكتورة بنت الشاطىء ص ٤٩.

وقد خالفت بني عمها وأقاربها، ولا حامي لها دون أقاربها الذين أسلمت رغم أنوفهم، وهاجرت مخالفة لرأيهم، فكان زواج الرسول ﷺ لها، حماية لها أن تصل إليها أيدي أعدائها في الدين. وكان هذا الزواج أكبر سلوان لها على فقد زوجها؛ وقد كذب هؤلاء المفترون الحاقدون.

٢ ــ ثم عقد عليه الصلاة والسلام على السيدة عائشة بعد وفاة أبي طالب وخديجة وهي بنت سبع سنوات، واكتفى بالعقد عليها مع أنها قاصرة، ولم يبن بها إلا بعد ذلك بنحو ثلاث سنين، ولهذا الزواج حكمة باهرة وسر عظيم هو إحكام الروابط بين رسول الله ﷺ وبين[١] صدّيقه الأكبر رضي الله عنه. وهذا لا يخفى على البصير، والحكمة من ذلك.

٣ ــ أما زواجه بأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان التي فارقت زوجها لردته عن الإسلام[٢] في الحبشة وقد حاول أن يردها للكفر فأبت عليه إلا الإسلام، وكادت أن تهلك هماً وأسىً وخسرة، فماذا تعمل هذه؟ فخطبها النبي ﷺ ودفع النجاشي صداقاً لها أربعمائة دينار، وازداد فرحها وعادت لوطنها[٣]، مجبورة الخاطر لخير زوج، ولما سمع أبو سفيان والدها بهذا الزواج قال: إن هذا الفحل لا يجدع أنفُهُ[٤].

والحكمة ظاهرة للعيان من هذا الزواج: فقد أراد ﷺ أن يطفىء نار العداوة بينه وبين قريش وأبي سفيان بهذه المصاهرة، ولحمة النسب، والدعوة للإسلام، ثم لحمايتها وعدم ضياعها، فكان هذا الزواج لسر كبير لا يخفى على كل منصف.

٤ ــ وأما زواجه ﷺ بجويرية بنت الحارث، فقد كان[٥] لأغراض

---

(١) كان الأولى ألا يكرر المؤلف كلمة (بين) حيث لا موجب لتكريرها. المحقق.

(٢) (لردته عن الإسلام في الحبشة) في الأصل بدل العبارة المذكورة (لعدم إيمانها وإسلامها). المحقق.

(٣) وطنها (مكة) وهي تعد إلى (مكة) بل ذهبت إلى رسول الله ﷺ في المدينة (دار الهجرة). المحقق.

(٤) انظر كتاب (الاستيعاب ج ٤ ص ١٨٤٥).

(٥) لم يذكر المؤلف عبارة (فقد كان). وقد أثبتناها ليرتبط الكلام اللاحق بالسابق. المحقق.

سياسية يعلمها الخبير الدارس للتاريخ وسياسة الأمم، فقد تم الزواج لارتباط المصاهرة وإسلام قومها من بني المصطلق، وقد كان ذلك وأسلم من أجل هذه المصاهرة أكثر من مائة بيت وكانوا مع صهرهم الرسول ﷺ على أعدائه، وكانت جويرية بركة على قومها والمسلمين، وقد ظهرت لنا الحكمة الكبيرة من هذا الزواج. فقد تم:

١ً ــ أن أقبل الناس بأسراهم، واعتقوهم لله أحراراً.
٢ً ــ لقد منحها الله الحرية بعد وقوعها بالأسر رقيقة.
٣ً ــ أسلمت وحسن إسلامها وأنقذت من الكفر إلى الإسلام.
٤ً ــ إسلام والدها وقومها.

٥ ــ أما زواجه ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب، فإن رسول الله ﷺ قال لها: «لم يزل أبوكِ من أشد اليهود لي عداوة، حتى قتله الله» فقالت: يا رسول الله! إن الله يقول: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ فقال لها رسول الله ﷺ: «اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتُكِ لنفسي، وإن اخترتِ اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومِك» فقالت: يا رسول الله! لقد هويت الإسلام، وصدقتُ بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك، ومالي في اليهودية أرب، ومالي فيها ولد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام، فالله ورسوله أحبُّ إليَّ من العتق، وأن أرجع إلى قومي. فأمسكها[1] رسول الله ﷺ لنفسه وقد رضيتهُ فكانت أم المؤمنين، فانظر يا أخي! إلى حكمة رسول الله لإنقاذ الناس من الكفرِ إلى الإسلام فقد اختار صفية[2] لحبها لله ورسوله فأكرم بهذا الزواج.

٦ ــ أما زواجه ﷺ بحفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد كان بعد وفاة زوجها خُنيس بن خذافة[3] بن قيس بن عدي القرشي، أراد

---

(١) في الأصل (قال فأمسكها). وقد حذفنا كلمة (قال) حيث لم يذكر المؤلف اسم القائل في سياق هذا الكلام. المحقق.

(٢) في الأصل (فقد اختار هذه صفية) وقد حذفنا كلمة (هذه). المحقق.

(٣) (حذافة) في الأصل (حذامة) بالميم. والصواب ما أثبتنا. المحقق.

عمر أن يزوجها من الصديق أو من عثمان فلم يقبلا، فدخل عمر بيت رسول الله غَضِباً وأخبر النبي ﷺ بما لقي من رفض الصديق وعثمان؛ فابتسم ﷺ وقال: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة». وقد طيَّبَ النبي ﷺ خاطر عمر ولبى دعوته، وكان زواجه ﷺ بحفصة لغاية سامية، ومصلحة سياسية يعلمها المطلع الخبير، وإنها لم تكن لغاية نفسية أو شهوة جسدية كما يقول هؤلاء المفترون خصوم الإسلام وأعداء محمد عليه الصلاة والسلام.

٧ ــ أما زواجه ﷺ بزينب بنت خزيمة، فقد كان لغاية عالية هي أن زوجها عبد الله بن جحش لما استشهد في وقعة أُحدٍ فقد[١] تم الزواج بدافع الشفقة، وتكريماً لزوجها الشهيد، وكانت كريمة خيّرة، وقد أطلقوا عليها لقب (أم المساكين).

٨ ــ وأما زواجه بهند بنت أبي أمية بن المغيرة وتسمى (أم سلمة) فقد تزوجها بعد هجرتها للحبشة وعودتها لمكة، وهمت بالهجرة للمدينة ولكن المشركين من بني المغيرة منعوها من الهجرة، فمكثت سنة تبكي، فرقُّوا لحالها، وسمحوا لها بالهجرة، فهاجرت للمدينة ولحقت بزوجها، وقد مات زوجها وعاشت أيماً، فخطبها الصديق فرفضت، وتلاه عمر فلم يكن حظه منها غير حظِّ أبي بكر، ثم خطبها النبي ﷺ فقالت له: إنها مسنَّة، غيرَى، ذات عيال ــ أولاد ــ فأجاب النبيُّ ﷺ: «أما أنكِ مسنة، فأنا أكبر منكِ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنكِ، وأما لعيال فإلى الله ورسوله»[٢]. فتزوجها، وقد ظهرت الحكمة من هذا الزواج لكل عاقل مطلع.

٩ ــ وأما زواجه بزينب بنت جحش فقد كان لأغراض تشريعية بحتة؛ فقد كان العرب يحرمون في جاهليتهم الزواج بزوجة المتبنَّى، لاعتقادهم أن زوجة المتبنَّى كزوجة الابن من الصلب، فتزوجها الرسول ﷺ إبطالاً لهذا الزعم. وقد نزل القرآن بها، قال الله تعالى: ﴿فلما قَضَى زيدٌ منها وطراً

(١) كان ينبغي حذف كلمة (فقد). المحقق.

(٢) انظر نساء النبي للدكتورة بنت الشاطىء ص ١٢٥.

زَوَّجْنَاكَهَا لكي لا يكونَ على المؤمنينَ حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قَضَوْا منهنَّ وطَراً، وكان أمرُ الله مفعولاً﴾[1].

فتم زواجُه بها للتشريع الإلهي، ثم جبراً لخاطر مكسور لزينب فقد صارت أماً للمؤمنين، وزوجةً لسيد المرسلين، تنفيذاً لأمر الله، ولتعطيل حكمٍ جاهلي، واستبداله بأمرٍ رباني، وتشريع إلهي أحبه الله تعالى لرسوله وللمؤمنين.

١٠ ــ وأما زواجه[2] ﷺ بمارية القبطية، فقد كان لصلة رحمٍ مع مصر، قال ﷺ: «استوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً».

وروي أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه لما جاء إلى مصر بعد أن تمَّ فتحها، بحث عن قرية (حَفن) وسأل عن موضع بيت مارية فبنى به مسجداً.

وقد ظهر للسادة القراء الحكمة بزواج[3] رسول الله ﷺ بمارية وهو التفاؤل بفتح هذا القطر وإسلام أهله، وإقامة الصلة بينه ﷺ والمصريين، وقد تم تفاؤل الرسول ﷺ.

١١ ــ وأما زواجه ﷺ بميمونة بنت الحارث وهي آخر من تزوج بها ﷺ، فقد كان هذا الزواج عندما دخل المسلمون مكة عام الفتح[4] بظفر عظيم، ونصر مبين هاتفين: لبيكَ اللهمَّ لبيك لا شريك لك لبيك... فتأثرت مكة بهذا الحشد العظيم الذي كان يهتف هتاف رجلٍ واحدٍ، ومادتِ الأرضُ تحت أقدام المشركين، وتتابع النداء، وعلا الدعاء: (لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده) سمع هذا النداء، سيدة من أكرم سيدات مكة يهفو قلبها إلى قائد جيش

---

(١) جزء من الآية رقم (٣٧) من سورة الأحزاب. المحقق.

(٢) الثابت أنه ﷺ تسرّى بمارية فلم تكن زوجاً، وإنما كانت سرية. المحقق.

(٣) انظر الهامش السابق.

(٤) لم يكن زواجه ﷺ بميمونة عام الفتح بل كان زواجه بها في عمرة القضاء في العام السابع الهجري وقد ذكر المؤلف نفسه هذا قبل ذلك عند حديثه عن (زواج رسول الله ﷺ بميمونة بنت الحارث الهلالية. المحقق.

الرحمن، محمد رسول الله... تلك هي: بَرَّة بنت الحارث الهلالية، كانت في السادسة والعشرين من عمرها، مات زوجها أبو رهم بن عبد العزّى القرشي العامري فترمَّلَتْ، فأفضَتْ إلى شقيقتها أم الفضل زوجة العباس بالأمر؛ فحمل العباس الخبر لرسول الله ﷺ قائلاً: إنها وهبَتْ نفسها للنبي؛ فأنزل الله تعالى فيها قوله تعالى: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبَتْ نفسها للنبي﴾[1].

فتزوَّجها رسولُ الله ﷺ، وأسماها (ميمونة) إذ ان زواجها في المناسبة الميمونة الغراء، والتي دخل رسول الله ﷺ أم القرى مكة لأول مرة بعد هجرته بسبع سنين مع جنوده المؤمنين آمنين.

وخلاصة القول: فقد تزوَّج ﷺ بإحدى عشرة سيدة بعد خديجة، ست من قريش، وخمس من سائر العرب، وواحدة قبطية[2]، فكان ﷺ يرى أن يجمع نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهنَّ، لقد صاهر النبيُّ ﷺ أكبر القبائل من قريش، وأقوى البطون من سائر العرب، ثم كانت هنالك ظروف معينة أوضحتها للسادة القراء نظراً لأهمية القصد والمرمى؛ والرسول ﷺ لم يتزوَّجْ لجمالٍ أو لشباب، أو لطلب رفاهية، إنما لمصلحة عالية، وتشريع إلهي. قال الفيلسوف الكبير المنصف (توماس كارليل): (ما كان محمدٌ أخا شهواتٍ، بالرغم ما اتُّهِمَ به ظلماً وعدواناً، وشدَّ ما نجورُ ونخطىء إذا حسبناه رجلاً شهوانياً، لا همَّ له إلا قضاء مآربه من الملاذّ، كلا فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذِّ أيَّةً كانت، لقد كان زاهداً متقشِّفاً في مسكنه ومأكلهِ ومشربهِ وسائر أموره وأحواله... قائم النّهار[3] ساهر الليل، دائباً في نشر دين الله، غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغرُ الرجالِ، من رتبةٍ أو دولةٍ أو سلطان، غير متطلع إلى ذِكْرٍ أو شهوةٍ، كيفما كانت، فهو رجلٌ عظيمٌ)[4].

---

(١) من سورة الأحزاب آية (٥٠).

(٢) لم يتزوج بمارية القبطية بل تسرّى بها. المحقق.

(٣) لعل صواب العبارة (صائم النهار، قائم الليل). المحقق.

(٤) انظر كتاب الأبطال لتوماس كارليل ص ٨٩ و٩٠ الذي عربه الكاتب الأديب محمد السباعي ــ المطبعة المصرية.

وتكفي هذه العبارة في الردّ على هؤلاء المستشرقين أصحاب الغايات، المفترين على سيد السادات

وأقول: هذا هو رسول الله ومصطفاه وحبيبه ومجتباه، الكامل في أخلاقه، الكامل في آدابه، الكامل في تشريعاته الكامل في معاملاته، الكامل في كل أعمال وأقوال حياته فهو السوبر الأول في العالم الإنساني[1].

صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وصحابته أجمعين رغم أنف المستشرقين الحاقدين والحمد لله رب العالمين على هدايته وتوفيقه اللهم آمين.

٣١٥ ــ أعدَّ الرسولُ ﷺ خمس سريات قبل غزوة مؤتة

١ ــ (سرية الأخرم إلى بني سليم)

في خلال الصيف أعدَّ رسول الله ﷺ عدة سرايا قبل غزوة مؤتة وهي:

١ ــ سرية الأخرم إلى بني سليم، وكانت في ذي الحجة سنة سبع عام (٦٢٩)م في خمسين رجلاً إلى بني سليم؛ خرج الأخرم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، فأمطرهم المسلمون رداً على رميهم لهم، وأحاط الأخرم وجماعته المسلمون بهم من كان ناحية حتى قُتل عامتُهم[2] وجُرِحَ أميرُهم بعد معركة شديدة، وتحامل الأخرم حتى بلغ رسول الله ﷺ بالمدينة في أول شهر صفر.

---

(١) (فهو السوبر الأول في العالم الإنساني) هذا التعبير في النفس منه شيء. المحقق.

(٢) صنيع المؤلف يوهم أن الذين قُتِل عامتهم وحوصروا هم بنو سليم الكفار. والنص من السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٦٢ وطبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١٢٣ طبع بيروت: هو كما يلي: (بعث رسول الله ﷺ ابن أبي العوجاء السلميّ في خمسين رجلاً إلى بني سليم في ذي الحجة سنة سبع من مهاجر رسول الله ﷺ، فكان لهم جاسوس مع القوم فخرج إليهم وسبق القوم وحذّرهم فجمعوا لهم جمعاً كبيراً فأتاهم ابن أبي العوجاء وهم مُعِدّون له، فدعاهم إلى الإسلام، فقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا فتراموا بالنبل ساعة وجعلت الأمداد تأتيهم حتى أحدقوا بالمسلمين من كل ناحية فقاتل المسلمون قتالاً شديداً حتى قُتل عامتهم، وأصيب ابن أبي العوجاء جريحاً مع القتلى، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ، فقدموا المدينة في أول يوم من صفر سنة ثمان. المحقق.

٣١٦ ـ سرية غالب بن عبد الله الليثي

السرية الثانية

كانت هذه السرية في شهر صفر سنة ثمانٍ من الهجرة عام (٦٢٩)م بقيادة غالب بن عبد الله الليثي، إلى بني الملوح بالكديد[١]، فخرج بالمسلمين حتى إذا كانوا بقديد، لقوا الحارث بن مالك الليثي المعروف بابن البرصاء وهي أمه، فأخذوه، فقال: إنه جاء يريد الإسلام، ولكنهم أوثقوه، وخلَّفُوا عليه رجلاً، وشنُّوا عليهم الغارة، واستاقوا النَّعَمَ، وحملوا ابن البرصاء وعادوا إلى المدينة، وأسلم ابنُ البرصاء، وتوفي آخر خلافة معاوية، وله حديث واحدٌ، وهو قوله: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يوم الفتح: «لا تُغزَى مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة».

٣١٧ ـ سرية أخرى لغالب بن عبد الله الليثي

السرية الثالثة

لما رجع غالب بن عبد الله الليثي من سريته الأولى بعثه رسول الله ﷺ إلى موضع مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك، ومعه (٢٠٠) مائتا رجلٍ، وذلك في شهر صفر سنة ثمانٍ من الهجرة، وقد نجحتْ هذه السرية نجاحاً تاماً؛ فقد قاتل المسلمون ساعةً، ووضعوا فيهم السيف، وقتلوا منهم قتلى، وأصابوا منهم نعماً وشاءً وذريةً، فساقوها وعادوا إلى المدينة.

٣١٨ ـ سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى جمع من هوازن

السرية الرابعة

بعث ﷺ شجاع بن وهب الأسدي إلى جمع من هوزان، يقال لهم: بنو عامر بالسيء[٢]، في شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ من الهجرة عام

---

(١) اسم ماء بين عسفان وقديد.

(٢) اسم ماء من ذات عرق على ثلاثة مراحل من مكة.

(٦٢٩)م ومعه أربعة وعشرون رجلاً، فأصابوا نعماً كثيرةً وشاءً، واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة، وكانت غيبتُهم خمس عشرة ليلة.

٣١٩ ــ سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح

السرية الخامسة

هذه السرية إلى ذات أطلاح من أرض الشام وراء ذات القرى في شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ من الهجرة، في خمسة عشر رجلاً بقيادة كعب بن عمير الغفاري، فلما ساروا إليهم، وجدوا جمعاً كثيراً جاءوا على الخيل، فدعاهم المسلمون إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، ورشقوهم بالنبل، فقاتلهم الصحابة أشدَّ القتال، حتى قُتلوا رضي الله عنهم، ولم ينجُ منهم غير كعب بن عمير فقد كان جريحاً في القتلى.

قال ابن سعد في طبقاته الكبرى: كعب[١] بن عمير كان هو الجريح. فلما برد عليه الليلُ، تحامل حتى أتى النبيَّ ﷺ فأخبره الخبرَ وما وقع لهم، فشق ذلك على النبي ﷺ، وهمَّ أن يبعث لهم عدداً هائلاً، لكن بلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر، وتركوا منازلهم خوفاً من مجيء جيش المؤمنين إليه لأخذ الثأر منهم فرحلوا، وتركهم الرسول ﷺ[٢].

٣٢٠ ــ إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة

حَدَّثَ عمرو بن العاص عن سبب إسلامه[٣] قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق، جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله أني أرى أمرَ محمدٍ يعلُو الأمورَ علواً منكراً، وإني لقد رأيت أمراً فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيتَ؟

---

(١) في الأصل (هو كعب بن عمير كان هو.. الخ) فحذفنا كلمة (هو) الأولى. المحقق.

(٢) هذه السرايا الخمس عن كتاب محمد رسول الله ص ٣٩٣ و٣٩٤.

(٣) كما هو مروي في سيرة ابن إسحاق وابن هشام وكتاب محمد رسول الله ص ٣٩٥.

قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي، فنكون عنده، فإن ظهر محمدٌ على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمدٍ، وإن ظهر قومُنا، فنحنُ من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير.

قالوا: إن هذا الرأي.

فقلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحب ما يهدَى إليه من أرضنا الأدم؛ فجمعنا له أدماً كثيراً، ثم خرجنا، حتى قدمنا عليه، فوالله! إنا لعنده؛ إذ جاءه عمرو بن أمية الضَمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقلتُ لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضَمري لو قد دخلتُ على النجاشي لسألته إياه، فأعطانيه فضربتُ عنقَهُ، فإذا فعلتُ ذلك، رَأتْ قريشٌ أني قد أجزأتُ عنها حين قتلتُ رسولَ محمدٍ؛ فدخلت على النجاشي، فسجدتُ له كما كنتُ أصنع فقال: مرحباً بصديقي، أهديتَ إليَّ من بلادكَ شيئاً؟ قلتُ له: نعم أيها الملك! قد أهديت إليكَ أدماً كثيراً، ثم قربتُه إليه فأعجبه واشتهاه، ثم قلتُ له: إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسولُ رجلٍ عدوٍّ لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، فغضب الملك ثم مدَّ يده فضرب بها أنفه ضربةً ظننتُ أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرضُ لدخلتُ فيها فرقاً ــ خوفاً ــ منه، ثم قلتُ له: أيها الملكُ! والله لو ظننتُ أنك تكرهُ هذا ما سألتك؛ قال الملك: أتسألني أن أعطيَكَ رسولَ رجلٍ يأتيه الناموسُ الأكبرُ الذي كان يأتي موسى عليه السلام لتقتله؟ قلت: أيها الملك! أكذاكَ هو؟ قال: ويحك يا عمرو! أطعني واتبعْهُ، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرنَّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلتُ: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام؛ ثم خرجتُ إلى أصحابي، وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمتُ أصحابي إسلامي، ثم خرجتُ عامداً إلى رسول الله ﷺ، فلقيتُ خالدَ بنَ الوليد، وذلك قبيل فتح مكة، وهو مقبلٌ من مكة، فقلتُ له: يا أبا سليمان! أين تريد[1]؟ قال: والله لقد استقام الميسمُ، وإن الرجلَ لنبي، أذهب والله

(١) لم يكن في الأصل عبارة (أين تريد؟). المحقق.

فأسلمُ، فحتى متى؟ قلت: والله ما جئتُ إلا لأسلم، فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوتُ فقلت يا رسول الله! إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، فقال رسول الله ﷺ يا عمرو! بايعْ فإن الإسلامَ يجبّ ما قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها. فبايعته ثم انصرفتُ[1]، بعد أن تقدم عثمان بن طلحة العبدري فأسلم أيضاً.

وقد فزع عكرمة بن أبي جهلٍ لما سمع بإسلام خالد الذي يقول: (لقد استبان لكل ذي عقلٍ أن محمداً ليس بساحر ولا شاعرٍ، وأن كلامه من كلام رب العالمين، فحقٌّ على كل ذي لبٍّ أن يتبعَهُ).

فقال عكرمة: لقد صَبُؤْتَ يا خالد؟

قال خالد بن الوليد: لم أصبؤ ولكني أسلمتُ.

فقال عكرمة: والله! إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنتَ.

خالد: لِمَ؟

عكرمة: لأن محمداً وضع شرف أبيكَ حين جُرِح، وقَتَلَ عمكَ وابن عمك ببدرٍ، فوالله! ما كنتُ لأُسلم ولأتكلم بكلامكَ يا خالد! أما رأيتَ قريشاً يريدون قتاله؟

قال خالد: هذا أمر الجاهلية وحميتها، لكني والله! أسلمتُ حين تبيَّن لي الحق.

وبعث خالد إلى النبي ﷺ بأفراسٍ، وبعث إليه بإقراره بالإسلام وعِرفانه؛ وبلغ إسلامُ خالدٍ أبا سفيان، فبعث في طلبه وسأله: أحقٌّ ما بلغه عنه؟ ولما أجابه خالد أنه حقٌّ، غضب أبو سفيان وقال: واللاتِ والعزّى! لو أعلم أن الذي تقول حقٌّ لبدأت بكَ قبل محمد، قال خالد: فوالله! إنه لحق على رغم من رغم، فاندفع أبو سفيان في غضبه نحوه، فحجزه عنه عكرمة،

(١) أي تقطع وتمحوما قبلها من الكفر والمعاصي والذنوب.

وكان حاضراً، وقال: مهلاً يا أبا سفيان! فوالله لقد خفتُ للذي خفتَ أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه، أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه وهذه قريش كلها تبايعت عليه، والله! لقد خفتُ ألاَّ يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم؛ وخرج خالدٌ من مكة إلى المدينة فانضمَّ إلى صفوف المسلمين[1].

وقد أسلم بإسلام هؤلاء الثلاثة، كثيرٌ من أهل مكة، واتبعوا دين الحق؛ وبذلك قويت شوكة الإسلام، وأصبح فتح مكة أبوابها لمحمد رسول الله ﷺ أمراً[2] لا محلَّ لريبةٍ أو شكٍ فيه، وإن غداً لناظره قريب.

وكان إسلام هؤلاء الثلاثة في السنة الثامنة من الهجرة عام (٦٢٩/٦٣٠)م قبل الفتح بستة أشهر.

وقبل متابعتي في أبحاث السيرة، أرى لزاماً عليَّ أن أشرح ترجمة هؤلاء الأبطال الثلاثة زيادة للمعرفة فيهم فأقول:

٣٢١ ــ ترجمة عمرو بن العاص رضي الله عنه

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي السهمي.

وأمه: النابغة بنت حرملة وقيل اسمها: سلمى بنت حرملة سبية من بني جلانْ بن عتيك بن أسلم؛ وكنيته: أبو عبد الله وقيل: أبو محمد.

ولد بمكة وبها ترعرع ونشأ كاتباً وقارئاً، وقد ولع بالتجارة منذ نعومة أظفاره، مما زاد في ثقافته، واتساع أفق عقله. وكان عمرو من هؤلاء العرب الذين رأوا الوثنية في قوتها وفي ضعفها على أنه كان من أشد القرشيين عداوة للإسلام.

---

(١) انظر كتاب حياة محمد ص ٣٩٠ للدكتور محمد حسين هيكل.

(٢) في الأصل (أمرٌ) بالرفع والصواب بالنصب لأنه خبر أصبح. المحقق.

فكان أحد الرسل الذين أوفدتهم قريش إلى النجاشي ليردَّ من هاجر إلى بلاده من القرشيين إلى مكة، ولكنه أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وأخلص لدينه الجديد، وكان إيمانه قوياً، وقد شرحت سابقاً ذلك.

اغتبط المسلمون باعتناق عمرو الإسلام، حتى قال الرسول ﷺ: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص» كما اغتبط الرسولُ ﷺ بشجاعته ودهائه، فولاه قيادة سرية ذات السلاسل التي كان بين رجالها خيرةُ المسلمين كأبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم.

وكذلك أرسله الرسول الكريم في سرية لهدم سُواع ــ اسم صنم لهذيل ــ وولاه الصدقة بعمان التي أسلم أهلها، بعد أن كانوا يدينون بالمجوسية، فوطد دعائم الإسلام فيها، وبقي والياً على صدقتها حتى انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه.

ولما بويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة، وقامت حروب الردة الطاحنة التي كادت أن تمزّق وحدة المسلمين كان عمرو بن العاص فيمن استعان بهم أبو بكر من أشراف العرب؛ كما قام بدورٍ هامٍ في إخضاع قضاعة، وأرغمهم على دفع وأداء الزكاة والرجوع إلى الإسلام؛ وقد عقد أبو بكر اللواء لعمرو بن العاص حينما قام بفتح بلاد العراق والشام فكان عمرو مسيَّراً لفتح فلسطين فتوالت انتصاراته في جميع المواقع التي خاض غمارها.

وقد أذن له الخليفة العادل عمر بن الخطاب بفتح مصر ففتحها بعد أن درس سياسة شعبها؛ ثم فتح عمرو حصن بابليون، وسار إلى الإسكندرية وكانت حاضرة الديار المصرية في ذلك الحين، وأغنَى مدن العالم وأوفرها ثروة، وأوسعها تجارة، فأخرج الروم منها، وأزال سلطانهم من هذه البلاد، كما مدَّ نفوذ المسلمين في بلاد النوبة لتأمين حدود مصر. وقد أسس عمرو بن العاص المسجد المعروف الآن بجامع عمرو، وقد نظم الجيش فأنشأ له ديواناً يشرف على شؤون الجند الذين لم يتجاوز عددهم بعد فتح حصن بابليون (١٦) ستة عشر ألفاً، وكان عمرو يشرف على القضاء والصلاة والخراج والجند والشرطة، واشتهر

بالفصاحة والبلاغة في قوله وحكمه البليغة منها: (ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرين) وحكمه كثيرة.

وكان عمرو من دهاة العرب المشهورين، منها تلك الحيلة التي ابتكرها في موقعة صفين، ومن رفع المصاحف على أسنة الرماح، وكان عمرو حاضر البديهة، طيب الفكاهة، مات عمرو في يوم عيد الفطر من السنة الثالثة والأربعين للهجرة.

٣٢٢ ــ ترجمة خالد بن الوليد رضي الله عنه

هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، أبو سليمان القرشي المخزومي رضي الله عنه.

وأمه: لبابة الصغرى وهي بنت الحارث بن حزن الهلالية، وهي أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ، وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ. وكان خالد بن الوليد أحد أشراف قريش في الجاهلية، وكان إليه القبة وأعنة الخيل في الجاهلية.

أما القبة: فكانوا يضربونها، ويجمعون فيها ما يجهزون به الجيش؛ وأما الأعنة، فإنه كان يكون المقدم على خيول قريش في الحرب والكفاح.

ولما أراد الإسلام، قدم على رسول الله ﷺ هو وعمرو بن العاص وطلحة بن أبي طلحة العبدري، وقيل: عثمان ابن طلحة العبدري، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: رمتكم مكة بأفلاذ كبدها.

قال خالد بن الوليد: لما أراد الله عز وجل بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الإسلام، وحضر لي رشدي، وقلت: قد شهدتُ هذه المواطن كلها على محمدٍ ﷺ فليس موطن أشهده إلا وأنصرف، وأنا أرى في نفسي أني في غير شيء، وأن محمداً يظهر، فلما جاء لعمرة القضاء، تغيبتُ ولم أشهد دخوله، فكان أخي الوليد بن الوليد دخل معه، فطلبني فلم يجدني، فكتب إليَّ كتاباً فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإني لم أر أعجب من

ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك، ومثل الاسلام لا يجهله أحد، قد سألني رسول الله عنك فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به، فقال: ما مِثْلُهُ يجهلُ الإسلام، ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيراً له، ولقدَّمناهُ على غيره، فاستدرك يا أخي! ما قد فاتك من مواطن صالحة)[1]. فلما جاءني كتابه، نشطتُ للخروج، وزادني رغبةً في الإسلام وسرَّتني مقالةُ رسول الله ﷺ، ورأيت في المنام كأني في بلاد ضيقة، جدبة ممحلة، فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة، فلما أجمعتُ على الخروج إلى المدينة، لقيتُ صفوان بن أمية، فقلت: يا أبا وهب! أما ترى أن محمداً ظهر على العرب والعجم، فلو قدمنا عليه واتبعناه، فإن شرفَهُ شرفٌ لنا؟ فقال صفوان: لو لم يكن يبقى غيري ما اتبعتُه أبداً، فقلت: هذا رجلٌ قُتل أبوه وأخوه ببدرٍ، فلقيت عكرمة بن أبي جهلٍ فقلتُ له مثل ما قلت لصفوان، فقال عكرمة مثل الذي قال صفوان، قلتُ فاكتم ذكرَ ما قلتُ لكَ، قال: لا أذكره؛ ثم لقيتُ عثمان بن طلحة قلتُ: هذا صديق، فأردتُ أن أذكر له، ثم ذكرتُ قتلَ أبيه طلحةَ وعمه عثمان وأخوته الأربع: مسافع والحلاس والحارث وكلاب فإنهم قُتلوا كلهم يوم أحد، فكرهت أن أذكر له، ثم قلت له: إنما نحن بمنزلة ثعلبٍ في جحرٍ، لو صبَّ فيه ذنوب من ماءٍ لخرج، ثم قلتُ له ما قلتُ لصفوان وعكرمة، فأسرع الإجابة، وواعدني إن سبقني أقام بمحلّ كذا، وإن سبقته إليه انتظرته، فلم يطلع الفجرُ حتى التقينا، فعدونا ــ أسرعنا ــ حتى انتهينا إلى الهدة[2]، فوجدنا عمرو بن العاص بها، فقال: مرحباً بالقوم، فقلنا: وبك، قال: أين مسيركم؟ قلنا: الدخول في الإسلام، قال: وذلك الذي أقدمني، وفي رواية بلفظ: قال عمرو لخالد: يا أبا سليمان! أين تريد؟ قال: والله! لقد استقام الميسمُ[3]، وإن هذا الرجلَ لنبيٌّ فأذهبُ فأسلمْ فحتَّى متَى؟ قال عمرو: أنا والله! ما جئتُ إلا لأسلم، فاصطحبنا جميعاً.

---

(١) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٤٠٣.

(٢) الهدة: اسم محل.

(٣) أي تبين الطريق وظهر الأمر.

فوصلوا المدينة وقال خالد: فلبستُ من صالح ثيابي ثم عمدتُ إلى رسول الله ﷺ فلقيتُ أخي، فقال: أسرع، فإن رسول الله ﷺ قد سُرَّ بقدومكم، وهو ينتظركم، فأسرعنا المشيَ فاطلعتُ عليه ﷺ، فما زال رسول الله يبتسمُ حتى وقفتُ عليه فسلمتُ عليه بالنبوة، فردَّ عليَّ السلام بوجهٍ طلقٍ، فقلتُ: إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، قال ﷺ: الحمد لله الذي هداكَ، قد كنتُ أرَى لكَ عقلاً رجوتُ أن لا يسلمكَ إلا إلى خيرٍ، قلتُ: يا رسول الله! ادعُ الله لي يغفر تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك، فقال ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما قبله» وتقدم عثمان وعمرو فأسلما، وكان عمرو بن العاص أسنَّ منهما.

قال خالدُ بنُ الوليد رضي الله عنه: اعتمر[1] رسول الله ﷺ فحلق رأسه، فابتدر الناسُ شعرَهُ، فسبقتُهم إلى ناصيته، فجعلتها في هذه القلنسوة،فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا تبيَّنَ لي النصر. والأكثر على أنه مات بحمص سنة (٢١) هجرية وعمره بضع وأربعون سنة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وترجمة حياة سيدنا خالدٍ بن الوليد رضي الله عنها ملأى بالبطولات الفذة النادرة، وهي مضرب المثل بما ابتكره من خطط وفنون حربية، قلَّ من يعلمها، وقد اعترف بها قادة الأمم في حروبهم.

وليس هنا مجال لذكرها، ويكفيه قول رسول الله ﷺ: «خالد سيف من سيوف الله سلَّه الله على أعدائه» رضي الله عن خالدٍ وأرضاه، وجعل الجنة مأواه. اللهم آمين.

٣٢٣ ــ ترجمة عثمان بن طلحة العبدري رضي الله عنه

هو عثمان بن طلحة بن عبد الله بن عبد العزَّى العبدري الحجبي الحجازي، شهد فتح مكة، أسلم مع خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص بعد

(١) لعلها عمرة الجعرانة.

صلح الحديبية؛ مات سنة اثنتين وأربعين من الهجرة[1].

وجاء في كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل ص ٣٩٠ قوله: وكان عثمان بن طلحة رضي الله عنه، حارساً للكعبة في الجاهلية. وجاء في كتاب (محمد رسول الله) ص ٤٣٣ قوله: أما مفتاح الكعبة فقد ردَّهُ ﷺ إلى عثمان بن طلحة بعد أن أخذه ﷺ وفتح الكعبة ودخلها وصلى ركعتين بين العمودين اليمانيين ثم قال لعثمان بن طلحة: «خذوها يا بني أبي طلحة! خالدة، لا ينزعها منك إلا ظالم»[2].

وعائلة عثمان بن طلحة لا تزال سدنة الكعبة، ومفتاحها لا يزال معهم، إلى يومنا هذا.

٣٢٤ ــ سرية مؤتة الهامّة

مؤتة هي مدينة معروفة بشرقي الأردن اسمها اليوم البلقاء، على مرحلتين من بيت المقدس، شرقي بحر الميت، وهي تبعد عن المدينة (١٢٥٠) كم تقريباً، وكانت في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة سبتمبر سنة (٦٢٩)م.

وسببها: أن النبيَّ ﷺ كان قد أرسل الحارث بن عمير الأسدي بكتاب إلى أمير بصرى من جهة هرقل، واسمه الحارث بن أبي شمر الغساني، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه وضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، وهذه مخالفة ، ولية قديمة حيث لم تقتل الرسلُ المبعوثون للملوك في العرف الدولي قديماً وحديثاً.

هذا هو السبب الذي ذكره أغلب المؤرخين، وهي أول سرية حارب فيها المسلمون جيشاً مسيحياً.

---

(١) انظر كتاب (خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال) للعلامة الكبير صفي الدين أحمد ابن عبدالله الخزرجي الأنصاري ص ٢٠٦.

(٢) في الأصل (لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم) بزيادة لفظ (أحد). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

فـأمَّـرَ رسـول الله ﷺ ثـلاثـة مـن القـواد، وهـم: زيـد بـن حـارثـة، وجـعـفـر بـن أبي طـالـب، وعبـد الله بـن رواحـة رضي الله عنهـم وقـال: إن أصيب زيد فجعفر على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فإن أصيب فليرتضِ المسلمون رجلاً من بينهم، يجعلونه عليهم أميراً، وكـان عـدد هـذا الجيش ثلاثة آلاف رجل. وعقد لهم ﷺ لواء أبيض، ودفعه للـقـائـد زيـدٍ وأوصـاه أن يـأتـوا مـقـتـلَ الحـارث بـن عـمير، وأن يـدعـوا من هناك إلى الاسلام فإن هم أجابوا، وإلا فاستعينوا عليهم بالله وقاتلوهم، فأسرع الناس بالخروج وعسكرُوا بالجرف [1]، وقال: أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، (اغزُوا باسم الله في سبيل الله مَنْ كفر بالله، لا تغدرُوا ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأةً، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعةٍ، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعُوا شجراً، ولا تهدموا بناءً).

فلما فصلوا من المدينة، سمع العدوُّ بمسيرهم، وقام شرحبيل بن عمرو الغساني فجمع أكثر من مائة ألفٍ من الروم، وضمَّ إليهم القبائل القريبة الموالية له؛ فلما نزل المسلمون معان من أرض الشام ــ وهي الآن بالقطر الأردني وهي بلدة معروفة ــ بلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء، فأقاموا على معان ليلتين، يفكرون في أمرهم، وقال [2]: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإمّا أن يمدَّنا بالرجال، وإمّا أن يأمرنا بأمره، فنمضي له، فشجع الناس عبد الله بن رواحة على المضي، فقال: (إن التي تكرهون التي [3] خرجتم لها، إياها تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا كثرةٍ، ولا قوةٍ، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فربما فعل [4]، وإن تكن الأخرى فهي الشهادة، وليستْ بشر المنزلتين).

---

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة لجهة الشام.

(٢) الصواب (وقالوا). المحقق.

(٣) الصواب (للتي). المحقق.

(٤) النص من سيرة ابن هشام، ومن كتاب عيون الأثر لابن سيد الناس (فشجع الناسَ عبدُ الله بنُ رواحة وقال: يا قوم! إن التي تكرهون للتي خرجتم لها تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا

فقال الناسُ: لقد صدق ابن رواحة.

فمضوا إلى مؤتة[1]، ووافاهم المشركون، فجاء منهم من لا قبل لأحدٍ به من العدد الكثير الهائل الزائد على مائتي ألف مقاتل، والسلاح والخيل وآلات الحرب؛ فقاتل الأمراء الثلاثة يومئذ على أرجلهم، فأخذ اللواءَ زيدُ بن حارثة فقاتل المسلمون معه بشجاعةٍ على صفوفهم حتى قُتل طعناً بالرماح، ثم أخذ اللواءَ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فقاتل به وهو على فرسه، فأحاط به الأعداءُ، فنزل عن فرسه الشقراء فعقرها وقاتل قتال الأبطال حتى قُتل؛ وإنه حينما حمل اللواءَ قُطعت يمينُه، فأخذ اللواء بيساره فقُطعت يسارُهُ، فاحتضنه وقاتل حتى قتل رضي الله عنه وأرضاه، وقد وجد فيه بضع وسبعون جرحاً ما بين ضربة بسيف، وطعنةٍ برمح؛ ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وتقدَّمَ به وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه، و يتردد بعض التردد، ثم نزل عن فرسه وقاتل حتى قُتل رضي الله عنه؛ ودُفن القواد الثلاثة بقبرٍ واحدٍ؛ ثم أخذ اللواءَ ثابتُ بن أقرم العجلاني البلوي حليف الأنصار، وكان من أهل بدرٍ فقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم، قالوا له: أنتَ، قال: ما أنا بفاعلٍ، فاصطلحوا على خالد بن الوليد رضي الله عنه.

جاء في الحديث الصحيح قوله: حتى أخذ الرايةَ «سيفٌ من سيوف الله» فقاتلهم خالد بن الوليد رضي الله عنه قتالاً شديداً، وكان لم يمضِ على إسلامه إلا ثلاثة أشهر تقريباً.

وقد تفرق المسلمون لما قُتل عبد الله بن رواحة وانهزموا حتى لم يُرَ اثنانِ جميعاً؛ فاستطاع خالد بن الوليد بعد أن أخذ اللواء وتولّى القيادة، أن يجمعَ شملَهم، وجعل مقدمته ساقة، وميمنته ميسرة، فظنَّ العدوّ أن المدد جاءهم.

قال ابن إسحاق: فلما أخذ الراية خالدُ بن الوليد، دافع القوم وخاض بهم،

قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين؛ إما ظهور وإما شهادة. الخ. المحقق.

(١) مؤتة: بين الكرك والطفيلة بالأردن.

ثم انحاز وانحيزَ عنه حتى انصرف بالناس [1].

بما ابتكره خالد من إيهام العدو، وترتيب قواته، وقد قامت مؤخرة جيش المسلمين بقتالٍ لإحباط مطاردة العدو. قامت ضجة عالية لإيهام العدوّ[2] بقدوم إمدادات جديدة للمسلمين مما أوقع الرعب في قلوب الأعداء، ولم يخسر في هذه المعارك كلها سوى اثني[3] عشر شهيداً، وكانت خسائر الروم لا تعدُّ، وقد استفاد المسلمون في معركة مؤتة في معرفة المسلمين لأساليب الروم في قتالها، فيما يحدث بعد.

أخبر النبيُّ ﷺ أصحابه بما حدث في ساحة القتال قبل رجوع الجيش إلى المدينة، ونادى في الناس: الصلاة جامعة، ثم صعد المنبر، وعيناهُ تذرفانِ وقال: «يا أيها الناس! باب خير، باب خير، باب خير، أخبركم عن جيشنا هذا الغازي، إنهم انطلقوا فلقوا العدوَّ، فقتل زيدٌ شهيداً، فاستغفروا له، ثم أخذ الراية جعفر فشدَّ على القوم حتى قُتل شهيداً فاستغفروا له، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وأثبت قدميه حتى قُتل شهيداً فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء، وهو أمير نفسه ولكنه سيفٌ من سيوفِ الله فآب بنصره».

فمن يومئذ سمي خالد (سيف الله).

قال بعض المؤرخين: كون ما وقع يوم مؤتة فتحاً ونصراً واضح، لإحاطة العدو بهم، وتكاثرهم عليهم، لأن العدو كان أكثر من مائتي ألف، وجيش المسلمين ثلاثة آلاف، وكان مقتضى العادة أنهم يقتلون عن آخرهم.

وأول من جاء بخبر الجيش (يعلى بن أمية رضي الله عنه) فلما قدم قال له النبي ﷺ: «إن شئتَ فأخبرني وإن شئتَ أخبرتك» قال: فأخبرني

---

(١) لم يذكر في الأصل كلمة (بالناس). المحقق.

(٢) لم يذكر في الأصل عبارة (لإيهام العدو) وقد أثبتناها ليرتبط الكلام. المحقق.

(٣) في الأصل (اثنا عشر) والصواب ما أثبتناه لأنه مضاف إليه منصوب بالياء. المحقق.

يا رسول الله! لأزداد يقيناً، فأخبره رسول الله ﷺ الخبر كله، ووصف له ما كان، فقال يعلى بن أمية: (والذي بعثَكَ بالحق! ما تركتَ من حديثهم حرفاً واحداً، وإن أمرهم لكما ذكرتَ)[1]. وهذه من جملة معجزاته. لما عاد الجيش الإسلامي من مؤتة، ودنا من المدينة، تلقَّاهم رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه، وطلب الرسول ﷺ ابن جعفر، فأتيَ له بعبد الله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه؛ أما الناسُ فجعلوا يحثُون[2] على الجيش التراب، ويقولون: يا فَرَّار! فررتم في سبيل الله، فيقول لهم رسول الله ﷺ: ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله.

وكان سلمة بن هشام لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع من كلّ من رآهُ: يا فُرار! في سبيل الله.

مع أن جيش الإسلام في مؤتة يعد منتصراً والحمد لله كما ذكرت آنفاً، وما قام به خالد بن الوليد يعدُّ من أعظم الخطط الحربية والانتصار العظيم، فلا خجل لهؤلاء وما هم بفرارين ولكنهم كما قال رسول الله ﷺ: ليسوا بالفُرار ولكنهم الكرار. وقد ختم للأ بطال فيها بالشهادة كما طلبوها وتحدث عنها عبد الله بن رواحة في مقاله للجيش، رضي الله عنهم وأرضاهم.

٣٢٥ ــ مواساة رسول الله ﷺ لآل جعفر رضي الله عنه

عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها زوج جعفر بن أبي طالب رضي الله عنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ يوم أصيب جعفر وأصحابه، فقال: ائتني ببني[3] جعفر، فأتيتُه بهم، فشمَّهم وذرفت عيناه، وفي رواية: وبكى، حتى نقطتْ لحيتُه الشريفة فقلت: يا رسول الله! بأبي أنتَ وأمي!

---

(١) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٤٠٨.

(٢) في الأصل (يحثُون) بتشديد الثاء المضمومة وضم الحاء والصواب بإسكان الحاء وضم الثاء غير مشددة من (حثا يحثو). المحقق.

(٣) في الأصل (ببنيَّ) بتشديد الياء وفتحها والصواب ما أثبتناه. المحقق.

ما يبكيك؟ أبلغَكَ عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم أصيبوا هذا اليوم، قالت: فقمتُ أصيحُ واجتمعَ عليَّ النساء، وجعل رسول الله ﷺ يقول لي: يا أسماء! لا تقولي هجراً، ولا تضربي خدّاً، وقال: «اللهمَّ! قَدِّمْهُ إلى أحسن الثواب، واخْلُفْهُ في ذريته بأحسنَ ما خلفتَ أحداً من عبادك في ذريته».

وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شُغِلوا بأمر[1] صاحبهم؛ وقيل: إنه دخل على فاطمة وهي تقول: واعَمّاهُ! فقال ﷺ: على مثل جعفر فلتبكِ البواكي، ثم قال ﷺ: اصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم.

وهذا الطعام الذي جعل لآل جعفر رضي الله عنه هو أصل طعام التعزية اليوم، وهو سنة عن رسول الله ﷺ. وتسميه العرب (الوضيمة) ونسميه نحن مواساة أهل الميت. قال حسّانُ بن ثابت رضي الله عنه يبكي جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

ولقد بكيتُ وعزَّ مَهْلِكُ جعفرٍ ... حِبُّ النبيّ على البرية كلها
ولقد جَزِعْتُ وقلتُ حينَ نُعيتَ لي ... مَنْ للجِلادِ لدى العُقَابِ وظلّها[2]
بالبيضِ حينَ تُسَلُّ من أغمادها ... ضَرْباً وإنهالِ الرماحِ وعَلّها[3]
بعدَ ابنِ فاطِمةَ المبارك جعفرٍ ... خيرِ البريةِ كلِّها وأجلِّها[4]
رُزْءاً[5] وأكرمِها جميعاً محْتداً ... وأعَزِّها مُتظلِّماً وأذلِّها
للحقِّ حينَ ينوبُ غيرَ تنحُّلٍ ... كذِباً وأنداها يداً وأقلِّها[6]

---

(١) في الأصل (بأمرٍ) بتنوين الراء والصواب بحذف التنوين للإضافة. المحقق.
(٢) العقاب: الراية.
(٣) إنهال معطوفة على الجلاد والمعنى أن تسقي الناس بعد الشراب الأول.
(٤) فاطمة ههنا: هي أم جعفر فاطمة بنت أسد بن هاشم، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي.
(٥) في الأصل (رزء) بدون ألف. والصواب ما أثبتناه. المحقق.
(٦) التنحل: الكذب.

فُحْشاً وأكثرِها إذا ما يُجتدَى ... فضلاً وأنداها يداً وأبلّها [1]
بِالعُرْفِ غيرَ محمدٍ لا مثلُهُ ... حيٌّ من أحْيَاءِ البريةِ كلها

وقال كعبُ بن مالك رضي الله عنه:

نام العيونُ ودمعُ عينِكَ يَهملُ ... سَحّاً كما وكَفَ الطَّبابُ المخضلُ [2]
في ليلةٍ وردتْ عليّ همومُها ... طوراً أجِنُّ وتارةً أتململُ
واعتادَني حزنٌ فبتُّ كأنني ... ببناتِ نعشٍ والسِّماكِ مُوَكَّلُ
وكأنما بين الجوانحِ والحشَا ... مما تأوَّ بني شهابٌ مُدْخَلُ
وَجْداً على النَّفرِ الذينَ تتابعُوا ... يوماً بمؤتةَ أسندوا لم ينقلوا
صلّى الإلهُ عليهم من فتيةٍ ... وسقَى عظامَهمُ الغمامُ المسبلُ
صبرُوا بمؤتةَ للإلهِ نفوتهُمْ ... حذرَ الردَى ومخافةً أن ينكلُوا [3]
فمضوْا أمامَ المسلمينَ كأنهم ... فُنُقٌ عليهنَّ الحديدُ المرفلُ [4]
إذ يهتدون بجعفرٍ ولوائه ... قُدّامَ أولهم فنَعم الأول
حتى تفرّجَتِ الصفوفُ وجعفرٌ ... حيثُ التقى وعْثُ الصفوفِ مجدَّلُ [5]
فتغيَّرَ القمرُ المنيرُ بفقدهِ ... والشمسُ قد كُسفتْ وكادتْ تأفلُ
قَرْمٌ علا بنيانُه من هاشمٍ ... فَرْعاً أشَمَّ وسؤدداً ما ينقلُ [6]
قومٌ بهم عصمَ الإلهُ عبادَهُ ... وعليهمُ نزلَ الكتابُ المنزلُ
فضَلُوا [7] المعاشرَ عِزَّةً وتكرماً ... وتغمّدتْ أحلامُهم من يجهلُ [8]

---

(١) يجتدى: تطلب جدواه، والجدوى: العطية.

(٢) يهمل: يسيل، ووكف: قطر، والطّباب: ثقب في خرز المزادة التي يجعل فيها الماء، المخضل: المندى.

(٣) يرجعوا عن عدوهم هائبين له.

(٤) فُنُق: فحول من الإبل.

(٥) الوعث: الرمل.

(٦) القرم: أصله الفحل من الإبل ومعناه هنا: السيد، ما ينقل: لا يحجر.

(٧) في الأصل (فضّلوا) بضم الضاد والصواب فتحها كما أثبتنا. المحقق.

(٨) معناه: أي سترت أهل الجهل.

لا يُطلقونَ إلى السَّقاءِ حُباهُم وتَرَى خطيبَهمُ بحقٍ يَفصلُ
بيضُ الوجوه ترى بطونَ أكفِّهم تندَى إذا اعتذر الزمان المحلُ
وبهديهمْ رضيَ الإلهُ لخلقِهِ وبحدِّهم نُصرَ النبيُّ المرسلُ[1]

والمراثي بحق القواد الثلاثة الذين استشهدوا في موقعة مؤتة كثيرة تدل على شدة الحزن والألم على فراقهم واستشهادهم، وإنما استشهدتُ بما رويته للعبرة والاتّعاظ، وما كان من هؤلاء لحبهم لله ولرسوله ودينه.

٣٢٦ ــ إسلام فروة بن عامر الجذامي واستشهاده

كان فروة بن عامر الجذامي عاملاً للروم على من يليهم من العرب ببلدة معان بالأردن، فأهدى إلى النبي ﷺ بغلَتهُ البيضاء، وبعث إليه، رسالةً بأسلامه مع رسول؛ فلما بلغ الرومَ ذلك من أسلامه، طلبوه حتى أخذوه، فحبسوهُ عندهم؛ فلما اجتمعت الرومُ لصلبِه على ماءٍ لهم، يقال له عَفْرى بفلسطين قالِ:

ألاهل أتى سلَمى بأنَّ حليلَها على ماءِ عفرَى فوق إحدى الرواحلِ
على ناقةٍ لم يضرب الفحلُ أمَّها مُشذَّبةً أطرافها بالمناجلِ

قال ابن إسحاق: زعم الزهري أنهم لما[2] قدموهُ ليقتلوهُ قال:

بلّغ سراةَ المسلمين بأنني سلمٌ لربي أعظمي وبناني

رضي الله عن فروة حيث كان مؤمناً ثابت الإيمان، ولا بدَّ من الانتقام لقاتليه، وإن غداً لناظره لقريب.

٣٢٧ ــ سرية ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه

كانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى، وقد تولّى القيادة فيها البطل المغوار وسيف الله البتّار خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد أن قُتل الأمراء الثلاثة

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٤٥.
(٢) في الأصل (أنهم قدموه) بدون كلمة (لما). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

الذين تقدّم ذكرهم، وكان قد أسلم حديثاً مع عمرو بن العاص، فأظهر كفاءة حربيةً أمام جيش الروم الكبير، وتمكّن من جمع شمل الصحابة بعد أن تفرقوا، وعاد فريق منهم إلى المدينة، فرجع خالدٌ سالماً، ولم يتحمل المسلمون إلا خسارة قليلة؛ وفي جمادى الثانية شهر اكتوبر سنة (٦٢٩)م جاء دور عمرو بن العاص، فأرسله رسول الله ﷺ إلى بلاد بَلِيّ [١] وعُذْرة في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً.

وسببها: أنه ﷺ بلغه أن جمعاً من قضاعة تجمّعُوا للإغارة على المسلمين، وأرادوا أن يدنو من أطراف المدينة. وسميت هذه السرية (ذات السلاسل) لأن الأعداء ارتبط بعضُهم إلى بعضٍ، مخافة أن يفرُّوا، وقيل: سميتْ بذلك لأنه بها ماء يقال له السَّلْسَل.

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: بعث إليَّ النبي ﷺ يأمرني أن آخذ ثيابي وسلاحي، فقال: يا عمرو! إني أريد أن أبعثَك على جيشي، فيغنمك الله و يسلمك، قلت: لم أسلم رغبةً في المال، قال: (نعم المال الصالح للرجل الصالح) فعقد له لواءً أبيض، وجعل معه رايةً سوداء، فسار هو ومن معه، وكان يكمن النهارَ، و يسير الليل؛ فلما قرب منهم، بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمدُّهُ، فبعث ﷺ إليه أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، وعقد لواء، وبعث معه مائتين [٢] (٢٠٠) من سراة المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمتَ عليَّ مدداً، وأنا الأمير، فقال أبو عبيدة: لا ولكن أنا على ما أنا عليه، وأنت على ما أنتَ عليه، وكان أبو عبيدة رجلاً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا، فقال: يا عمرو! إن رسول الله ﷺ قال لي لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتُكَ، فأطاع له

---

(١) في الأصل (بلى) والتصحيح من طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١٣١ طبع بيروت. المحقق.

(٢) في الأصل (مائتي) بحذف النون والصواب ثبوتها لأنه ليس مضافاً. المحقق.

أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس، وسار حتى وصل إلى العدق، فحمل عليهم المسلمون، فهربوا في البلاد، وتفرّقوا مذعورين بعد أن اقتتلوا ساعةً، فهزمهمُ المسلمون، ولم يغنموا شيئاً.

أما في رواية البلاذري، فيقول: إن المسلمين غنموا. وأرسل عمرو بن العاص رسولاً إلى النبي ﷺ ينبئه بانتصاره في أول غزوة له، وأنه عزّز نفوذَ رسول الله ﷺ علىَ تخوم الشام، ثم عاد إلى المدينة.

٣٢٨ ــ سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى أرض جهينة

في شهر رجب سنة ثمانٍ من الهجرة (نوفمبر سنة (٦٢٩)م

بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه على ثلاثمائة رجلٍ، وكان فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أرضِ جُهينة، ليلقَى عيراً لقريش، ولمحاربة حيٍّ من جهينة، فنفد ما كان معهم من الزاد، فأكلوا الخبط ــ هو ورق شجر السلم ــ وأصابهم جوعٌ شديد، قال راوي السرية: فأخرج الله لهم دابة البحر تسمَّى العنبر، وهي سمكة كبيرة فأكلوا منها، وكانوا على ساحله.

٣٢٩ ــ سرية أبي قتادة رضي الله عنه إلى نجدٍ

في شهر شعبان سنة ثمانٍ من الهجرة سنة (٦٢٩)م

أرسل رسولُ الله ﷺ أبا قتادة رضي الله عنه إلى نجدٍ، ومعه خمسة عشر رجلاً، وأمره أن يشنَّ الغارة على غطفان بأرض محارب، فقاتلهم وسبىَ سبياً كثيراً، واستاق الغنم. وفي أول شهر رمضان من هذه السنة أرسل رسول الله ﷺ أبا قتادة أيضاً إلى إضَمٍ على ثلاثة بُرُدٍ من المدينة في ثمانية رجالٍ، ليوهم قريشاً أنه توجه إلى تلك الناحية، بعد أن نقضَتْ قريشٌ العهد، حتى يفاجئهم على غير استعدادٍ منهم لحربه، خرج أبو قتادة ومَنْ معه، فلقوا عامر بن الأضبط الأشجعي فسلَّم عليهم بتحية الإسلام، فقتله محلم

بن جثامة، واسمه يزيد بن قيس، لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيرَهُ ومتاعه؛ فلما قاموا على رسول الله ﷺ وأخبروهُ الخبرَ نزل فيهم القرآن: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينُوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلامَ لست مؤمناً﴾(١).

ثم إن أبا قتادة ومن معه لم يلقوا جمعاً، وبلغهم أنه ﷺ خرج من المدينة، وتوجَّهَ إلى مكة، فلحقوه بالسقيا، فأخبروهُ الخبر، فسأله محلمٌ أن يستغفر له، فقال: لا غفر الله لك، زجراً، كيلا يتهاون الناس بقتْل النفس المؤمنة، فقام محلمٌ وهو يتلقّى دموعه ببرديه، فما مضت له سابعة من الليالي حتى مات.

وذكر الطبري في تاريخه: أن محلم بن جثامة توفي في حياة النبي ﷺ، فدفنوه، فلفظته الأرض مرة بعد أخرى، فأمر به فألقي بين جبلين وجعل عليه حجارة، وقال رسولُ الله ﷺ: «إن الأرضَ لتقبل من هو شرٌّ منه، ولكنَّ الله أراد أن يريكم آيةً في قتل المؤمن».

٣٣٠ ــ غزوة فتح مكة، وما جرى فيها من الحوادث

إذا أراد الله تعالى أمراً هيَّأ أسبابه، وأزال موانعه، فقد كان رسول الله ﷺ يعلم علم اليقين، أن العرب لا تنقاد للإسلام، إلا إذا انقادت قريش، وأن قريشاً على صلفها وغرورها وولعها باللات والعزى وهبل لا تقبل الإسلام إلا عن طريق القوة، ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد أم القرى مكة، وكان ﷺ يتشوق لفتحها وتطهير البيت من الأوثان والأصنام وأدناس الشرك، والأمور الجاهلية، ولكن أنّى له ذلك، وبينه وبين زعماء مكة ما يمنعه من تحقيق ما يشتهيه وقد بعثه الله رحمة للعالمين، لينقذهم من براثن الشرك والعقائد الباطلة التي لا تمتُّ إلى الحقيقة بصلة، ويريهم الحق، وينير أمامهم السبيل؛ ولكن كان يمنعه من

---

(١) جزء من الآية رقم (٩٤) من سورة النساء. المحقق.

تحقيق أمنيته، وتحقيق رسالته عهود أبرمتها قريش معه في الحديبية، واتفقوا عليها، وهو سيد من وفى بعهده؛ ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه.

فقد علمت أن قبيلة خزاعة دخلتْ في عهد رسول الله ﷺ وقبيلةَ بكرٍ دخلتْ في عهد قريش، وكان بين خزاعة وقبيلة بكرٍ دماء في الجاهلية، كمنت نارُها بظهور الإسلام؛ فلما حصلت الهدنة، وقف رجل من بكرٍ يتغنَّى بهجاء رسول الله ﷺ على مسمع من رجلٍ خزاعيّ، فقام هذا وضربه على تحديه بهجاء رسول الله ﷺ، فحرّك ذلك كامن الأحقاد، وتذكر بنو بكرٍ ثأرهم من خزاعة، فشدوا العزيمة لحرب خصومهم، واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سراً بالعدة والرجال، كصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، وعكرمة بن أبي جهلٍ، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو وغيرهم من كبار قريش، وبينما خزاعةُ ذات ليلة على ماءٍ لهم يدعى الوَتير، إذ فاجأهم بنو بكرٍ فقتلوا منهم، ففرتْ خزاعة الى مكة، ولجؤا إلى دار بديلِ بن ورقاء وشكوا إليه نقض قريشٍ، ونقض بني بكر عهدَهم مع رسول الله ﷺ، وسارع عمرو بن سالمٍ الخزاعي، إلى المدينة فلما وصلها، وقف بين يدي رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد بين الناس، وجعل يقصُّ ما حدث ويستنصره، ثم أنشد أمام الناس قوله:

يا رب إني ناشدٌ محمدا ... حِلْفَ أبينا وأبيه الأتلدَا
قد كنتمُ ولداً وكنا والدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصرْ هداكَ الله نصراً أعتدا ... وادعُ عبادَ الله يأتوا مَدَدَا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفاً وجههُ تَرَبَّدَا
في فَيْلقٍ كالبحر يجري مزبدا ... ان قريشاً أخلفوكَ الموعدا
ونقضوا ميثاقَكَ المؤكَّدا ... وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لستُ أدعو أحداً ... وهم أذلّ وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هُجَّدا ... وقتلونا ركعاً وسجدا (١)

(١) انظر هذه الأبيات ومجيء عمرو بن سالم للنبي ﷺ في سيرة ابن هشام وكتاب محمد رسول الله ص ٤١٤.

فقال رسول الله ﷺ له: (نُصرت يا عمرو بن سالم!). ثم خرج بُدَيْلُ بن ورقاء في نفرٍ من خزاعة حتى قدموا المدينة فأخبروا النبي ﷺ بما أصابهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ونقض العهد من قريش بما فعلته من مناصرتهم لبني بكر وقتلهم للخزاعيين.

وإن أبا سفيان عندما أخبر بما فعل القوم قال: (هذا أمرٌ لم أشهده، ولكني لم أغب عنه، وإنه لشر والله، ليغزونا محمدٌ، ولقد حدثتني زوجتي[1] هند بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها، رأت ما[2] أقبل من الحجون يسيل، حتى وقف بالخندمة فكره القومُ ذلك).

فغضب رسول الله ﷺ لما وقع بالخزاعيين أشد الغضب وأمرهم بالعودة إلى ديارهم، وأيقن أن وفاء قريش بعهده لم يكن إلا عن خوف منه، فلما توهمت ضعفَه أخذت تعبث بمعاهدته.

إذاً فلا بدّ من إذاقتها وبال أمرها، ولا بدَّ من مقابلة نقضها العهد بانتزاع حكم مكة من يدها، فقومٌ لا يعرفون قيمةً للعهد، ليسوا أهلاً، لأن يحكموا في أشرف بقعةٍ في الأرض، لذلك قرَّرَ ﷺ في نفسه السير إلى مكة وبعث إلى كل من آمن بالله ورسالة محمدٍ في الجزيرة العربية يقول: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة) دون أن يعلم أحدٌ بالقصد من هذا الاجتماع، وسارت الأحوال في المدينة في مجراها الطبيعي، والمسلمون لا يعلمون بما بَيَّتَهُ رسول الله ﷺ؛ غير أن قريشاً وخصوصاً منها أبا سفيان، أخذتْ تفكر فيما سيكون من محمدٍ إزاء هذا الحادث، وقد ملأ الرعبُ قلبَ أبي سفيان، من جرَّاء ما رأت زوجته[3] هند في المنام؛ فخرج من مكة قاصداً المدينة، يتجسس الأخبار، ويريد تهدئة الحال.

---

(١) الأرجح (زوجي) بدون تاء. المحقق.

(٢) لعل الصواب (ماء) لا (ما). المحقق.

(٣) الأرجح (زوجه) بدون تاء. المحقق.

وما كاد يصلُ إلى عسفان، حتى رأى بُديل بن ورقاء وأصحابه هنالك، فأيقن بأنهم قد أوصلوا الخبر إلى رسول الله ﷺ، ولذلك فضَّلَ أن يقصدَ بيتَ ابنتهِ أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ، لعله يجد عندها نبأ عن الخبر[1]، أو لعلها تستطيع أن تسويَ الأمر مع الرسول ﷺ، فلما أقبل عليها بعد فراقٍ طويل، قابلته بالترحاب، ولكنها أبَتْ أن تجلسه على فراش النبي ﷺ قائلةً: إن هذا فراشُ طاهرٌ، وأنت يا أبتِ رجل مشرك نجس، فلا أحب أن تجلس عليه؛ فغضب أبوها من مقالها، وحسب هذا دليلاً على الشر، وقصد محمداً وتحدث معه في شأن العهد، فلم يذكر له الرسول ﷺ شيئاً عما كان من أمر خزاعة، فشعر بمدى تأثره من الأمر، ولكنه لم يجرؤ أن يفاتحه فيه؛ فذهب إلى كثير من الصحابة فلم يجد منهم غير الإعراض عنه، وعدم الاكتراث بما كان، ولم يعلم بشيءٍ عما قرَّرهُ الرسول ﷺ في الأمر؛ فما وسعه غير الرجوع إلى مكة، وأخبر القوم بأنه لا شيء يعكر الصفو، ولكنه ظل في خوفٍ ووجلٍ على نفسه، ولعله رأى من المصلحة أن يستحثّ العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ على السفر إلى المدينة، ليسترضيَ رسولَ الله ﷺ، وقد ترفق في ذلك، مع أنه كان يأبى أن يتركَ سقاية الحاج ورسول الله عنه راضٍ[2]، فخرج العباس مهاجراً بعياله قاصداً المدينة، وكانت المدينة إذ ذاك تضجّ بالمؤمنين الذين تجمعوا فيها، إجابةً لأمر رسول الله ﷺ؛ ولما تكامل جمعهم خرج بهم رسولُ الله ﷺ قاصداً مكة، في اليوم العاشر من رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة والموافق يناير سنة (٦٣٠)م، وكان عدد جيشه ما يقرب ثمانية آلاف من المهجرين والأنصار سار بهم وهو يقول: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتةً، ولا يسمعون بنا إلا فلتةً» وأمر ﷺ جماعةً أن تقيم بالأنقاب؛ وكان عمر رضي الله عنه يطوف على الأنقاب فيقول: لا تَدَعوا أحداً يمرُّ بكم تنكرونه إلا رددتموه وقيل: أمر بالطرق فحبست، فعمّى على أهل مكة لا يأتيهم خبرٌ.

---

(١) لو قال (لعله يجد عندها خبراً) لكان أوجه، تجنّباً للتكرار. المحقق.

(٢) (مع أنه كان يأبى) إلى قوله (عنه راض) هذه العبارة غير مفهومة. المحقق.

وفي هذه الأثناء، كتب حاطب بن أبي بلتعة البدري حليف بني أسد كتاباً إلى مكة يخبرهم بمسير النبي ﷺ وأرسله مع امرأة[1]، استأجرها بعشرة دنانير، وقال لها: أخفيه ما استطعت، ولا تمري على الطريق، فإنّ عليه حراساً، فجعلت الكتاب في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء، بما صنع حاطب، فبعث ﷺ عليَّ بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما، فقال: أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم، فخرجا حتى أدركاها بالخليقة، خليقة بني أبي أحمد، فاستنزلاها، فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً فقال لها علي بن أبي طالب: إني أحلف بالله ما كذب رسول ﷺ ولا كذبنا، ولتخرجنَّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنكِ، فلما رأت الجدَّ منه قالت: أعرضْ، فأعرض فحلَّتْ قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها، فرفعتْهُ إليه، فأتى به رسول الله ﷺ؛ فدعا رسولُ الله ﷺ حاطباً فقال: يا حاطب! ما حملكَ على هذا؟ فقال: يا رسول الله! أما والله! إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيَّرْتُ ولا بدلتُ، ولكني كنتُ أمرأ ليس لي في القوم من أصلٍ ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتُهم عليهم؛ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله! دعني أضربُ عنقه، فإن الرجل قد نافق، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك يا عمر؟ لعلَّ الله قد اطلع على أصحاب بدرٍ يوم بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم، فأنزل الله عز وجل في حاطب: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء...﴾[2] وقد جاء في كتاب حاطب: (من حاطب بني أبي بلتعه إلى سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهلٍ وصفوان بن أمية، أما بعد: يا معشر قريش! فإنّ رسول الله ﷺ جاءكم بجيش عظيم يسير كالسيل، فوالله! لو جاءكم وحده لنصره الله، وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم والسلام). وعلى كل حالٍ فإن في إرسال هذا الكتاب لقريش إفشاء لسرِ أمرٍ[3] رسول

(١) هي سارة وهي مولاة لبني عبد المطلب، وسيأتي ذكرها.

(٢) جزء من الآية رقم (١) من سورة الممتحنة. المحقق.

(٣) لو قال (لسر رسول الله) بدون كلمة (أمر) لكان أوجه. المحقق.

الله ﷺ، ولولا أن حاطباً كان من المجاهدين في غزوة بدرٍ لعاقبه رسول الله ﷺ. ثم مضى رسول الله ﷺ متوجهاً إلى مكة لتنفيذ خطته، وبينما هو في الطريق إذ التقى بعمه العباس بن عبد المطلب فسُرَّ به وأدناه منه، فلما أتوا (مرَّ الظهران) قال العباس: واصباح قريش! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يستأمنوه، إنه لهلاك لقريش إلى آخر الدهر، ولكنه لم يكاشف رسول الله ﷺ بشيء من أمر أبي سفيان، ثم انسلَّ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وخرج عليها حتى جاء الأراك ــ اسم محل ــ يريد أن يرسل أحداً إلى أبي سفيان يدعوه للحضور، لأخذ الأمان من رسول الله ﷺ ولكنه لم يعلم أن أبا سفيان لم يغمض له جفن من القلق بعد سفر العباس، حتى إنه أخذ حكيم بن حزام ابن أخي خديجة أعزَّ الناس عند رسول الله ﷺ، وبديل بن ورقاء رئيس بني خزاعة الذي أبلغ خبرهم لرسول الله ﷺ، وخرج بهما من مكة يستشفع بهما لدى رسول الله ﷺ؛ وقد جمدوا عندما رأوا نيران جيش رسول الله ﷺ موقدة[1]، وظلوا يتحدثون، وبينما هم كذلك إذا بالعباس يسمع حديثهم، ويعرف أبا سفيان من صوته، فيدعوه، وَيُسَرُّ أبو سفيان للقائه، ويستغني عن شفاعة من جاء بهما معه ويقول: ما الحيلة يا أبا الفضل؟ فقال العباس: والله! لئن ظفر بكَ ليضربَنَّ عنقك، ولكن اركَبْ في عجز هذه البغلة، حتى آتي بكَ رسول الله ﷺ فأستأمنه لكَ، فركب معه، ورجع صاحباه، حتى دخل إلى مخيم رسول الله ﷺ؛ فلما رآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، دخل على رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله! هذ أبو سفيان، قد أمكن الله منه بغير عقدٍ ولا عهدٍ، فدعني أضرب عنقه، فقال العباس: ولكني قد أجرتُه يا رسول الله! ثم أخذ العباسُ برأس النبي ﷺ وقال: والله! لا يناجيه الليلة دوني أحدٌ، وأسرَّ إليه بما أسرَّ إليه، ولعله أفضَى إليه بمخاوفه على مكة، من دخول جيش النبي ﷺ لها فاتحاً، واقترح عليه أن يتخذ من أبي سفيان وسيلةً لبثِّ الرعب في قلوب بني قومه من قريش حتى يسلموا له البلاد

---

(١) في الأصل (موقدة) بالرفع والصواب النصب. المحقق.

من غير حرب، وتظل مكة حراماً، كما كانت وكما يجب أن تكون، ولا بدَّ أن هذا الاقتراح، قد صادف هوًى في نفس رسول الله ﷺ، فتلك أقصَى أمانيه؛ ولذلك قال له عليه الصلاة والسلام: (اذهبْ به يا عباس! إلى رحلك، فإذا أصبحتَ فأتني به). فذهب به العباس إلى رحله، وبات عنده، فلما أصبح أحضرهُ إلى رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاَة والسلام: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمكَ وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنَى عني شيئاً بعد[1]، قال رسول الله ﷺ: ألم يأن لكَ أن تعلم أني رسول الله؟ قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمكَ وأكرمكَ وأوصلكَ! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً، وهنا تدخَّل العباس فقال: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فشهد شهادة الحق فأسلم، فقال العباس: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخر فاجعل له شيئاً، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه[2] بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فلما ذهب لينصرف أراد الرسول ﷺ أن يُشْعره بمبلغ قوته، ليعلم عن يقين مدى الخراب الذي سيحلّ بمكة إذا دخلها الرسولُ فاتحاً؛ فأمر ﷺ العباسَ أن يحبسه وكان يخبره بأسماء القبائل التي انضمت تحت لواء النبي ﷺ، حتى بلغت الدهشة من أبي سفيان غايتها، وقال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك محمدٍ الغداة عظيماً، فقال العباس: إنها النبوة يا أبا سفيان! قال أبو سفيان: نعم، قال العباس: النجاءَ إلى قومك ــ أسرع لإنجاء قومك ــ فأسرع أبو سفيان يستبق الريح إلى مكة ــ وهكذا تكون حرب الدعاية لخور الأعصاب ــ وصرخ أبو سفيان بأعلى صوته: يا معشر قريش! هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ، فقامَتْ زوجته هندُ بنتُ عتبة في وجهه تهزأ به فقال: ويلكم لا تغرنكم هذه،

---

(١) في الأصل (بعده) بزيادة هاء. المحقق.

(٢) لم يذكر في الأصل كلمة (عليه). المحقق.

فإنه والله! قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن. ومن دخل المسجدَ فهو آمنٌ، فتفرَّقَ الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

ولما وصل رسولُ الله ﷺ ذا طوى، ورأى ما أكرمه الله به من فتح مكة بغير إراقة دماء، طأطأ رأسه تواضعاً لله وهو يكثر من حمد ربه، وذكر آلائه، ثم أمر بتوزيع الجيش إلى أربع فرقٍ، وحظّر عليها أن تقاتل أحداً لا يقاتلها، ولا تسفك دماً إذا لم تُكرَهْ عليه، وجعل ﷺ الزبيرَ بن العوام على الجناح الأيسر من الجيش، وأمره بدخول مكة من شمالها، وجعل خالد بن الوليد على الجناح الأيمن وأمرهُ أن يدخل مكة من أسفلها، وجعل سعد بن عبادة على أهل المدينة وأمره أن يدخل مكة من جانبها الغربي، وجعل أبا عبيدة بن الجراح على المهاجرين وسار وإياهم ليدخلوا مكة من أعلاها، ثم اتصل بعلمه أن سعدَ بن عبادة يقول: (اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة) [1] فخاف ﷺ أن يدخلها متأثراً بهذه الفكرة، وقال لعلي بن أبي طالب [2]: أدركْهُ فخذ الرايةَ منه فكن أنتَ الذي تدخل بها؛ وقد دخلت جميع الجيوش بدون أدنى مقاومة، ما عدا جيش خالد بن الوليد حيث مرَّ عند دخوله من أسفل مكة بجماعة من بني بكر ومن ناصرهم في نقض عهد الحديبية بالغارة على خزاعة، فخافوا على أنفسهم، ولم يطمئنُّوا إلى أمن رسول الله ﷺ، فأبدوا بعضَ المقاومة حتى قُتل بعضُهم، وفرَّ آخرون يريدون ركوب البحر؛ ونزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة، حيث ضُربت له هنالك قبة للاستراحة بها، وظل فيها وهو يحمد الله ويشكره على ما أولاهُ؛ واتصل به مطاردة خالد بن الوليد لمن هاجمه، فأسف وصاح مغضباً يذكر بأمره السابق أن لا يكون قتال، ولما علم بأنهم هُم البادئون قال ﷺ: إن الخير ما اختاره الله.

(١) في الأصل (المحرمة) والتصحيح من سيرة ابن هشام. المحقق.

(٢) (وقال لعلي بن أبي طالب الخ) هكذا جاء في سيرة ابن هشام. ولكن رأيت في طبقات ابن سعد ما نصه (فأخذها) أي (الراية) (أخذها منه ﷺ فدفعها إلى ابنه (قيس بن سعد). المحقق.

دخول مكة:

قلت نزل ﷺ في قبة خاصة له للاستراحة فيها، بأعلى مكة قُبال جبل هندٍ وهنالك ضربت القبة على مقربة من قبري أبي طالب وخديجة رضي الله عنها، وسئل عليه الصلاة والسلام هل يريد أن يستريح في بيته؟ فأجاب: لا فما تركوا لي بمكة بيتاً، ودخل القبة يستريح وقلبُه مفعمٌ بشكر الله أن عاد به عزيزاً منتصراً إلى البلد الذي آذاه وعذَّبَهُ وأخرجه من بين أهله وديارِه، وأجال بصرَهُ في الوادي، وفي الجبال المحيطة به، في هذه الجبال التي كان يأوي إلى شعابها حين يشتدُّ به أذى قريشٍ وتشتدُّ به قطيعتها، في هذه الجبال وبينها حراء حيث كان يتحنَّثُ حتى نزل عليه الوحي أن ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرمُ، الذي عَلَّمَ بالقلم علَّم الإنسانَ ما لم يعلم[1]﴾

أجال بصرَهُ ﷺ في هذه الجبال، وفي الوادي مبعثرةً منازلُ مكةَ فيه، يتوسطها البيتُ الحرام بكعبته البهية فبلغ من خضوعهِ لله عز وجل أن ترقرقتْ في عينيه دمعةُ إسلامٍ وشكرٍ للحق جلا وعلا، لا حقَّ إلا هو، إليه يرجعُ الأمر كله فاطر السموات والأرض؛ وشعر ساعتئذٍ أن مهمة القائد قد انتهت، فلم يُقِمْ بالقبة طويلاً؛ بل خرج صلى الله عليه وسلم، وامتطى ناقته القصواء، وسار بها حتى بلغ الكعبة، فطاف بالبيت سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن[2] في يده، فلما قضَى طوافه، دعا عثمانَ بن طلحة العبدري ففتح الكعبة، فوقف الرسول ﷺ على بابها، وتكاثر الناسُ في المسجد، فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليمٌ خبيرٌ﴾[3] ثم سألهم: «يا معشر قريش! ما ترون أني فاعلٌ بكم؟

قالوا: خيراً، أخٌ كريمٌ، وابن أخٍ كريم.

---

(١) سورة العلق الآيات (١-٥).

(٢) المحجن: عصا منعطفة الرأس.

(٣) من سورة الحجرات آية (١٣).

قال: فاذهبوا فأنتُمُ الطلقاء».

وبهذه الكلمة صدر العفوُ[1] العام عن قريش وعن أهل مكة جميعاً؛ ما أجل العفوَ عند المقدرة! ما أعظم هذه النفس الزكية! التي سمتْ كل السموّ، فارتفعتْ فوق الحقد، وفوق الانتقام، وأنكرت كل عاطفة دنيا، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان؛ هؤلاء قريش يعرف رسول الله ﷺ من ائتمروا به ليقتلوه، ومن عذَّبُوهُ وعذَّبُوا أصحابه من قبل ذلك، ومن قاتلوه في بدرٍ وفي أحدٍ، ومن حصروه في غزوة الخندق، ومن ألَّبُوا عليه العرب جميعاً، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إرباً إرباً لما ونَوْا في ذلك لحظة... هؤلاء قريش في قبضة الرسول الصادق الأمين وتحت قدميه، أمرُه نافذٌ في رقابهم، وحياتهم جميعاً معلقة بين شفتيه، وفي سلطانه هذه الألوف المدججة بالسلاح، تستطيعُ أن تُبيدَ مكة وأهلها في رجع البصر؛ لكن النبي الرحيم، والرسول الكريم ليس بالرجل الذي يعرف العداوة، أو يريد بها أن تقومَ بينَ الناسِ، وليس هو بالجبار ولا بالمتكبر، لقد أمكنه الله من عدوِّه، فقدر فعفا؛ فضرب للعالم كله، ولأجياله جميعاً، مثلاً في البرِّ والوفاء بالعهد، وفي سمو النفسِ سموّاً لا يبلغه أحدٌ.

ولما دخل رسولُ الله ﷺ الكعبة البهية، فرأى جدرانها صُوِّرَتْ عليها الملائكة والنبيُّون، ورأى ابراهيمَ مصوَّراً في يده الأزلام[2] يستقسم بها، ورأى تمثال حمامة من عيدان فكسرها بيده، وألقاها إلى الأرض. أما صورة إبراهيم فنظر إليها ملياً ثم قال: قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شأن إبراهيم والأزلام؟ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن

(١) في الأصل (العفو) بفتح الواو والصواب ضمها لأنه فاعل مرفوع. المحقق

(٢) الأزلام: جمع مفردة زَلَم: هي القداح التي كانت في الجاهلية مكتوب عليها الأمر والنهي، افعل ولا تفعل، كان الرجلُ منهم يضعها في وعاء ــ كيس ــ فإذا أراد سفراً أو زواجاً أو أمراً من أموره مهمّا أدخل يده في الوعاء بعد إجالتها فيه، وتحريكها فأخرج منها زلماً، فإن خرج الأمر مضى لشأنه، وإن خرج النهي كف عما اعتزم ولم يفعله، والاستقسام بها معرفة قسم الإنسان أي حظه ونصيبه.

كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. أما الملائكة الذين صُوِّروا نساءً ذوات جمال، فقد أنكر الرسول ﷺ صورهم، لأن الملائكة ليسوا ذكوراً ولا إناثاً؛ ثم أمر ﷺ بتلك الصور كلها فَطُمِسَتْ؛ وكانت حول الكعبة الأصنام التي كانت تعبدها قريشٌ من دون الله، قد شُدَّت إلى جُدرها بالرصاص كما كان (هُبَل) في داخل الكعبة؛ فجعل صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام يشير إلى هذه الأصنام جميعاً بقضيب في يده وهو يقول: ﴿وقل جاء الحقُّ وزهق الباطل، إن الباطلَ كان زهوقاً﴾[1] وكُبَّتِ الأصنامُ على وجوهها وظهورها، وطُهِّرَ البيتُ الحرامُ بذلك منها، وأتمَّ الرسولُ ﷺ عملية التطهير هذه في أول يوم لفتح مكة منذ ما دعا إليه من عشرين سنة، وما حاربته مكة أشد الحرب فيه، أتمَّ تحطيم الأصنام، والقضاء على الوثنية في البيت الحرام بمشهدٍ من قريش، ترى أصنامها التي كانت تعبد، لا تملك لنفسِها نفعاً ولا ضرّاً.

ورأى الأنصارُ من أهل المدينة، مشهد التطهير هذه كله، ورأوا رسول الله ﷺ يقوم على الصفا ويدعو، فخيّل إليهم أنه تاركٌ المدينة إلى وطنه الأول، وقد فتحه الله عليه، وقال بعضُهم لبعضٍ: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضَه وبلدَه يقيم بها؟ ولعلهم كانوا على حقٍّ في مخاوفهم؛ فهذا رسول الله، وبمكة البيت الحرام بيت الله؛ لكن الرسولَ ﷺ ما لبث حين أتم دعاءه، وأتم سعيه بين الصفا والمروة أن سألهم: ما قالوا؟ فَلمّا عرف بعد تردد منهم مخافتهم قال لهم: «معاذَ اللهِ، المحيا مَحْيَاكُمْ، والممات مماتكم».

فقد ضرب ﷺ بذلك للناس مثلاً أعلى في البرّ بعهدِهِ في بيعة العقبة، وفي الوفاء لأنصاره، الذينَ وقفوا ساعةَ الشدة إلى جانبه، برّاً ووفاءً، لا ينسيها وطنٌ ولا أهلٌ ولا تُنسيها مكة البلدُ الحرام.

ولما أن طهّرتِ الكعبةُ من أصنامها وأوثانها، أمر النبي ﷺ بلالاً

---

(١) من سورة الإسراء آية (٨١).

فأذّنَ فوقَها، وصلّى الناسُ بإمامة [1] رسولهم وقائدهم محمدٍ ﷺ، ومن يومئذ إلى يومنا الحاضر منذ أربعة عشر [2] قرناً مضت لا تنقطع هذه الصلاة، وخلفاء بلال من بعده ينادون بالأذان: الله أكبر... حي على الصلاة... حي على الفلاح... كل يوم خمس مرات من فوق مسجد مكة والحمد لله رب العالمين.

وأذعنَتْ قريش لما حلَّ بها، واطمأنت لعفو النبي ﷺ عما اقترفته، وما وجهته لرسول الله، وأقامت تنظر إليه وإلى المسلمين من حوله بعيونٍ كلها دهش وإعجاب يمازجها الخوف والحذر، لكنه ﷺ كان قد اصدر أمره بالعفو عن أهل مكة وقد استثنى أناساً من الدخول في هذا الأمان والعفو، وأمر بقتلهم وهم خمسة عشر ما بين رجلٍ وامرأة لجرائم خاصة بهم، وهذه أسماؤهم:

١ ــ عبد الله بن أبي سرح بن الحارث العامري.
٢ ــ عبد الله بن خطل.
٣ ــ عكرمة بن أبي جهل.
٤ ــ الحويرث بن نُقيد.
٥ ــ مقيس بن صبابة.
٦ ــ هبار بن الأسود بن المطلب.
٧ ــ كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر.
٨ ــ الحارث بن هشام المخزومي وهو أخو أبي جهل لأبويه.
٩ ــ زهير بن أمية المخزومي أخو أم سلمة.
١٠ ــ صفوان بن أمية بن خلف الجمحي.
١١ ــ وحشي بن حرب قاتل حمزة عم النبي ﷺ.

هؤلاء هم الرجال، وأما النساء: فهنَّ:

---

(١) في الأصل (بإمة) بدل (بإمامة). المحقق.
(٢) في الأصل (عشرين) بدل (أربعة عشر). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

١٢و١٣ ــ قينتانِ كانتا عند عبد الله بن خطل تغنيان بهجاء الرسول والمسلمين.

١٤ ــ سارة مولاة لبني المطلب بن عبد مناف.

١٥ ــ هند بنت عتبة زوج أبي سفيان أم معاوية [١].

وأكثر هؤلاء أسلموا، وفيما يلي ذكر سبب إهدار دمهم.

١ ــ (أما عبد الله بن أبي سرح) فإنه كان أسلم، ثم ارتدَّ بعد إسلامه ولحق بمكة، وصار يتكلم بكلامٍ قبيح في حق النبي ﷺ، فأهدر ﷺ دمه يوم الفتح، فلما علم بإهدار دمه لجأ إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان أخاً له من الرضاع فقال: يا أخي! استأمن لي رسول الله ﷺ قبل أن يضرب عنقي، فغيَّبه عثمان رضي الله عنه، حتى هدأ الناسُ واطمأنوا ثم أتى به إلى رسول الله ﷺ وصار يقول عثمان: يا رسول الله! أَمَّنْتُه، فبايعْهُ، والنبي ﷺ يعرضُ عنه مراراً، ثم قال: نعم فبسطَ يدَهُ فبايعه وأسلم وحسن إسلامه.

٢ ــ وأما (عبد الله بن خطل) فإنه كان ممن قدم المدينة قبل الفتح وأسلم، وكان اسمه عبد العزّى، فسماه النبي ﷺ عبد الله وبعثه لأخذ الصدقة، وأرسل معه رجلاً من الأنصار يخدمه وكان مسلماً، فنزل منزلاً وأمره[٢] أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً، ونام، ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئاً وهو نائم، فعدا عليه فقتله، ثم ارتدَّ مشركاً، وكان شاعراً فجعل يهجو النبي ﷺ في شعره، وكان له قينتان ــ مغنيتان ــ تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ؛ فلما كان يوم الفتح (فتح مكة) ركب فرسه ولبس درعه وأخذ بيده قناة، وصار يقسم لا يدخلها محمد عنوة، فلما رأى خيل المسلمين خاف وذهب إلى الكعبة، وألقى سلاحه وتعلق بأستارها، فوجده رسول الله ﷺ عند طوافه وهو بهذه الحال، فقال: اقتلوه، فإن الكعبة لا تعيذُ عاصياً، ولا تمنع من إقامة حدٍّ واجبٍ، فقُتل.

---

(١) (انظر كتاب محمد رسول الله) ص٤٢٧.

(٢) في الأصل (وأمر) بدون هاء. المحقق.

٣ و ٤ ــ وأما القينتان: واسمهما فرتنا وقريبة، فقُتلتْ قريبة، واستؤمنَ رسولُ الله ﷺ لفرتنا فأمَّنَهَا فأسلمتْ وعاشت إلى خلافة عثمان رضي الله عنه.

٥ ــ وأما (عكرمة بن أبي جهل) فقد[١] أمر رسول الله ﷺ بقتله، لأنه كان من أشد الناس على رسول الله ﷺ وكان أشدَّ الناس على المسلمين، ولما بلغه أن النبي ﷺ أهدر دمه، هرب ليلقي نفسَهُ في بئر أو يموت تائهاً في البلاد، أو كما أقول: لقد هرب لينتحرَ غرقاً أو جوعاً.

وكانت امرأتهُ أم حكيم رضي الله عنها بنت عمه الحارث بن هشام رضي الله عنه، أسلمت قبله، فاستأذنَتْ له رسول الله ﷺ فأمَّنَهُ ﷺ قائلاً: هو آمن؛ فخرجَتْ في طلبه فأدركته فرجع معها، وأسلم أمام رسول الله ﷺ، وكان بعد ذلك من فضلاء الصحابة المجاهدين وخالد بن الوليد رضي الله عنه ابن عمه.

٦ ــ وأما (الحويرث بن نُقيد): فقد[٢] أهدر دمه رسول الله ﷺ لأنه كان يعظم القول فيه ﷺ، وينشد الهجاء فيه، ويكثر أذاه وهو بمكة، وكان قد شارك هبَّار بن الأسود في نخس جمل زينب رسول الله ﷺ لما هاجرت من مكة، فقتله سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٧ ــ وأما (مقيس بن صبابة): كان قد أسلم، ثم أتى على أنصاري فقتله، وكان الأنصاري قتل أخاه هشام بن صبابة خطأً في غزوة (ذي قَرد) ظنه من العدو، فجاء مقيس فأخذ الدية، ثم قتل الأنصاري، ثم ارتدَّ، ورجع إلى قريش، فأهدر رسول الله ﷺ دمه، فقتله نُميلة بن عبد الله الليثي، رجل من قومه.

٨ ــ أما (هبَّار بن الأسود) فكان[٣] شديد الأذى للمسلمين، وكان قد عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بها الجمل فسقطتْ على صخرة، وأسقطت، جنينها، ولم تزل مريضة حتى ماتت، واشترك معه في

(١) لم يذكر في الأصل كلمة (فقد). المحقق.
(٢) لم يذكر في الأصل كلمة (فقد). المحقق.
(٣) في الأصل (كان) بدون فاء. المحقق.

النخسِ الحويرثُ بن نُقيد الذي مر ذكره، وأهدر ﷺ دم هبَّار بن الأسود يوم الفتح فهرب واختفى، ثم جاء النبي ﷺ واعترف بذنبه وأسلم، فَعَفَا عنه، ومنع المسلمين من سبِّه مع أنه كان سبباً في وفاة ابنته زينب رضي الله عنها.

٩ ــ أما (كعب بن زهير) فكان[1] شاعراً، وكان يهجو النبيَّ ﷺ بشعره، وكان يعيِّر أخاه بجيراً لإسلامه، فأهدر الرسول ﷺ دمه؛ فلما بلغه أنه ﷺ أمر بقتله، خاف وخرج حتى قدم المدينة، بعد رجوع النبي ﷺ من فتح مكة، وأسلم أمامه، وأنشد قصيدته المعروفة التي أولها:

بانَتْ سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ ... متيمٌ إثرها لم يُفْدَ مكبولُ

إلى أن قال فيها:

تسعى الوشاة جنابيها وقولهم ... إنك يا ابن أبي سلمى لمقتولُ
وقال كلُّ خليلٍ كنتُ آملَهُ ... لا ألهينَّك إني عنكَ مشغولُ
فقلتُ خلُّوا سبيلي لا أبا لكمُ ... فكلُّ ما قدَّرَ الرحمنُ مفعولُ
كل ابن أنثَى وإن طالتْ سلامتُه ... يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ
أنبئتُ أن رسولَ الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمولُ
مهلاً هداكَ الذي أعطاكَ نا ... فلةَ القرآن فيها مواعيظٌ وتفصيلُ
لا تأخذنيّ بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وإن كثرتْ فيَّ الأقاويلُ
لقد أقومُ مقاماً أو يقومُ به ... أرى وأسمعُ ما لو يسمع الفيلُ
لظلَّ يرعد إلا أن يكونَ له ... من الرسول بإذنِ اللهِ تنويلُ
حتى وضعتُ يميني لا أنازعه ... في كفِّ ذي نقمات قيله القيلُ
لذاك أهيَبُ عندي إذ أكلّمه ... وقيل إنك منسوبٌ ومسئولُ

إلى أن قال فيها:

إن الرسولَ لسيف يستضاء به ... مُهنَّدٌ من سيوف الله مسلولُ
في فتيةٍ من قريشٍ قال قائلهم ... ببطنِ مكة لما أسلموا زولوا

---

(١) في الأصل (كان) بدون فاء. المحقق.

فلما سمع رسول الله ﷺ منه ذلك وخاصة عند قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به... رمى إليه بردةً كانت عليه. وإن معاوية بن أبي سفيان في زمن خلافته، بذل له فيها عشرة آلاف درهم فقال كعبٌ: ما كنتُ لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحداً؛ فلما مات كعبٌ، بعث معاوية بن أبي سفيان إلى ورثته عشرين ألفاً وأخذها منهم[1]، وهي البردة التي كانت عند السلاطين، وكان الخلفاء يلبسونها في الأعياد، وقيل: إنها فقدت في وقعة التتار[2].

وقد كان كعب بن زهير من فحول الشعراء، وكذا زهير أبوه وأخوه بجير وابنه عقبة بن كعب وابن ابنه العوام بن عقبة.

١٠ ــ وأما (الحارث بن هشام): فكان[3] شديداً على النبي ﷺ وعلى المسلمين، وابنه عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فأهدر دمه.

١١ ــ وأما (زهير بن أبي أمية): فكان[4] شديداً في كفره كالحارث بن هشام فأهدر رسول الله ﷺ دمه كالحارث يوم الفتح فهربا واحتبآ في بيت أم هانىء بنت أبي طالب فأجارتهما، فأجاز رسول الله ﷺ جوارها، ثم جاءت بهما، فأسلما، وحسن إسلامهما.

١٢ ــ وأما (صفوان بن أمية) فكان[5] من أشد الناس عداوة وأذيَّةً لرسول الله ﷺ والمسلمين، فأهدر دمه رسول الله ﷺ فاختفى، وأراد أن يلقي نفسَهُ في البحر، فجاء ابن عمه، عميرُ بن وهب الجمحي رضي الله عنه وقال: يا نبيَّ الله! إن صفوان سيد قومه، وقد هرب

---

(١) انظر حاشية العلامة إبراهيم الباجوري على شرح قصيدة بَانت سعاد للعلامة عبدالله بن هشام الأنصاري ص٩٦.

(٢) انظر كتاب محمد رسول الله ص٤٢٩.

(٣) في الأصل (كان) بدون فاء. المحقق.

(٤) في الأصل (كان) بدون فاء. المحقق.

(٥) في الأصل (كان) بدون فاء. المحقق.

ليقذف نفسَهُ في البحر، **فأمَّنَهُ فإنك أمَّنْتَ الأحمرَ والأسود**، فقال رسول الله ﷺ : أدركْ ابنَ عمك **فهو آمنٌ، فقال: أعطني آيةً** يعرفُ بها أمانَكَ، فإني قد طلبتُ منه العودَ **فقال صفوان: لا أعود** معكَ إلا أن تأتيني بعلامة أعرفُها، فأعطاهُ ﷺ **عمامته التي دخل بها** مكة، فلحقه بها، وهو يريد ركوب البحر، فقال له **صفوان: اغرب عني لا تكلمني**، فقال: فداكَ أبي وأمي: جئتُكَ من عند **أفضل الناس، وأبرّ** الناس، وأحلم الناس، وخير الناس وهو ابن عمك، عزه **عزك وشرفه شرفك وملكه** ملكك، قال: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك، وأكرم، وأراه العمامة التي جاء بها؛ فرجع معه حتى وقف على رسول الله ﷺ **فقال صفوان**: إن هذا يزعم أنك أمنتني، قال ﷺ : صدق، **فقال: أمهلني** بالخيار شهرين، فقال ﷺ : أنت بالخيار أربعة أشهر؛ ولما أراد ﷺ **الخروج** إلى حرب هوازن استقرض منه أربعين ألف درهم وطلب منه دروعاً كانت عنده، فقال: أغصباً يا محمد؟ قال: لا ولكن عارية مرجوعة أو مضمونة؛ ثم خرج مع النبي ﷺ حين خرج لحرب هوازن، وهو على شركه؛ فلما قسم رسول الله ﷺ غنائم هوازن بحنين أعطاه مائةً من الإبل، ثم مائة، ثم مائة، ثم رآه ﷺ يرمق شِعْباً مملوءاً نعماً وشاء، فقال له ﷺ : «يعجبك هذا؟ قال: نعم، قال هو لك وما فيه» فقبض صفوان ما في الشعب وقال: إن الملوك لا تطيب نفوسُها بمثل هذا، ما طابَتْ نفسُ أحدٍ قط بمثل هذا إلا نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله فأسلم، وحسن إسلامه وترك المدةَ التي كان طلبها[1].

١٣ ــ وأما (وحشي بن حرب) فقد أهدر الرسول ﷺ دمه لأنه قتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فلما فُتحتْ مكة هرب إلى الطائف، ولما خرج وفدُ الطائف ليسلموا ضاقت عليه السبل، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ وشهد شهادة الحق؛ ثم خرج وحشي مع من خرج لقتال أهل الردة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقتل وحشي

---

(١) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٤٣٠.

مسيلمةَ الكذّابَ بحربته التي قتل بها حمزة رضي الله عنه، فكان وحشي يقول: أرجو أن تكون هذه بتلكَ ــ أي إن هذه تفكُّ تلك ــ.

١٤-١٥ ــ أما القينتان فقد مرّ ذكرهما.

١٦ ــ وأما (سارة) مولاة بني المطلب، فقد أهدر دمها رسول الله ﷺ، لأنها كانت مغنية بمكة تغنّي بهجاء النبي ﷺ، وقيل: هي التي كانت معها كتاب حاطب بن أبي بلتعة ــ وقد تقدَّم ذكر ذلك ــ وكانت قدمت المدينة تشكو الحاجة، وتطلب الصلة، فقال لها رسول الله ﷺ: ما كان في غنائكِ ما يغنيكِ؟ فقالت: إن قريشاً منذ قُتل من قُتل منهم في بدر، تركوا الغناء، فوصلها وأوقر لها بعيراً طعاماً، فرجعت مكة، وكان ابن خطل يلقي إليها هجاء رسول الله ﷺ فتغنّي به، وقد اختفت عند فتح مكة ثم استؤمن لها رسول الله، فجاءته وأسلمتْ وحسنَ إسلامها.

١٧ ــ وأما (هند بنت عتبة) زوج أبي سفيان وأم ابنه معاوية فقد[1] أهدر دمها رسول الله ﷺ، لأنها مَثَّلَتْ بعمه حمزة رضي الله عنه يوم أحدٍ؛ فلما كان يوم الفتح، اختفتْ في بيت أبي سفيان زوجها، ثم أسلمتْ، وقيل: إن بين إسلامها وإسلام زوجها ليلة واحدة، وكانت هند امرأة ذات أنفةٍ وعقل، حضرت قتال الروم يوم اليرموك مع أبي سفيان وكانت تشجع المسلمين وتحرضهم على القتال، مع بقية النسوة اللاتي كنَّ معها.

من هذا يتبين أنَّ عدد الذين قُتلوا ونُفّذ حكم الإعدام فيهم وهدر[2] دمهم ثلاثة رجال وامرأة واحدة، وأما الباقي فقد أسلموا وحسن إسلامهم، والإسلام يجبّ ما قبله.

وكان قد اختفى عتبة ومعتب ابنا أبي لهب، ثم أسلما، واختفى أيضاً سهيل

---

(١) لم يذكر في الأصل كلمة (فقد). المحقق.

(٢) الصواب (وأهدر). المحقق.

بن عمرو، وكان ابنه مسلماً، ثم أسلم بالجعرانة[1]. وجاء في كتاب تاريخ الأمم الإسلامية[2]: (وأمر حين دخوله مكة بقتل أفراد، ذوي جرائم خاصة بهم، فقتل أكثرهم). وهذا ليس بصحيح، إن الذين قتلوا هم الأقلون لا الأكثرون كما شرحته لك سابقاً؛ وقد ضربت لرسول الله ﷺ قبة من أدم بالحجون، فمضى الزبيرُ بن العوام برايته حتى ركزها عند قبة رسول الله ﷺ، وجاء رسول الله فدخلها، فقيل له: ألا تنزل منزلك ــ أي بيتك ــ؟ فقال: وهل ترك عقيلٌ لنا منزلاً. وأقام النبيُّ ﷺ بمكة خمسة عشر يوماً[3]، نظّم خلالها شئون مكة الإدارية والاجتماعية، وفقّهُ أهلها في الدين وأُرسل قسمٌ من مفارز الجيش للدعوة إلى الإسلام، ولتحطيم الأصنام خارج مكة، من غير سفك للدماء.

وكانت خسائر المسلمين شهيدين فقط هما كرز بن جابر من بني محارب بن فهر، والثاني خُنيس بن خالد بن ربيعة الخزاعي حليف بني منقذ.

وكانت خسائر المشركين ثلاثة عشر قتيلاً، وبعض الجرحى[4].

٣٣١ ــ البيعة العامة لرسول الله ﷺ على الصفا

اجتمع الناسُ بمكة لبيعة رسول الله ﷺ، فجلس لهم على الصفا، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه تحت رسول الله ﷺ أسفل من مجلسه، يأخذ على الناس، فبايع رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا؛ وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله من الناس على الإسلام؛ فلما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال، بايع النساء، واجتمع إليه نساء من نساء قريش، فيهنَّ هند بنت عتبة منقَّبة متنكرة

---

(١) الجعرانة: هي ماء بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب.

(٢) للمرحوم العلامة الشيخ محمد خضري ص١٨٧.

(٣) وقيل: ثمانية عشر يوماً كما اعتمده البخاري في صحيحه. يقصر الصلاة في مدة إقامته بمكة.

(٤) انظر كتاب (قادة الفتح الإسلامي ــ الرسول القائد ص ٣٤١.

لحدثها وما كان من صنيعها بحمزة رضي الله عنه، فهي تخاف أن يأخذها رسولُ الله ﷺ بحدثها، فلما دَنَوْنَ منه ليبايعْنَهُ، قال رسول الله ﷺ: تبايعني على أن لا تشركنَ بالله شيئاً، فقالت هند: والله! إنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال وسنؤتيكه، قال: ولا تسرقنَ، قالت هند: والله! إني كنتُ لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة وما أدري أكان ذلك حلالاً أم لا؟ فقال أبو سفيان ــ وكان شاهداً لما تقول ــ أما ما أصبتِ فيما مضَى، فأنتِ منه في حلٍّ، فقال رسول الله ﷺ: وإنكِ لهند بنت عتبة؟ فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعفُ عما سلف عفا الله عنكَ، قال: ولا تزنينَ. قالت هند: يا رسول الله هل تزني الحرة؟ قال: ولا تقتلنَ أولادكنَّ؟ قالتْ هند: قد ربيناهم صغاراً، وقتلتهم يوم بدرٍ كباراً، فأنت وهم أعلم، فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب، ثم قال رسول الله ﷺ: ولا تأتينَ ببهتانٍ تفترينه بين أيديكنَّ وأرجلكنَّ، قالت هند: والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل، قال عليه الصلاة والسلام: ولا تعصينني في معروف، قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك [1] في معروف. فقال رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه: بايعهنَّ، واستغفر لهنَّ رسول الله ﷺ وكان النبيُّ ﷺ لا يصافح النساء، ولا يمسُّ امرأة ولا تمسه إلا امرأة أحلَّها الله له، أو من [2] ذاتِ محرم منه.

هذا وقد ذهب الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما إلى أن رسول الله ﷺ دخل مكة وملكها صلحاً، ويرى أبو حنيفة والأكثرون أنه فتحها عنوة [3].

٣٣٢ ــ سرايا الدعوة إلى التوحيد

هذه السرايا شاملة لدعوة القبائل العربية المحيطة بمكة، إلى الإسلام،

---

(١) في الأصل (نعصينك) وهو خطأ. والصواب ما أثبتنا. المحقق.

(٢) لو حذف كلمة (من) لكان أفضل. المحقق.

(٣) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٤٣٤.

ولتحطيم الأصنام والأوثان خارج مكة المكرمة. لقد أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها وبدا[1] يفكر في تحقيق هدفين أساسيين بعد أن طهر مكة من أوثانها والكعبة من أصنامها. والشعب من خرافات الشكوك والأوهام. أخذ في تحقيق الدعوة أولاً بدعوى القبائل، ثانياً في تحطيم ما تبقى من الأصنام، لذا أرسل بعض السرايا إلى القبائل لتحقيق مغزى ما ذكرته من تحقيق الهدفين.

٣٣٣ ـ سرية خالد بن الوليد إلى تحطيم العزّى[2]

بعث النبي ﷺ خالدَ بن الوليد رضي الله عنه لخمس بقين من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة، بعد خمسة أيام من فتح مكة لهدم العزّى في ثلاثين فارساً من أصحابه، فلما سمع سادنها ـ وكانت العزّى بنخلة على بعد ليلة من مكة ـ خلا سبيله، فهدمها خالدٌ رضي الله عنه، ثم خرج إليهم[3] فلما رآه القومُ أخذُوا السلاحَ، فطلب إليهم خالد أن يضعوه، فإن الناس قد أسلموا، قال رجلٌ من جَذيمةَ لقومه: ويلكم يا بني جَذيمةَ إنه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار، إلا ضرب الأعناق، قال له قومه: أتريد أن تسفكَ دماءنا؟ إنّ الناس قد أسلموا، ووُضِعَتِ الحربُ وأمنَ الناس؛ وما زالوا به حتى وضع سلاحه؛ عند ذلك أمر بهم خالدٌ فغُلُّوا ثم عرضهم على السيف، فقتل من قتل منهم؛ فلما انتهى الخبرُ إلى النبي ﷺ، رفع يديهِ إلى السماء وقال: «اللهمَّ! إني أبرأ إليكَ مما صنع خالدُ بنُ الوليد» ثم بعث إليهم عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه وقال له: اخرجْ إلى هؤلاء القوم فانظرْ في أمرهم، واجعلْ أمرَ الجاهلية تحت قدميكَ؛ وخرج عليٌّ ومعه مالٌ كثيرٌ أعطاه النبي ﷺ إياه، فلما بلغ القومَ دفع الديةَ عن الدماء، وعما

---

(١) في الأصل (بدأ) بدون واو قبلها. المحقق.

(٢) العزّى: أعظم الأصنام عند قريش وبني كنانة وكان سدنتها بنوشيبان من سليم حلفاء بني هاشم وكانت العرب وقريش تسمي بها (عبد العزى) عن تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٣٤٠.

(٣) في الأصل (إلى) بدون (إليهم). المحقق.

أصيب من الأموال، حتى إذا لم يبق شيء من دمٍ أو مالٍ إلا وداهُ، أعطاهم بقية المال الذي بعث به رسول الله ﷺ احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم [1].

٣٣٤ ــ سرية عمرو بن العاص إلى صنم سُواع

بعث رسولُ الله ﷺ عمرو بن العاص إلى تحطيم صنم (سُواع) وهو لهذيل، على ثلاثة أميالٍ من مكة، وكانت سدنته من بني لحيان، وذلك في شهر رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة بعد فتح مكة.

قال عمرو بن العاص: فانتهيتُ إليه وعنده سادن، فقال ما تريد؟ قلتُ: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه فقال السادنُ ــ أي خادم الصنم ــ: لا تقدر على ذلك، فقلتُ: لِمَ؟ فقال: تُمنع، فقلتُ: حتى الآنَ أنتَ في الباطل؟ ويحكَ وهل يسمعُ أو يبصر؟ فدنوتُ منه فكسرتُه وأمرتُ أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا فيه شيئاً، ثم قلت للسادن: كيف رأيتَ؟ قال: أسلمتُ لله) [2].

٣٣٥ ــ سرية سعد بن زيد الأشهلي لتحطيم مَناة

«مناة» اسم صنم للأوس والخزرج وغسـ ـ، وكانتْ [3] مناة بالمشلَّل ــ وهو جبلٌ على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد ــ ومَناة من أقدم الأصنام، وكانت العرب تسمي عبد مناة كما كانوا يسمون عبد العزى. وكان العرب يحجُّون إليها، ولم يكن أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج. بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري الأشهلي إلى مَناة، ليهدمها وذلك لستٍّ بقينَ من شهر رمضان؛ فخرج في عشرين فارساً، حتى انتهى إليها وعليها سادن ــ أي

(١) انظر كتاب (حياة محمد) للعلامة محمد حسين هيكل ص ٤١٣.
(٢) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٤٣٨ وكتاب (الرسول القائد) ص ٣٤٤ وصنم سواع كان بأرض الينبع عن كتاب (الأصنام) للكلبي ص ٩.
(٣) في الأصل (وكامناة). المحقق.

خادم ــ فقال السادنُ: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنتَ وذاكَ، فأقبل سعدٌ يمشي إليها، فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ناثرة الرأس تدعو بالويل وتضربُ صَدْرَها، فقال السادنُ: مَناة دونكِ بعض غضباتك، فضربها سعدٌ فقتلها، وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدموهُ ولم يجدُوا في خزانتها شيئاً[1].

٣٣٦ ــ سرية خالد بن الوليد إلى بني جَذيمة من كنانة

بعث رسول الله ﷺ في شهر شوال سنة ثمان من الهجرة إلى بني جَذيمة من كنانة[2]؛ وكانوا بأسفل مكة على ناحية يَلَمْلَمَ، وهو يوم الغميصاء، داعياً إلى الإسلام كما بعثه لهدم العزَّى، ولم يبعثه مقاتلاً[3] غازياً؛ فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلاً، من المهاجرين والأنصار، وبني سليم.

فانتهى إليهم خالد فقال: من أنتم؟ قالوا: مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمدٍ، وبنينا المساجد في ساحاتنا وأذَّنَّا فيها، قال: فما بال السلاح عليكم؟ فقالوا: إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة، فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح، قال: فضعوا السلاح، فوضعوهُ فقال لهم: استأسرُوا؛ فاستأسر القوم، فأمر بعضهم فكتّف بعضاً وفرقهم في أصحابه فلما كان في السحر نادى خالدٌ: من كان معه أسيرٌ فليجهز عليه بالسيف ــ أي يقتله ــ فأما بنو سليم فقتلوا من كان في أيديهم، وأما المهاجرون الأنصار فأرسلوا أساراهم، فبلغ النبي ﷺ ما صنع خالد فرفع يديه فقال: «اللهم! إني أبرأ إليك مما صنع خالد» وبعث

---

(١) هذا ما ذهب إليه في المواهب اللدنية تبعاً لطبقات ابن سعد الكبرى أما في سيرة ابن هشام ج ٤-ص ٥٣ أن الذي ذهب لهدم مناة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وانظر كتاب محمد رسول الله ص ٤٣٩.

(٢) لقد ساق المؤلف قصة خالد مع بني جذيمة قبل هذا برواية أخرى تختلف عن هذه بعض الاختلاف دون أن نبه أن القضية واحدة مما يفيد أن خالداً ارتكب ما ارتكبه مع بني جذيمة مرتين مرة في شهر رمضان وأخرى في شوال وهذا خلاف الواقع. المحقق.

(٣) أنظر كتاب (فتح الباري بشرح البخاري) ج ٨ ص ٤٥.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعه مالٌ، فودَى لهم قتلاهم، وما ذهب منهم، ثم انصرف[1] إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن إرسال رسول الله ﷺ علياً، دليلٌ على إخلاصه واستيائه من قتلهم.

كانت بنو جَذيمة قد أصابوا في الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف، والفاكه بن المغيرة (عم خالد) وكانا أقبلا تاجرين من اليمن، حتى إذا نزلا بهم قتلوهما وأخذوا أموالهما؛ فلما ارسلَ خالد بن الوليد إلى بني جَذيمة وقتل منهم من قتل، مع أنه لم يؤمر بقتالهم، تبرَّأ رسول الله ﷺ مما صنع خالدٌ، لأنهم أعلنوا إسلامهم، وكان بين خالدٍ وعبد الرحمن بن عوف كلام في ذلك، إذ قال عبدُ الرحمن: عملتَ بأمر الجاهلية في الإسلام، فقال خالد: إنما ثأرتُ بأبيك، فقال عبد الرحمن بن عوف: كذبتَ، قد قتلتَ قاتلَ أبي، ولكنك إنما ثأرْتَ بعمكَ الفاكه بن المغيرة حتى كان بينهما شيء؟ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: مهلاً يا خالد! دَعْ عنكَ أصحابي، فوالله! لو كان لكَ أحدٌ ذهباً، ثم أنفقتَهُ في سبيل الله، ما أدركتَ غدوةَ رجلٍ من أصحابي ولا رَوْحَتَهُ.

٣٣٧ ــ دروس من فتوح مكة

أولاً: وفاء النبيّ[2]، ﷺ

التاريخ العسكري طافحٌ بأعمال الظلم والانتقام التي قام بها المنتصرون؛ ويندر أن نجد في التاريخ كله وفاء يشابه وفاء حبيب الله ومصطفاه سيدنا محمدٍ ﷺ؛ بل لا نجد له مثيلاً في التاريخ كله.

رأى الأنصار دخول الرسول ﷺ بلَدَهُ الحبيب، بعد فراق طال أمده، وشاهدوا التفاف قومه وأهله حوله، فقال بعضهم لبعضٍ[3]: (أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده، يقيم بها؟) ولكنَّ

(١) من هو الذي انصرف إلى رسول الله ﷺ فأخبره... الخ؟ المحقق.

(٢) انظر (كتاب قادة الفتح الإسلامي ــ الرسول القائد ص ٣٥٥.

(٣) في الأصل (وفاء النبي أولا) والصواب ما أثبتناه. المحقق.

محمداً ﷺ ما لبث أن سألهم: ما قالوا؟ فلما باحوا له بما[1] يخالج نفوسهم بعد تردد قال: «معاذ الله! المحيا محياكم والممات مماتكم» وقد كان من حقه أن يستقر بمكة، فيها وُلد وبها بُعث، ومنها انتشر نورُ الإسلام، وفيها أهله وقومه، وفيها بيت الله الحرام؛ ولكن وفاءه أبى عليه أن ينسى أصدقاء الشدة في وقت الرخاء. ورأى سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه مفتاح الكعبة بيد رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله! اجمع لنا الحجابة مع السقاية، قال الرسول الوفي: أين عثمان بن طلحة؟ فلما جاء عثمان قال له: يا ابن طلحة! هاكَ مفتاحكَ، اليوم يوم برٍّ ووفاء، خذوها يا بني طلحة! خالدة، لا ينزعها منكم أحدٌ إلا ظالم.

تلك أمثلة من وفاء الرسول العظيم، حتى قال أعداؤه عنه قبل أصدقائه: إنه أوصلُ الناس وأحلمُهم وأكرمُهم وأوفاهم.

٣٣٨ ـ ثانياً: تواضعه ﷺ وهو القائد المنتصر

السيطرة على الأعصاب في حالتي النصر أو الاندحار من أصعب الأمور وأشقها على النفوس، التي يجب أن تتوفر في القائد العاقل المتميز:

وربما تكون السيطرة على الأعصاب في حالة الهزيمة أسهل من السيطرة عليها في حالة النصر؛ فكم غيَّر النصرُ من أخلاق القادة وجعلها تتقلب من حالٍ إلى حالٍ.

ولكنَّ نصر المسلمين يوم فتح مكة جعل الرسول الله ﷺ يتواضع لله تبارك وتعالى، حتى رآهُ المسلمون يوم ذاك، ورأسه قد انْحَنَى على رحلهِ، حتى كادت لحيته الشريفة تمسُّ واسطة راحلته خشوعاً وخضوعاً لله عز وجل، وقد ترقرقت الدموع في عينيه تحناناً وشكراً لله تعالى.

إن قيمة هذا التواضع في موقف كهذا الموقف الهائل، يُعَدُّ أكبر نصرٍ للمسلمين، تتضاعف في النفوس والعقول معاً، إذا قارنَّاهُ بمواقف العظمة

(١) في الأصل (فلما أباحوا له مما) والصواب ما أثبتناه. المحقق.

والجبروت التي أبداها مختلفُ القادة في مختلف الظروف، عندما حازوا نصراً أقلَّ قيمة من فتح مكة بكثير.

إن تواضع الرسول الكريم ﷺ درسٌ عمليٌّ لكل قائدٍ منتصرٍ يقدّر نعمة النصر؛ وما أصعب الظهور بهذا المظهر ساعة النصر! مظهر حبيب الله ومصطفاه.

٣٣٩ ـ ثالثاً: قوة العقيدة في النفوس المؤمنة

قرأت يا أخي المسلم فيما شرحته سابقاً: كيف طوت أم حبيبة رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ فراشه عن والدها أبي سفيان بن حرب وهو زعيم مكة والعرب فيها، وقد جاءها من سفر بعيد، بعد غياب عنها طويل؟ ذلك لأنها رغبت به عن مشركٍ نجس، ولو كان هذا المشركُ أباها الحبيب (١).

وعندما جاء أبو سفيان مع العباس عم النبي ﷺ ليواجه الرسولَ ﷺ، رآه عمرُ عن الخطاب رضي الله عنه، فتركَ خيمتَهُ واشتدَّ يعدُو نحوَ خيمةِ رسول الله ﷺ، فلما وصلها قال: (يا رسول الله! دعني أضربْ عنقَهُ).

قال العباسُ: يا رسول الله! إني قد أجرتُهُ، فلما أكثر عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال العباس: مهلاً يا عمر! ما تصنع هذا إلا أنه من بني عبد مناف، ولو كان من بني عديّ ما قلتَ هذه المقالة، فقال عمر: مهلاً يا عباس! فوالله إسلامك يوم أسلمتَ كان أحب لي(٢) من إسلام الخطاب لو أسلم.

هذا صحيح، فقد كان عمر يمثّلُ عقيدة المسلمين الأولين الراسخة، بينما كان العباس حديث عهدٍ بالإسلام.

وكيف تبرّر إقدام المهاجرين على الاشتراك في غزوة الفتح؟ تلكَ الغزوة

(١) لا محبة ولا ولاء بين مؤمن وكافر. المحقق.

(٢) لعل الأصوب (إلي) بدل (لي). المحقق.

التي لم يكن من المستبعد أن تصطرع فيها قوات المسلمين وقوات قريش قوم المهاجرين وأهلهم في بلدهم الحبيب.

إن عقيدة المسلمين لا تخضع للمصلحة الشخصية، بل هي رهن المصلحة العامة وحدها[1].

٣٤٠ ـ رابعاً: تحطيم الأصنام وتطهير مكة منها وما حولها

تحطيم الأصنام في مكة يوم الفتح لتطهيرها من الوثنية، وفي غيرها بُعيد الفتح، فقد قضى رسولُ الله ﷺ على عقيدة الإشراك، وأزال[2] الخرافات والأوهام، في أقوى معقلٍ من معاقل الشرك والأضاليل مكة وما حولها في شبه الجزيرة العربية كلها، والحمد لله.

إن تحطيم الأصنام، وهي التي كان يعبدها المشركون، و يقرِّبُونَ القرابين إليها، دون أن تذود عن نفسها، أو تصيب مَنْ حطَّمها بأذى، كما كان يعتقد المشركون بها، نزع من نفوسهم إلى الأبد، آخر اعتقاد ووهمٍ وخرافة في قدسية هذه الأصنام وفائدتها؛ بل هي درسٌ عظيمٌ لكل متدبرٍ فسادَ كلِّ معتقدٍ وهمي أو خرافي يزول ولا يفيد ولا يضر، والإيمان بإله خالق مدبر حكيم بيده الحياة والموت، مالك لكل شيء في السموات والأرض، مقلب الليل على النهار، وخالق كل شيء بقضائه وقدره، لا إله إلا الله. محمد رسول الله.

فإزالة الأصنام، وتطهير البيت الحرام، درس بليغ للعقلاء، يدل دلالة واحدة[3] على الله تعالى؛ نسأل الله تعالى الهداية لنا ولأجيالنا، والإيمان الكامل برب الكائنات لا إله إلا الله.

---

(١) انظر كتاب (قادة الفتح الإسلامي ــ الرسول القائد) ص ٣٥٧.

(٢) في الأصل (وإزالة) والصواب ما أثبتناه ليستقيم الكلام مع سابقه. المحقق.

(٣) كان ينبغي أن يقول (قاطعة) بدل (واحدة). المحقق.

٣٤١ ــ خامساً: درس عام على أن المعول عليه في الحساب الدار الآخرة

ترجع بنا الذكريات في يوم فتح مكة إلى رجالٍ لم يشهدُوا هذا النصر المبينَ، ولم يسمعُوا صوتَ بلالٍ الحبشيَ، يَرِنُّ فوقَ ظهر الكعبة، بشعار التوحيد، ولم يروا الأصنام مكبوبةً على وجوهها، مسوَّاةً بالرغام، ولم يروا عُبَّادَها الأقدمين؛ وقد ألفوا السلمَ واتجهوا إلى الإسلام، يعبدون الواحد القهار.

إنهم قُتلوا أو ماتوا إبَّانَ المعركة الطويلة التي نشبَتْ بين الإيمانِ والكفر؛ ولكنَّ النصرَ الذي يجني ثمارَهُ الأحياءُ اليومَ لهم فيه نصيبٌ كبيرٌ، وجزاؤهم عند الله مكفول ومحقق بلا ريبٍ ولا شك، عند من لا يظلم مثقال ذرةٍ، عند أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، عند رب العالمين.

إنه ليس من الضروري أن يشهد كلُّ جنديٍّ النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق والباطل، فقد يخترمه الأجلُ في المراحل الأولى منه، وقد يُصرع في هزيمةٍ عارضةٍ ــ كما وقع لسيد الشهداء حمزة رضي الله عنه ــ والقرآن الكريم ينبّه أصحاب الحقِّ إلى أن المعوَّلَ في الحساب الكامل على الدار الآخرة، لا على الدار الفانية، الدار الدنيوية؛ فهناكَ الجزاء[1] الأوفى للمؤمنين والكافرين جميعاً، قال الله عز وجل: ﴿فاصبرْ إن وَعْدَ اللهِ حقٌّ، فإما نُرِيَنَّكَ بعضَ الذي نَعِدُهم أو نتوفينَّكَ فإلينا يُرجَعُونَ﴾ من سورة المؤمن آية (٧٧)[2].

ودخل رسولُ الله ﷺ مكة في شهر رمضان المبارك، وظل بها سائر الشهر يقصر الصلاة، ويفطر، أكثر من خمسة عشر يوماً، وكان قد خرج من المدينة صائماً ثم أفطر هو وصحبه في الطريق؛ فلما استقر الأمر شرع يبايع الناس على الإسلام فجاءه الكبار والصغار، والرجال والنساء، فتمت البيعة على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا.

---

(١) في الأصل (الجزاء) وقد حذفنا فتحة الهمزة لأن الكلمة مرفوعة لا منصوبة. المحقق.

(٢) في الأصل (آية ٧٨) والتصحيح من كتاب الله. المحقق.

وسنة رسول الله ﷺ في مبايعة النساء أن يأخذ عليهنَّ الميثاق كلاماً لا مصافحةً، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (لا والله! ما مَسَّتْ يدُ رسولِ الله ﷺ يدَ امرأة قط) (١).

وهكذا دخل أهلُ مكة في الإسلام، وإن كان بعضُهم بقي على دينه وجاهليته، يتعلق بأوهام الأصنام وترهات الأوثان و يستقسم بالأزلام، وقد محيت معالم الأصنام فلا مناة ولا عزَّى ولا هُبل ولا إساف ولا نائلة، إنها زالت إلى الأبد وطُهّرت أمُّ القرى وما حولها.

ودالت القوى التي كانت تحرس الأوهام والأباطيل وتحمي الوثنية وتقاتل دونها، فقد ذهبت، وستذهب تلك النفوس المخدوعة وتتلاشى إلى الأبد؛ وقد تلاشت و بادت بعد أن أشرق النور والهدى على يد نبي الرحمة، وهادي الأمة سيد الوجود محمد رسول الله ومجتباه.

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة، ولقد أفلحت خطة المسلمين في تعمية الأخبار، حتى بُوغتوا في عقر دارهم، فلم يجدوا مناصاً من الاستسلام، فما استطاعوا الجلاد، ولا استجلاب الأمداد، وفتح العرب جميعاً عيونهم، فإذا بهم أمام الأمر الواقع حتى خُيِّل إليهم أن النصر معقودٌ بألوية الإسلام فما ينفكُّ عنها. ولذلك كانت هذه المباغتة خطة حربية عظيمة تعطينا الدرس الكافي لنيل النصر على الأعداء، والفوز في الكفاح.

لقد كان لفتح مكة المكرمة، أكبر الأثر، في توحيد شبه الجزيرة العربية، كلها تحت لواء الإسلام، لواء لا إله إلا الله محمد رسول الله، كما كان له أثر معنوي عميق في نفوس المسلمين والمشركين على حدٍّ سواء، فأصبحت شبه الجزيرة العربية قوة موحَّدة ومُوَحِّدة، ذات عقيدة واحدة، وهدف واحد، تعمل بقيادة واحدة، قيادة رسول الله سيدنا محمد ﷺ.

ولم يبق على الشرك إلا قسمٌ من القبائل كقبيلتي هوازن وثقيف، ولا بدَّ من دعوتها للحق، لانهيار أكبر حصن للشرك، وقد سمعتا بفتح مكة، فقررت

(١) انظر كتاب (فقه السيرة) ص ٢٩٢ للعلامة محمد الغزالي.

ثقيف وهوازن غزو المسلمين، قبل أن يقوم المسلمون بغزوهم، وأخذت تحشد قواتها في منطقة الطائف، وإليك تفصيل ما وقع.

٣٤٢ ـ غزوة حنين وحصار الطائف

أقام المسلمون بمكة المكرمة، بعد فتحهم إياها، فرحين بنصر الله إياهم، مغتبطين أن لم يسفك في هذا النصر العظيم، إلا الدمُ القليلُ، مسارعين إلى البيت الحرام، كلما أذَّنَ بلالٌ بالصلاة، متدافعين حول رسول الله ﷺ حيث أقام، وأنَّى ذهب، يغشى المهاجرون منهم دورَهم، ويتَّصلوُنَ بأهليهم الذين هدَى الله بعد الفتح؛ ونفوسُهم جميعاً مطمئنة، إلى أن الأمر[1] قد استقرَّ للإسلام، وأن الجانب الأكبر من الجهاد قد كلّل بالفوز والظفر، وإنهم لكذلك بعد خمسة عشر يوماً من مُقامهم بأم القرى، إذ ترامت إليهم أنباء أيقظت استنامتهم للغبطة، تلك أن هوازن كانت تقيم على مقربة من مكة إلى جنوبها الشرقي، في جبال هناك؛ فلما علمت بما تمَّ للمسلمين من فتح مكة، ومن تحطيم أصنامها، خشيت أن تدور عليها الدائرة، وأن يقتحم عليها المسلمون منازلها، ففكرت فيما تصنع لاتقاء هذه الكارثة الوشيكة الوقوع، ولصدِّ محمدٍ والكف من غلواء المسلمين الذين يعملون للقضاء على استقلال قبائل شبه الجزيرة العربية، وعلى ضمها كلها في وحدة يُظِلُّها الإسلامُ؛ لذلك جمع مالكُ بنُ عوفٍ النَّصْريّ هوازنَ وثقيفاً، كما اجتمعت قبائلُ نَصْر وجُشَم ولم يتخلَّفْ عن الاجتماع من هوازن إلا كعب وكلاب، وكان في جشم دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة، وكان يومئذٍ شيخاً كبيراً، لا نفع منه في الحرب، ولكنما كان الانتفاع برأيه بعد الذي عركه على مرّ السنين في أحداثها ووقائعها؛ اجتمعت هذه القبائل كلها، ومعها أموالها ونساؤها وأبناؤها، وتمَّ جمعها حين نزلتْ سهل أوطاس؛ فلما سمع دريدُ بن الصِّمَّة رُغاءَ البعير، ونُهاقَ الحمير، وبكاء الصغير، وثغاء الشاء، سأل

(١) كان الأفضل أن يقول (إلى أن استقرّ الأمر للإسلام، وكُلّل الجانب من الجهاد بالفوز.. الخ). المحقق.

مالك بن عوف: لما ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم وصغارهم؟ فلما أجابه مالك بن عوف: بأنه إنما أراد أن يشجّع بها المحاربين، قال دُريد: وهل يردُّ المنهزم شيء، إنها إن كانت لكَ لم ينفعكَ إلا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليكَ، فُضحتَ في أهلكَ ومالكَ؛ واختلف مالكٌ ودريدٌ، وتبع الناس مالكاً. وكان شاباً في الثلاثين من عمره، قويّ الإرادة، ماضي العزيمة، وتابعهم دريد ما يردُّ لهم ــ على رغم سابقته في الحرب ــ رأياً، وأمر مالكٌ الناسَ أن ينحازوا إلى قمم جبل حنين، وعند مضيق الوادي، فإذا نزل المسلمون واديه، فليشدُّوا عليهم شدةَ رجلٍ واحدٍ، تضعضعُ صفوفَهم، فيختلط حابلهم بنابلهم، و يضرب بعضُهم بعضاً، وتدور عليهم الهزيمة، و يزول أثر انتصارهم حين فتحوا مكة، و يبقى لقبائل حنين في بلاد العرب جميعاً فخارُ النصر على هذه القوة التي تريد أن تُظلّ بسلطانها بلاد العرب جميعاً، وامتثلتْ القبائلُ أمرَ مالكٍ، وتحصَّنَتْ بمضيق الوادي.

أما المسلمون فبادروا بعد أسبوعين من مُقامهم بمكة وعلى رأسهم الرسول القائد ﷺ في عُدَّة وعديد لم يكن لهم من قبل بها عهدٌ [1] قط؛ ساروا في اثني عشر ألفاً من المقاتلين، منهم عشرة آلاف هم الذين غزوا مكة وفتحوها، وألفان ممن أسلم من قريش، و بينهم أبو سفيان بن حرب، وكلهم تلمع دروعهم، وفي مقدمتهم الفرسان والإبل تحمل الميرة والذخيرة.

سار المسلمون في هذا الجيش الذي لم تعرف بلادُ العرب من قبل مثالَهُ، يتقدَّمُ كل قبيلةٍ عَلَمُهَا، وتمتلىء النفوسُ إعجاباً بهذه الكثرة، و بأن لا غالبَ اليوم لها؛ حتى لقد تحدَّثَ بعضُهم بذلك إلى بعضٍ، وجعلوا يقولون: لن نُغلبَ اليوم لكثرتنا، و بلغوا حنيناً والمساء يُقبل، فنزلوا على أبواب واديها، وأقاموا بها حتى بُكرة الفجر، هنالك تحركَ الجيشُ، وركب الرسول القائد بغلته البيضاء في مؤخرته، على حين سار خالد بن الوليد، على رأس بني سُلَيم في المقدمة، وانحدروا من مضيق حنين في وادٍ من أودية تهامة؛ وإنهم لكذلك منحطُّون إلى

(١) في الأصل (عهداً) والصواب ما أثبتناه، لأنه اسم (يكن). المحقق.

الوادي إذ شدَّتْ عليهم القبائل بإمرة مالك بن عوف شدةَ رجلٍ واحدٍ، وأصلوهم وابلاً من النبال وهم جميعاً ما يزالون في عَماية الفجر؛ إذ ذاكَ اختلط أمرُ المسلمين واضطرب، وعادوا منهزمينَ قد أخذ الخوفُ والفزعُ منهم كل مأخذ، حتى أطلقَ بعضُهم ساقيهِ للريح، وحتى قال أبو سفيان بن حرب وعلى شفته ابتسامة المغتبط لفشل أولئك الذين انتصروا بالأمس على قريش: (لا تنتهي هزيمتهُم دون البحر) وقال شيبةُ بن عثمان بن أبي طلحة: اليوم أدركُ ثأري من محمدٍ، وكان أبوه قد قُتل في غزوة أحدٍ، وقال كَلَدَةُ بن حنبل: ألا بَطَلَ السحرُ اليوم، فردَّ عليه أخوهُ صفوان: اسكُتْ فَضَّ اللهُ فاكَ، فوالله لأن يَرُبَّني رجلٌ — يملكني — من قريش، أحب إلى من أن يربَّني رجلٌ من هوازن.

تقع هذه الأحاديث والجيش يختلط حابله بنابله، والنبيُّ ﷺ في المؤخرة، تمرُّ عليه القبائل واحدة بعد الأخرى، مولية الأدبار، مهزومة لا تلوي على شيء، ماذا ترى النبيَّ ﷺ يصنع؟ أفتضيع تضحيات عشرين سنةً في هذه اللحظة من عماية الصبح، لذا فقد ثبت ﷺ كما ثبتَ في غزوة أحدٍ، وكان ثباتُه هذا سبباً في كسب المعركة، فإنه ﷺ انحاز ذات اليمين ومعه نفرٌ قليل، منهم أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان، وعلي، والعباس وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن عمه ﷺ، وأسامة بن زيد، وربيعة، والحارث بن عبد المطلب، وعتبة ومعتب ابنا أبي لهبٍ، وأيمن بن أم أيمن، واختلف في عدد من ثبت مع رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وهو يركض على بغلته نحو هوازن يقول:

أنـــا الـــنبي لا كـــذب أنـــا ابـــن عـــبـــد المطلـب

وأخذ كفّاً من ترابٍ فرماه في وجوه العدوّ قائلاً: شاهت الوجوه، فانهزموا.

وكيف انهزم العدو؟ هو أنه لما ثبتَ رسولُ الله ﷺ ولم يبق معه إلا بعضُ أصحابه، قال لعمه العباس: اصرخ يا معشر الأنصار! يا أصحاب السَّمره! [1]؛ وكان العباس رفيع الصوت جهوري[2]، وفي رواية: قال له: نادِ يا

(١) السمرة: الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان يوم الحديبية.

(٢) لو قال (جهوريّه) بدل (جهوري) لكان أوجه. المحقق.

أصحاب البيعة يوم الحديبية! يا أصحاب سورة البقرة [1]! فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَّتْ على أولادها، فأمر أن يصدقوا الحملة على العدو، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فنظر الرسول ﷺ فقال: الآن حمي الوطيسُ ــ أي التنور والمراد به الحرب ــ إن الله لا يخلف رسوله وعده. وجعل الأنصار يتصايحون يا للأنصار! ثم تنادوا: يا للخزرج! واندفع المسلمون إلى المعركة مستهينين بالموت في سبيل نيل الشهادة من الله تعالى، مؤمنين بأن النصر لا محالة آت، وما النصر إلا من عند الله، وكان البلاءُ شديداً، حتى إن هوازن وثقيفاً ومن معهم ما لبثوا حين رأوا كل مقاومة غير مجدية، وأنهم معرضون للفناء عن آخرهم، أن فروا منهزمين، وولوا الأدبار، لا يلوون على شيء، تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين.

وكانت الإحصاءات لغنائم المسلمين كما يأتي:

أسر من الرجال خلقٌ كثير، أحصُوا أخيراً فبلغ عدد أسرى العدو ستة آلاف [2] نُقلوا محروسين إلى وادي الجعرانة، ومن النساء ستة آلاف [3]، ومن الإبل أربعة وعشرين ألفاً، ومن الغنم أربعين ألف رأس شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية؛ وتابع المسلمون مطاردتهم لعدوهم المنهزم، وزادهم إغراءً بهذه المطاردة أن أعلن الرسول ﷺ: أن من قتل مشركاً فله سَلَبُه، وأدرك ابن الدُّغُنَّة جملاً عليه شُجَّار ــ مركب مكشوف دون الهودج ــ ظنَّ به امرأة طمع في سلبها، فأناخ الجمل فإذا به شيخ كبير مُسِنّ لا يعرفه الفتى، وكان هذا الشيخ دريد بن الصِّمّة، وسأل دريدٌ ربيعة: ما يريد به؟ قال: أقتلكَ، وأهوى عليه بسيفه فلم يغنِ شيئاً، قال دريدٌ: (بئس ما سلَّحَتْكَ به أمُّكَ، خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل، ثم اضرب به، وارفع عن العظام، واخفِضْ عن الدماغ، فإني كذلك كنتُ أضربُ به الرجال ثم إذا أتيتَ أمَّكَ،

---

(١) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص٤٤٦ وحياة محمد ص٤١٧.

(٢) انظر (حياة محمد لهيكل ص٤١٨.

(٣) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص٤٤٦.

فأخبرها أنك قتلتَ دُريد بن الصِّمّة فربَّ والله يوم قد منعتُ فيه نساءك)، ولما رجع ربيعة إلى أمه، وأخبرها خبره قالت له: حرق الله يدكَ، إنما قال لك ذلك، ليذكرنا نعمَهُ عليكَ، فوالله! لقد أعتق لكَ ثلاث أمهات في غداة (أنا وأمي وأم أبيك)[1]. وتبع المسلمون هوازن حتى بلغوا أوْساطاً ــ وادي في ديار هوازن ــ وهناك أوقعوا بهم، وهزموهم شرَّ هزيمة، وعادوا إلى رسول الله .

أما مالك بن عوف، قائد ثقيف وهوازن فقد ثبت برهةً ثم فرَّ وقومه مع هوازن، حتى افترق عنهم عند نخلة، ثم ولّى وجهه نحو الطائف فاحتمى بها.

كان نصر المسلمين مؤزراً، وكانت هزيمة المشركين تامة بعد ذلك الفزع الذي أصاب المسلمين في عماية الصبح، وحين شدَّ المشركون عليهم شدة رجلٍ واحدٍ، ضعضعت صفوفهم، وخلطت حابلهم بنابلهم، كان نصر المسلمين مؤزراً بفضل الله ثم بثبات رسول الله ﷺ وحسن قيادته الحكيمة، ثم بالفئة المؤمنة التي أحاطت به .

وفي ذلك نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطنَ كثيرة، ويومَ حنينٍ إذ أعجبتْكم كثرتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً، وضاقَتْ عليكُمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ، ثم وليتُم مدبرين، ثم أنزل الله سكينتَهُ على رسولِهِ وعلى المؤمنينَ، وأنزلَ جُنُوداً لم تَرَوْهَا، وعذَّبَ الذينَ كفرُوا، وذلكَ جزاء الكافرين، ثم يتوبُ الله من بعد ذلك على من يشآء والله غفورٌ رحيمٌ، يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجَسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرام بعد عامهم هذا، وإن خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوف يغنيكُمُ الله من فضلِهِ إن شآء، إن الله عليمٌ حكيمٌ﴾[2]. على أن المسلمين لم يُحرزُوا هذا النصر المؤزر رخيصاً، بل دفعوا فيه ثمناً غالياً، لعلهم لم يكونوا يدفعونه لولا تخاذلهم الأول وتدافعهم مهزومين، ليقول فيهم أبو سفيان: إنهم لا يردهم إلا البحر، دفعوا الثمن غالياً من مهج الرجال، وأرواح الأبطال الذين استشهدوا في المعركة.

---

(١) عن حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ٤١٨.

(٢) انظر سورة التوبة الآيات من (٢٥-٢٨).

أمر الرسولُ القائد ﷺ أصحابه أن يجتمعوا عنده فاجتمعوا، فبدأ ﷺ بالأموال فقسمها، **وأعطى المؤلفة قلوبهم** أول الناس، فأعطى أبا سفيان بن حرب (٤٠) **أربعين** أوقيةً من الفضة ومائةً من الإبل، وكذا ابناهُ يزيد ومعاوية **مائة أخرى**، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى **فأعطاه إياها**، **وأعطى** النضر بن الحارث ابن كلدة مائة من الإبل، وكذا أسيد بن جارية **الثقفي**، والحارث ابن هشام، وصفوان بن أمية، وقيس بن عدي، وسهيل **بن عمرو**، وحويطب بن عبد العزى، والأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن، ومالك بن عوف، وأعطى العباس بن مرداس (٤٠) من الإبل، فقال في ذلك شعراً فأعطاه مائة من الإبل، وأعطى مخرمة بن نوفل خمسين بعيراً، **وكذا** العلاء بن حارثة، وسعيد بن يربوع، وعثمان بن وهب، وهشام **بن عمرو العامري**، فبلغ مجموع ما أعطى ﷺ ممن ذكروا (أربعة عشر ألفاً وثمانمائة وخمسين) رأساً من الإبل، وأعطى ذلك كله من الخُمْسِ.

قال ابن سعدٍ في طبقاته الكبرى هذا أثبت وأصح الأقاويل عندنا فيما شرحناه.

ثم أمر ﷺ زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ثم فضّها على الناس، فكانت سهام كل رجلٍ أربعاً من الإبل وأربعين شاة من الغنم، فإن كان فارساً، أخذ اثني عشر من الإبل ومائة وعشرين شاة عنه وعن فرسه، وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم له [1].

ردُّ السبي: قدم وفدٌ من هوازن على النبي ﷺ وهم أربعة عشر رجلاً، وعلى رأسهم: زهير بن صرد، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة وقد جاءوا مسلمين، فسألوه ﷺ أن يمنَّ عليهم بالسبي، فرضي رسولُ الله ﷺ ورضي المسلمون معه، وردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، ولم يختلف منهم أحدٌ غير عيينة بن حصن، وكان من الأعراب الجفاة، فإنه أبى أن يردَّ عجوزاً صارت في يده

(١) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص٤٤٧.

منهم، ثم ردَّها بعد ذلك؛ ووفد عليه ﷺ مالك بن عوف رئيس هوازن، فردَّ عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، لأنه أسلم وحسن إسلامه، واستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه[1].

ولما قَسَّمَ الرسولُ ﷺ الغنائم، ورأت الأنصار ما أعطى رسول الله ﷺ في قريش والعرب، تكلموا في ذلك قالوا: حَنَّ الرجلُ إلى أهله، فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار! أما ترضونَ أن يرجعَ الناسُ بالشاء والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ قالوا: رضينا يا رسول الله بك حظّاً وقسماً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحم الأنصار وأبناءَ الأنصار، وأبناء ابناء الأنصار».

وكانت غزوة حنين في عشرة من[2] شوال سنة ثمان من الهجرة (فبراير سنة (٦٣٠)م.

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن مكث في الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذي العقدة، فأقام بها ثلاث عشرة ليلة؛ فلما أراد الانصراف إلى المدينة، خرج ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة بقيت من ذي القعدة ليلاً؛ فأحرم بعمرة ودخل مكة، فطاف وسعى وحلق رأسه، ورجع إلى الجعرانةِ من ليلته كبائت فيها، ثم غدا يوم الخميس حتى خرج على سَرِف[3]، ثم أخذ الطريق على مر الظهران، ثم إلى المدينة.

٣٤٣ ــ درس هام من موقعة حنين

لقد حصل في هذه الغزوة درسٌ هام ينتفع منه من أراد الانتفاع من وقائع رسول الله ﷺ وخاصة من غزوة حنين التي مرت سابقاً.

---

(١) عن المصدر السابق نفس الصحيفة.

(٢) لم يذكر في الأصل (من). المحقق.

(٣) هو موضع على ستة أميال من مكة.

وهو درس عظيم لقواد الجيوش وللجيوش معاً؛ لقد رأينا هذا الجيش الإسلامي من المهاجرين والأنصار قد دخله بعد فتح مكة أخلاط كثيرون من مشركين أسلموا وأعراب، وهم حديثو عهدٍ بالإسلام، وهؤلاء سيان عندهم نصر الإسلام وخذلانه، ولذلك بادروا لأول صدمة إلى الهزيمة، وكادت تتم لولا فضل الله ورحمته، فلا ينبغي أن يكون في الجيش إلا من يقاتل مخلصاً من قلبه، ليكون مدافعاً حقاً عن دينه ووطنه، فلا تميل نفس إلى الفرار خشية ما أعدَّه الله للفارين من أليم العقاب. ثم ينبغي أن يكون متوكلاً على الله، فلا ينخدع بكثرة عدد جيشه لأن الإعجاب يتواكل صاحبه، ولا يقاتل عن عقيدة بل لطمع دنيوي، وشهرة زائلة وكسبٍ رخيص، فعليه أن[1] يقاتل دفاعاً عن حق، أوعن عقيدة صحيحة يريد نفعها للناس، فهو يجود بنفسه لينال الأجر الكامل على نيته الحسنة وإرادة الخير للناس، طلباً لرضاء الله عز وجل وما عند الله خير وأبقى، هذا ما أردت بيانه[2] قبل إرسال السرايا لهذه الغاية وإرادة الخير للناس لينتفعوا بدين الله وعقيدة الإسلام، وإليك السرايا وبعث النبي ﷺ؛

٣٤٤ ـ سرية أبي عامر الأشعري أو سرية أوطاس

أبو عامر الأشعري، هو عم أبي موسى الأشعري، وكان أبو عامر من كبار الصحابة؛ لما فرغ رسول الله ﷺ من حنين بعثه على جيش إلى أوطاس، خلف الفارين من هوازن، وكان المنهزمون انقسموا ثلاث فرق:

(١) فرقة منهم لحقت بالطائف؛

٢) وفرقة لحقت بنخلة؛

(٣) وفرقة بأوطاس؛

فانتهى إليهم أبو عامر فإذا هم مجتمعون، فناوشوه القتال، وقَتَلَ منهم أبو عامرٍ تسعةً، مبارزة بعد أن يدعو كلَّ واحدٍ منهم إلى الإسلام، وأفلتَ منه العاشر؛ ثم استشهد أبو عامرٍ، قتله أخوان هما العلاء وأوفى ابنا الحارث بن جشم؛ ثم

(١) (فعليه أن) في الأصل (بل). المحقق.

(٢) (بيانه) في الأصل (بيان). المحقق.

خَلَفَ أبا عامرٍ أبو موسى رضي الله عنه، باستخلاف عمر له فأقرَّهُ الناس، فقاتل القومَ حتى هزمهم وظفر المسلمون بالغنائم[1].

٣٤٥ ــ سرية الطفيل بن عمرو الدَّوسي إلى ذي الكفين

لما أراد رسول الله ﷺ السير إلى الطائف، بعث الطفيل بن عمرو[2] الدوسي، إلى ذي الكفين[3]، وذلك في شهر شوال سنة ثمان من الهجرة، ليهدمه، وأمره أن يستمدّ قومه، و يوافيه بالطائف؛ فخرج سريعاً إلى قومه، فهدم ذا الكفين، وجعل يحش النار في جوفه ويحرقه و يقول:

يا ذا الكفين لستُ من عبَّادكا ... ميلادنا أقدم من ميلادِكا

إني حششتُ النارَ في فؤادكا

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعاً، فوافوا النبيّ ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام، وقدم بدبابة ومنجنيق؛ وقد ذكرت الدبابات والمنجنيق لأول مرة في غزوة خيبر[4].

٣٤٦ ــ غزوة الطائف وإصابة عين أبي سفيان فيها .

كانت غزوة الطائف في شهر شوال سنة ثمان من الهجرة فبراير سنة ٦٣٠م، وقد تقدم معرفة الرسول ﷺ لها عندما قدمها بعد وفاة أبي طالب والسيدة خديجة رضي الله عنها، يلتمس ﷺ النصرةَ من ثقيف، فخذلوهُ وعاد إلى مكة؛ وكان ذلك سنة عشر من البعثة.

---

(١) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٤٤٩.

(٢) كان شريفاً شاعراً لبيباً وقد تقدم ذكر إسلامه.

(٣) اسم صنم من خشب لعمرو بن طممة الدوسي.

(٤) عن المصدر السابق ص ٤٥١، والدبابة: آلة تتخذ للحروب، فتدفع في أصل الحصن فينقبون، وهم في جوفها.

أما في هذه المرة فإنه خرج من حنين يريد الطائف ليغزوها وقد كانت ثقيف رَمَوْا[1] حصنهم، وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنةٍ كاملة، فلما انهزموا من أوطاس، دخلوا حصنهم، وأغلقوه عليهم، وتهيأوا للقتال، وكان معهم مالك بن عوف، وسار رسول الله ﷺ، فنزل قريباً من حصن الطائف، وعسكر هناك، فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقُتل منهم اثنا عشر رجلاً فيهم: عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، وسعيد بن العاص، ورُمي عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه يومئذٍ، فاندمل الجرح ثم انتقض به بعد ذلك فمات منه، وأصيبتْ عينُ أبي سفيان، فأتَى النبيَّ ﷺ وعينه في يده فقال: يا رسول الله! هذه عيني أُصيبتْ في سبيل الله، فقال له ﷺ: إن شئتَ دعوتُ فردَّتْ عليكَ وإن شئت فعينٌ في الجنة، قال أبو سفيان: في الجنة، ورمى بها من يدهِ.

فارتفع الرسول ﷺ إلى موضع مسجد الطائف الذي أُنشيء بعد ذلك، وكان معه ﷺ من نسائه أم سلمة وزينب، فضرب، لهما قبتين، وكان يصلي بين القبتين. ودام حصار الطائف ثمانية عشر يوماً، ونصب عليهم المنجنيق. ثم نادى بعد ذلك منادي رسول الله ﷺ أيما عبد نزل من الحصن، وخرج لنا فهو حرٌّ؛ فخرج منهم بضعة عشر رجلاً فأعتقهم رسول الله ﷺ. وأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم ونخيلهم وتحريقها، فقطع المسلمون قَطعاً ذريعاً، ثم سألوه أن يدعها فتركها. ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف، فأمر عمر بن الخطاب، فأَذَّنَ في الناس بالرحيل، فنهجَ الناسُ من ذلك، ثم أذعنوا.

واستعمل المسلمون في هذه الغزوة الدبابة، وهي آلة من آلات الحرب، تجعل من الجلود، يدخل فيها الرجال، فيدبُّونَ بها إلى الأسوار، لينقبوها.

٣٤٧ ـ حادثة لطيفة مع أخت رسول الله ﷺ الشيماء

لقد كانت في سبي حنين أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة وهي الشيماء، قيل: وأمها حليمة رضي الله عنها، ولما قالت له الشيماء: أنا

(١) الصواب (رتموا) من الترميم. المحقق.

أختك يا رسول الله! قال: وما علامة ذلك؟ فأخبرته بعضَّةٍ عضَّها إياها حين كان مسترضعاً عندهم، وأرتْهُ إياها فعرفها، وتذكَّرَ ذلك؛ فقام ﷺ لها، وبسط رداءه لها، وصنع مثل ذلك بأمه حليمة حين جاءته ودمعتْ عيناه، وقال للشيماء لما عرفها: سلي تعطي، واشفعي تشفّعي؛ وقيل: إن قومها قالوا لها: إن هذا الرجلَ أخوكِ، فلو أتيتِهِ، فسألته في قومك، لرجونا أن يحابينا، فاستوهَبَتْهُ السبي، وهم ستة آلاف، فوهبهم لها؛ فما عُرفتْ مكرمةٌ مثلها، ولا امرأة أيمنَ على قومها منها، وقد خيَّرها ﷺ فقال لها: إن أحببتِ فعندي محببة مكرمة، وإن أحببتِ أن أمتعك وترجعي إلى قومك؟ قالت: بلى تمتعني وأرجع إلى قومي، فأعطاها نعماً وشاءً وغلاماً يقال له: مكحول وجارية[1].

٣٤٨ ــ انصرافُ الرسول ﷺ من الطائف

لما رأى رسولُ الله ﷺ الأشهر الحرم قد آذنت[2] ولا يجوز فيها قتال، آثر صلوات الله وسلامه عليه أن يرفع الحصار بعد شهر من وقوعه، وكان شهر ذي القعدة قد هلَّ، فرجع بجيشه معتمراً، وذكر أنه متجهّزٌ إلى الطائف إذا انتهت الأشهر الحرم.

٣٤٩ ــ بعثُ الرسول القائد لقيس بن سعد إلى صُدَاء

بعث رسول الله ﷺ، قيسَ بن سعد بن عبادة الخزرجي إلى ناحية اليمن بعد انصرافه من الجعرانة في أربعمائة فارس، وأمره أن يقاتل قبيلة صُدَاء، وهو حي من اليمن.

جاء في معجم البلدان: صُدَاء: مخلاف باليمن، بينه وبين صنعاء اثنان وأربعون فرسخاً، سمي باسم القبيلة.

---

(١) انظرها في كتاب (محمد رسول الله) ص ٤٥١.

(٢) (آذنتْ) في الأصل (آذنب) بالباء. المحقق.

فقدم زيادُ بن الحارث الصدائي، فسأل عن ذلك البعث؟ فأخبر به، فقال: يا رسول الله! أنا وافدكم إليهم، فاردُدْ الجيش، وأنا أتكفَّلُ بإسلام قومي وطاعتهم، فقال: اذهبْ إليهم فردَّهم؛ فقال: إن راحلتي قد كلَّتْ، فبعث إليهم فردَّهم؛ ورجع الصدائي إلى قومه، فقدموا بعد خمسة عشر يوماً فأسلموا.

وقيل: كتب إليهم فجاء وفدهم بإسلامهم، فقال رسول الله ﷺ: إنك مطاعٌ في قومك يا أخا صداء! فقال: بل الله هداهم، قال: ألا تؤمرني عليهم؟ قال ﷺ بلى، ولا خير في الإمارة، لرجلٍ مؤمنٍ، فتركها. وأمرهُ رسولُ الله ﷺ أن يؤذّنَ في صلاة الفجر فأذّنَ فأراد بلالٌ أن يقيمَ، فقال رسول الله ﷺ: إن أخا صداء أذّنَ فهو يقيم.

٣٥٠ ــ شهداء حنين والطائف رضي الله عنهم

شهداء حنين أربعة وهم[1]:

١ - أبو عامر الأشعري عم أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما.

٢ - أيمن بن عبيد، وهو ابن أم أيمن، أخو أسامة بن زيد من الرضاعة.

٣ - يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزّى.

٤ - سراقة بن الحارث بن عدي بن العجلان من الأنصار.

شهداء غزوة الطائف اثنا عشر وهم[2]:

١ - سعيد بن سعيد بن العاص[3] بن أمية.

٢ - عُرْفُطة بن جنّاب حليف لبني أمية من الأزد.

٣ - عبد الله بن أبي بكر الصديق، أصابه سهم فاستمر منه مريضاً حتى مات منه بعد رسول الله صلى الله ﷺ في خلافة أبيه.

---

(١) (وهم) في الأصل (وهم كل من) وقد حذفنا لفظ (كل من). المحقق.

(٢) (وهم) في الأصل (هم كل من). المحقق.

(٣) في الأصل (العاصي) بالياء. المحقق.

٤ - عبدالله بن أمية بن المغيرة المخزومي أخو أم سلمة أم المؤمنين.

٥ - عبدالله بن عامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي بن كعب.

٦ - السائب بن الحارث بن قيس بن عدي.

٧ - عبدالله بن الحارث أخو السائب بن الحارث.

٨ - جُلَيحة بن عبدالله من بني سعد بن ليث.

٩ - ثابت بن الجذَع من بني سلمة من الأنصار.

١٠ - الحارث بن سهل بن أبي صعصعة من بني مازن بن النجار.

١١ - المنذر بن عبدالله من بني ساعدةِ.

١٢ - رُقيم بن ثابت بن ثعلبة بن زيد بن لَوْذان بن معاوية[1]. رضي الله عنهم، وأسكنهم فسيح جناته. اللهم آمين.

٣٥١ ــ سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم

بعث رسول الله ﷺ عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم في المحرم سنة تسع من الهجرة (أبريل سنة (٦٣٠)م، في خمسين فارساً من العرب، ليس فيهم مُهاجري ولا أنصاري، فكان يسيرُ الليلَ، و يكمُنُ النهار؛ فهجم عليهم في صحراء، فدخلوا وسرحوا مواشيهم، فلما رأوا الجمعَ، ولَّوْا مدبرين، وأخذ عيينة وجماعته منهم أحد عشر رجلاً، ووجدوا في المحلة إحدى عشرة امرأةً وثلاثين صبياً، فجلبهم عيينةُ إلى المدينة، فأمر بهم رسولُ الله ﷺ، فحبسوا في دار رملة بنت الحارث؛ فقدم فيهم عدة من رؤسائهم، منهم: عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، وعمرو بن الأهتم، ورباح بن الحارث.

---

(١) انظر الأسماء في كتاب (قادة الفتح الإسلامي والرسول القائد) ص ٣٩٢.

فلما رأى الأسرى من النساء والذراري بكوا وأبكوا، فعجَّلَ الوفدُ بالذهاب إلى رسول الله ﷺ، فجاءوا إلى باب النبي ﷺ وكلَّموهُ في شأن السبي، فردَّ عليهم رسول الله ﷺ أسراهم.

واختلف في عدد الوفد، فقيل: كانوا سبعين وقيل: كانوا ثمانين، وقد أسلموا، وبقوا في المدينة مدة، يتعلمون القرآن ويتفقهون في الدين.

وسبب هذه السرية: أن رسولَ الله ﷺ بعث بشر بن سفيان العدوي الكلبي إلى بني كعب من خزاعة لأخذ صدقاتهم وكانوا مع بني تميم على ماءٍ فأخذَ بشرٌ صَدَقاتِ بني كعبٍ، فقال لهم بنو تميم وقد استكثروا ذلك: لِمَ تُعطونهم أموالكم؟ فاجتمعوا وانتهزوا السلاح، ومنعوا بشراً من أخذ الصدقة فقال لهم بنو كعبٍ: نحنُ أسلمنا، ولا بدَّ في ديننا من دفع الزكاة فقال لهم بنو تميم: والله! لا ندعُ بعيراً واحداً يخرج؛ فلما رأى بشر ذلك، قدم المدينة، وأخبر النبيَّ ﷺ بذلك؛ فبعث رسولُ الله ﷺ عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم كما تقدم.

٣٥٢ ــ سرية الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق

بعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط، لأخذ الصدقاتِ من بني المصطلق ــ هم بطن من خزاعة ــ وكانوا قد أسلموا، وبنوا المساجد، وكان بينهم وبين الوليد عداوة في الجاهلية إلا أنهم، لما سمعوا بمجيء الوليد لأخذ الصدقات، خرج منهم عشرون رجلاً بالإبل والغنم يؤدونها عن زكاتهم، فرحاً به، وتعظيماً لله ولرسوله، فظنَّ أنهم يريدون قتله لرؤية السلاح معهم، مع أنهم إنما خرجوا بالسلاح تجملاً، فرجع من الطريق قبل أن يصلوا إليه؛ فذهب إلى المدينة، وأخبر النبيَّ ﷺ أنهم ارتدوا، ولقوهُ بالسلاح يحولون بينه وبين الصدقة، فَهَمَّ رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم مَنْ يغزوهم، وبلغ ذلك القوم فقدمَ عليه الركبُ الذين لقوا الوليدَ، فأخبروا النبيَّ ﷺ الخبرَ على حقيقتهِ، فنزلت هذه الآية القرآنية بقول الله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا

إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينُوا أن تُصيبوا قوماً بجهالةٍ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾[1].

فقرأ عليهم رسولُ الله ﷺ القرآن، وبعث معهم عبَّادَ بنَ بشرٍ يأخذ الصدقات، ويعلمهم شرائع الإسلام، ويقرئهم القرآن. وجاء في رواية ثانية ذكرها العلامة أحمد محمد جمال[2] قوله: وشاء الله أن يأمرَ النبيُّ ﷺ: الوليدَ بن عقبة بن أبي معيط بأخذ صدقات بني المصطلق، ولم يعتذر الوليدُ عن الذهاب إليهم، وإن كانت نفسه قد حدَّثته بشيء؛ أن إحنةً جاهلية، كانت بينه وبين بني المصطلق فحدثته نفسهُ بأنه مقتول بين أيديهم إن هو قدم عليهم... فذهب إليهم، وعاد للرسول ﷺ وقال له: إن بني المصطلق قد رجعوا كفاراً، ومنعوا الزكاة، وجمعوا الجموع لقتال المسلمين؛ لقد[3] همَّ النبي ﷺ غزو بني المصطلق، ولكن الله لم يتركه يفعل، وألهمه أن يتثبتَ من خبر[4] الوليد، وكان خالد بن الوليد رسول التثبت في هذه القصة، وسفير السلام.

أقبل خالدٌ على بني المصطلق، وبثَّ عيونَهُ في مكامن القرية، كان المؤذنون يرفعون أصواتهم بلا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، وكانت القرية تردّد معهم: (الله أكبر الله أكبر)وكانت قلوبُ أهلها تستجيبُ (لحيَّ على الصلاة، حي على الفلاح) وكانت المساجد تمتلىء بالمسلمين والمهللين والمكبرين... ودلت بعد ذلك معاملاتهم على صدق إسلامهم، إذ أدُّوا الزكاة، وأقاموا الصلاة.

وانقلب خالدٌ إلى المدينة مسروراً، يبشّر النبيَّ ﷺ بأنَّ القومَ مسلمون، لم يرتدوا، ومخلصون لم يغدروا، وأوفياء لم يبخلوا بصلاة ولا زكاة.

حقاً إن الإسلام دين السلام، لأنه دين التثبت من الأنباء، والتفاهم مع الأعداء وأشباه الأعداء، قبل الزحف أو الرماة[5]. لقد كادت تقوم حربٌ

---

(١) من سورة الحجرات آية (٦).

(٢) في كتابه (على مائدة القرآن ــ ما وراء الأيات) ــ ص ٣٢.

(٣) كان الأولى أن يقول (فهمَّ) بدل (لقد هم) ليرتبط الكلام بعضه ببعض. المحقق.

(٤) في الأصل (من الوليد) دون كلمة (خبر). المحقق.

(٥) لعل مقصود المؤلف (أو بعث الرماة). المحقق.

ثانيةٌ، لو صدَّق النبيُّ ﷺ الوليدَ والحرب لا يأتي بخير إلا الدماء، والأموال الحرام، وما كان للمسلمين[1] أن يأخذوا دماء وأموالاً حراماً، أو يعطوها.

فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءَكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا...﴾ الآية.

٣٥٣ ـ سرية قطبة بن عامر إلى خثعم في تبالة

في صفر سنة تسع من الهجرة، أرسل رسول الله ﷺ قطبة بن عامر بن حديدة في عشرين رجلاً إلى حي من خثعم، بناحية تبالة، وأمرهُ ﷺ أن يشنَّ الغارة عليهم، فخرجوا على عشرة جِمالٍ يعتقبونها[2]؛ فأخذوا رجلاً فسألوه: فاستعجم عليهم، فجعل يصيح بالحاضر، ويحذّرهم، فضربوا عنقَهُ، ثم أمْهَلُوا حتى نام الحاضر، فشنُّوا عليهمُ الغارة فاقتتلوا قتالاً شديداً، حتى كثرت الجرحَى في الفريقين جميعاً، وقَتَلَ قطبةُ بنُ عامرٍ مَنْ قَتَلَ، وساقوا النَّعمَ والشاء والنساء إلى المدينة؛ وجاء سيلٌ أتِيٌّ[3]، فحال بينهم وبينه، فما يجدون إليه سبيلاً؛ وكانت سهامهم أربعة أبعرةٍ، والبعير بعشرة من الغنم، بعد أن أُخرج الخمسُ.

٣٥٤ ـ سريةالضحاك بن سفيان إلى بني كلاب

في شهر ربيع الأول سنة تسع من الهجرة، أرسل رسول الله ﷺ جيشاً إلى الفُرطاء عليهم الضحاك بن أبي بكر الكلابي، وكان من الشجعان الأبطال، ومعه الأصيدُ بن سلمة بن قرط، فلقوهم بالزُّجِّ زُجِّ لاوة[4]، فدعوهم إلى الإسلام، فأبوا فقاتلوهم فهزموهم، وغنم[5] أموالهم؛ فلحق

(١) (وما كان للمسلمين) في الأصل (وهو يسير على المسلمين) فاستبدلنا بهذه العبارة العبارة التي أثبتناها. المحقق.

(٢) (يعتقبونها) في الأصل (يتعقبونها). المحقق.

(٣) (أتِيٌّ) في الأصل (أتَى) وهو خطأ. والصواب ما أثبتنا. وفي لسان العرب (سَيْلٌ أتِيٌّ): لا يُدْرَى من أين أتَى). المحقق.

(٤) اسم موضع في أرض نجد.

(٥) كان الأوجه أن يقول (وغنموا). المحقق.

الأصيدُ أباه سلمةَ، وسلمةُ على فرسٍ له، في غديرٍ بالزج، فدعا أباهُ إلى الإسلام، وأعطاهُ الأمان، فَسَبَّهُ وسبَّ دينَهُ، فضرب الأصيدُ عرقوبي فرسَ أبيه فلما وقع الفرس على عرقوبيه، ارتكز سلمةُ على رمحهِ في الماء، ثم استمسكَ به حتى جاءه أحدُهم فقتله، ولم يقتلْهُ ابنه الأصيد رضي الله عنه.

٣٥٥ ــ سرية علقمة بن محرز المدلجي إلى الحبشة

كانت سرية علقمة بن مُحْرِز المدلجي إلى الحبشة في شهر ربيع الآخر سنة تسعٍ من الهجرة، (يوليه سنة (٦٣٠)م.

وسببها: أنه قد بلغ رسول الله ﷺ أن أناساً من الحبشة رآهم أهل جدة، فبعث إليهم ﷺ علقمة بن محرز في ثلاثمائة؛ فانتهى إلى جزيرة في البحر، وقد خاض إليهم البحر فهربوا منه، فلما رجع، تعجّلَ بعض القوم إلى أهلهم قبل بقية الجيش، فأذن لهم، فتعجل عبدالله بن حذافة السهمي فيهم، فأمَّره على من تعجل، وكانت فيه دعابة ــأي مزاحــ فنزلوا ببعض الطريق، وأوقدوا ناراً يصطلون عليها، ويصنعون، فقال لهم: أليستْ طاعتي واجبة؟ قالوا بلى، قال: فاقتحموا هذه النار، فقام بعض القوم فاحتجزوا حتى ظنَّ أنهم واثبون فيها، فقال: اجلسوا إنما كنتُ أضحكُ؛ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «من أمركم بمعصيةٍ فلا تطيعوه». وعلقمة هذا، هو الذي بعثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الحبشة، فهلكَ هو وجيشُه.

أما عبدالله بن حذافة فهو من قدماء المهاجرين، ممن شهد بدراً، ومات بمصر في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٣٥٦ ــ سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الفُلْس [١]

بعث رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الفُلْس [١] وهو صنمٌ لطيء ليهدمه، وذلك في شهر ربيع الآخر وذلك سنة تسع من

(١) في الأصل (الفَلْس) بضم اللام. والتصحيح من طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١٦٤ طبع بيروت. المحقق.

الهجرة، في مائة وخمسين رجلاً من الأنصار، على مائة بعيرٍ وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء، ولواء أبيض، فشنُّوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر، فهدموا الفُلُسَ وخرّبوه، وملأوا أيديهم من السبي والنَّعم والشاءِ والفضة، وفي السبي سَفَّانةُ بنت حاتم الطائي وأخت عدي بن حاتم، وقد هرب عدي إلى الشام، ووجد في خزانة الفُلْس[٢] ثلاثة أسياف وأسماؤها[١] (رَسُوب والمخذم، وسيف يقال له اليماني)، وثلاثة أدرع. واستعمل رسول الله ﷺ على السبي أبا قتادة، واستعمل على الماشية والرِّثَّة عبد الله بن عتيك؛ فلما نزلوا ركك[٢]، اقتسموا الغنائم، وعُزل للنبي ﷺ سيفاً رسوباً[٣]، والمخذم أيضاً، ثم صار له بعدُ السيف الثالث، وعُزِلَ الخُمُسُ[٤]، وعُزِل آل حاتم فلم يقسمهم، حتى قدم به المدينة.

وقد مَنَّ رسول الله ﷺ على سفَّانة، فأسلمت وحسن إسلامها؛ وكان المنُّ عليها سبباً لإسلام أخيها عدي بن حاتم الطائي، فإنها خرجت حتى قدمت الشام على أخيها عدي، فقال: ما ترين في هذا الرجل؟ قالت سفَّانةُ: أرىَ والله أن تلحقَ به سريعاً فإن يكُ نبياً فللسابق إليه فضيلة، وإن يكن ملكاً فلن تزال في عزّ اليُمْنِ وأنتَ أنتَ، فقال: والله إهذا هو الرأي؛ فقدم على رسول الله ﷺ وأسلم وحسنَ إسلامه بعد.

٣٥٧ ــ وفود القبائل على النبي ﷺ لتقديم الطاعة

بدأت القبائل والعشائر تفد على المدينة المنورة لتبايع رسول الله ﷺ على الإسلام والسمع والطاعة بين يديه ﷺ، لله تعالى، وحباً برسوله الكريم.

---

(١) في الأصل (وأسماؤهم). المحقق.

(٢) اسم محل من محال سلمى أحد جبلي طيء، وعبدالله بن عتيك هو أحد قتلة أبي رافع ابن أبي الحقيق اليهودي.

(٣) في طبقات ابن سعد بالمصدر السابق (صفيا رسوبا). المحقق.

(٤) في الأصل (الخمْس) بإسكان الميم والصواب ضمها. المحقق.

٣٥٨ ــ قدوم وفد طيء وعلى رأسهم سيدهم زيد الخيل

قدمَ وفدٌ من طيء وعلى رأسهم سيدهم زيد الخيل، فلما انتهوا إليه، أحسن استقبالهم، وتحدَّثَ إليه زيدٌ، فقال النبيُّ ﷺ له: ما ذُكِرَ لي رجلٌ من العرب بفضلٍ، ثم جاءني إلا رأيتُه دون ما يُقال فيه، إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ كلَّ ما فيه، ودعاه (زيد الخير) بدلاً من (زيد الخيل) وأسلمتْ طيء وزيدٌ على رأسها؛ وكان عدي بن حاتم الطائي نصرانياً، وكان من أشد العرب كراهية لرسول الله ﷺ؛ فلما رأى أمره وأمر المسلمين في شبه الجزيرة العربية، تَحَمَّلَ في إبله بأهله وولده ولحق بأهل دينه من النصارى بالشام؛ وإنما فرَّ عدي بن حاتم حين أوفد النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه ليهدم صنم طيء الفُلس[1]، وقد هدم عليٌّ الصنم واحتمل الغنائم والأسرى ومن بينهم ابنة حاتم ــ التي شرحت ذلك[2] قبل قليل ــ وقد حُبست في حظيرة بباب المسجد، كانت السبايا تُحبس فيها، ومرَّ بها النبي ﷺ، فقامت إليه وقالت: يا رسول الله! هلك الوالد وغاب الرافد، فامنُنْ عليَّ مَنَّ الله عليك، وأعرض عنها النبي ﷺ حين علم أن رافدها عديُّ بن حاتم الفارُّ من الله ورسوله؛ لكنها راجعته، وذكر هو ما كان لأبيها في الجاهلية من كرم أعلَى به ذكر العرب، فأمر ﷺ بتسريحها وكساها كسوة حسنةً، وأعطاها نفقتها وحملها على جمل فذهبت إلى الشام، فلما لقيتْ أخاها عدياً، ذكرتْ له ما أكرمها به رسول الله ﷺ، فابتهج لذلك وسرَّ بما منَّ به رسول الله ﷺ وعاد مع أخته ووفد طيء إلى المدينة، والتقى برسول الله ﷺ وأعلن إسلامه وشكره لله ولرسوله.

وكان قد سمع قول النبي ﷺ حينما قال له: يا عدي! إنما يمنعك من الدخول في الدين ما ترى، تقولُ إنما اتَّبعه ضعفةُ الناس، ومن لا قدرة لهم، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم، فوالله! ليوشكَنَّ المالُ أن يفيضَ فيهم، حتى

---

(١) في الأصل (الفَلْس) بضم اللام والتصحيح من طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١٦٤ طبع بيروت. المحقق.

(٢) لو قال (شرحت لك قصتها.. الخ) لكان أوجه. المحقق.

لا يوجد من يأخذه، ولعلكَ إنما يمنعك من الدخول ما ترى من كثرة عدوّهم، وقلّةِ عددهم، أتعرفُ الحيرةَ؟ قال: لم أرها وقد سمعتُ بها، قال: فوالله! ليتمَّنَّ هذا الأمر، حتى تخرجَ المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوارِ أحدٍ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه، أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله! ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم؛ فأسلم عدي بن حاتم وعاش حتى رأى كل ذلك[1].

٣٥٩ ـ وفود هوازن برئاسة زهير بن صرد

جاءت وفود هوازن يرأسهم زهير بن صرد إلى المدينة المنورة، وقصدوا رسول الله ﷺ مُسلمين ومسلّمينَ، وقالوا عند لقائهم برسول الله ﷺ: يا رسول الله! إن فيمن أصبتَهم الأمهات والعمات والخالات وهنَّ مخازي الأقوام، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله! وقال زهير: إن في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنَّ يَكْفُلْنَكَ[2]، ثم قال زهيرٌ يستعطفُه:

امنُنْ علينا رسول الله في كرم ... فإنكَ المرء نرجوهُ وننتظرُ
امنُنْ على نسوةٍ قد كنتَ تَرْضَعُها ... إذ فُوكَ مملوءة من مخضها الدررُ
إنا لنشكُر للنعماء إن كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدَّخرُ
إنا نؤمّلُ عفواً منكَ نلبَسُهُ ... هديُ البريةِ أن تعفُو وتنتصرُ
فألبس العفوَ من قد كنتَ تَرضعهُ ... من أمهاتكَ إن العفوَ مشتهرُ

فقال رسول الله ﷺ: إن أحبَّ الحديثِ إليَّ أصدقُه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما المال، وقد كنتُ انتظرتُكم حتى ظننتُ أنكم لا تَقْدُمُون، فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، اردُدْ علينا نساءنَا وأبناءنا ـ وكانوا قد وقعوا في الأسر ـ فهو أحبُّ إلينا، ولا نتكلم في شاةٍ ولا بعيرٍ، فقال ﷺ: أما مالي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فإذا أنا

(١) انظر كتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) لمحمد الخضري ص ٢٠٩.
(٢) في الأصل (يكفكنك) بفتح الفاء والصواب ضمها كما أثبتنا. المحقق.

صليتُ الظهر فقوموا وقولوا: نحنُ نستشفعُ برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله، بعد أن تظهروا إسلامكم، وتقولوا نحن إخوانكم في الدين، ففعلوا كما ارتأى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أما بعد: فإن إخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين مسلمين، وإني قد رأيتُ أن أردَّ عليهم سَبْيَهُم، فمن أحبَّ أن يطيبَ بذلك فليفعل، ومن أحبَّ منكم أن يكون على حظّه حتى نعطيَهُ إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل»، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ؛ فامتنع من ذلك جماعة من الأعراب كالأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، والعباس بن مرداس فأخذه الرسولُ ﷺ منهم قرضاً؛ وأمر ﷺ بأن تحبس عائلة مالك بن عوف النصري رئيس تلك الحرب بمكة عند عمتهم أم عبد الله بن أبي أمية، فقال له الوفد: أولئك سادتنا، فقال ﷺ: إنما أريد بهم الخير، ثم سأل عن مالك بن عوف؟ فقالوا: هرب مع ثقيف، فقال: أخبروه: أنه إنْ جاءني مسلماً رددتُ عليه أهله وماله، وأعطيته مائةً من الإبل؛ فلما بلغ ذلك مالك بن عوف نزل من الحصن خفيةً، حتى أتى رسول الله ﷺ بالجعرانة فأسلم، وأحرز ماله وأهله وأعطاه ﷺ مائة من الإبل، واستعمله ﷺ على مَنْ أسلم من هوازن.

٣٦٠ ــ وفود صداء بضيافة سعد بن عبادة

صداء: قبيلة تسكن اليمن، ولما وجّه الرسول ﷺ أربعمائة فارس بقيادة قيس بن سعد بن عبادة إليهم؛ فجاء رجل منهم إلى رسول الله وقال يا رسول الله! إني جئتك وافداً عمن ورائي فاردد الجيش، وأنا لك بقومي، فأمر ﷺ بردّ الجيش.

وخرج الرجلُ إلى قومه بصداء، فقدم بخمسة عشر رجلاً منهم، فنزلوا ضيوفاً على سعد بن عبادة الخزرجي، ثم بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، وقالوا: نحنُ لك على من وراءنا من قومنا؛ ولما رجعوا فشا فيهم الإسلام؛ وقدم على رسول الله ﷺ منهم مائة في حجة الوداع.

٣٦١ ـ وفود بني تميم برئاسة عطارد بن حاجب والزبرقان

وفد من تميم وفودٌ برئاسة عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم إلى المدينة، فجلسوا ينتظرون الرسول ﷺ، فلما أبطأ عليهم، نادوا من وراء الحجرات بصوت جافٍّ يا محمد! اخرج إلينا نفاخرك، فإن مدحنا زين، وإن ذمنا شين، فخرج إليهم ﷺ، وقد تأذّى من صياحهم، وفيهم نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيمٌ﴾ (١).

وكان الوقت ظهراً، فأذّنَ بلالٌ ودخل النبيُّ ﷺ للصلاة، فتعلّقُوا به، يقولون نحن ناسٌ من تميم، جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك، فقال لهم ﷺ: «ما بالشعر بُعثنا ولا بالفخار أمرنا»، ثم صلى رسول الله ﷺ الظهرَ، واجتمع حوله رجالُ الوفدِ يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم وقد مدح عمرو بن الأهتم الزبرقان بن بدر، فقال: إنه لمطاع في أنديته سيد في عشيرته، فقال الزبرقان: حسدني يا رسول الله لشرفي، وقد علم أفضل مما قال، فقال عمرو: إنه لزمن المروءة، ضيق العطن، لئيم الخال، فرئي الغضب في وجه رسول الله ﷺ لاختلاف قولي عمرو، فقال يا رسول الله! ﷺ (٢): لقد صدقتُ في الأولى، وما كذبتُ في الثانية، رضيتُ، فقلتُ أحسنَ ما علمتُ وغضبتُ فقلتُ أسوأ ما علمتُ، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان لسحراً» ثم أسلم القومُ، فردَّ النبيُّ ﷺ أسراهم، وأحسن جائزتهم، وأقاموا مدة يتعلمون في المدينة القرآن، ويتفقّهون في الدين، ثم عادوا إلى أهلهم يحملون تعاليم الإسلام وينشرونها في ذويهم وعشائرهم من بني تميم.

٣٦٢ ـ أحداث ووقائع بوفاة زينب ومولد إبراهيم، وهجر النبي ﷺ لنسائه

بعد انتصار رسول الله ﷺ بحنين وحصار الطائف، ومجيء الوفود

---

(١) من سورة الحجرات الآية (٤ و ٥)

(٢) لعل النص (صلى الله عليك) بدل (عليه) المحقق.

العربية للمدينة مبايعةً على الإسلام، واستقرار رسول الله في مقامه بالمدينة، واطمئنانه إلى نصر الله وإلى شيء من سكينة الحياة. لكن سكينة حياته لم تكن يومئذٍ صفواً؛ فقد كانت زينب ابنته ﷺ إذ ذاك مريضةً مرضاً شديداً، خشي منه عليها، وهي منذ آذاها الحويرث وهبّار حين خروجها من مكة مهاجرة، أفزعها فأجهضها، وقد ارتمت على الصخور، وقد ظلّتْ مهدَّمةَ العافية، وانتهى بها المرض بوفاتها.

وبموتها لم يبق للرسول ﷺ من عقبه إلا فاطمة، بعد أن ماتت أم كلثوم، كما ماتت رقية قبل زينب، وحزن النبي عليه الصلاة والسلام لفقدها، وذكر لها رقّةَ شمائلها، وجميل وفائها لزوجها أبي العاص[1] بن الربيع حين بعثت تفتديه من أبيها وقد أسرهُ ببدرٍ، وتفتديه على رغم إسلامها وشركه، وعلى رغم محاربته أباها حرباً لو انتصرت قريش فيها، لما أبقتْ لسيدنا محمدٍ ﷺ على حياة. ذكر لها والدُها رقة شمائلها وجميل وفائها، وذكر ما لاقت من ألمٍ طوال مرضها منذا عادت من مكة إلى وفاتها في المدينة محتسبة ذلك كله لله تعالى؛ وكان والدها الشفوق ﷺ يشارك كلَّ ذي ألمٍ في ألمه، وكلَّ ذي مصابٍ في مصابه، وكان يذهب إلى أطراف المدينة، وإلى ضواحيها، يعود المرضَى، ويواسي البائسين ويأسو جراح المكلومين؛ فإذا أصابه المقدار من الألم في ابنته زينب بعد ما أصابه من قبل في أختيها، وكما أصابه قبل رسالته في إخوتها، فلا جرم أن يحزنَ، ويشتدَّ به الحزن، وإن وجد من برِّ الله ورفقه به ما يعزّيه كما يسلو.

ولم يطل انتظاره في تحمل ما أصابه، أن رزقه الله ولداً من مارية القبطية سماه إبراهيم، تيمناً باسم إبراهيم جد الأنبياء، وكانت مارية يومئذٍ منذُ أهداها المقوقس له، في مرتبة السراري فلم يكن لها من أجل ذلك منزل بجوار المسجد، كما كان لأزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين؛ بل أنزلها بالعالية من ضواحي

(١) في الأصل (أبي العاصي) بإثبات الياء. المحقق.

المدينة في المحلّ الذي يقال له الآن: مَشْرَبةُ أم إبراهيم، بمنزل تحيط به الكروم والنخيل، وكان ﷺ يختلف إليها فيه، كما يزور الرجلُ مِلكَ[1] يمينه.

لقد فاضت نفسُهُ ﷺ بالمسرة بولادة إبراهيم، كما ارتفع شأن أمه بولادته، وقربها إلى أزواجه، فزادت بذلك قرباً، وعند أبي إبراهيم حظوة.

وكان طبيعياً أن تزداد الغيرة في قلوب أمهات المؤمنين حيث لا ولد لهنَّ، وكنَّ يرينَ إكرام رسول الله ﷺ لقابلة مارية أيما[2] إكرام، وكانت قابلتها سلمى زوج أبي رافع، وقد تصدَّق ﷺ بوزن شعره فضةً، على المساكين، وقد دفع ﷺ إبراهيم لأم سيف لرضاعه، وجعل لها سبعة أعنزٍ ترضعه لبنها، وكان كل يوم يمر على إبراهيم ليراه ويستأنس به. حمل النبي ﷺ ولده إبراهيم يوماً بين ذراعيه إلى عائشة وهو فيّاض بالبشر، ودعاها لترى ما بين إبراهيم وبينه من عظيم الشَّبهِ، فنظرتْ عائشة إلى الطفل وقالت: إنها لا ترى بينهما شبهاً، قالت هذا من شدة غيرتها؛ ولما رأت النبيَّ ﷺ فرحاً بنمو الطفل، لاحظت في غضب أن كل طفل ينال من اللبن ما يناله إبراهيمُ يكونُ مثلَهُ أو خيراً منه نموّاً[3].

وهكذا دخلت الغيرة في نفوس زوجات رسول الله ﷺ مما عكر الصفو والوئام في بيت رسول الله ﷺ.

روى الإمام مسلم في صحيحه: أن أبا بكر استأذن على النبي ﷺ دخل بعد أن أذِنَ له، ثم استأذن عمر ودخل بعد الإذن، فوجد النبيَّ ﷺ جالساً، وحوله نساؤه واجماً ساكناً، فقال عمر: لأقولنَّ شيئاً أضحكَ النبيَّ ﷺ، ثم قال: يا رسول الله! لو رأيت بنت خارجة ــ زوجته[4] ــ سألتني النفقة، فقمتُ إليها فوجأتُ عنقها ــ ضربت ــ فضحك رسول الله ﷺ وقال: هُنَّ حولي يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة

---

(١) في الأصل (مُلك) بضم الميم. المحقق.

(٢) في الأصل (إيما). وا سواب ما أثبتناه. المحقق.

(٣) انظر كتاب (حياة محمد) محمد حسين هيكل ص٤٢٩.

(٤) الأفضل (زوجه) بدون تاء. المحقق.

يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألْنَ رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فَقُلْنَ: والله! لا نسأل رسول الله ﷺ أبداً شيئاً ليس عنده.

فنزل قولُ الله تبارك وتعالى بذلك، قال عز وجل: ﴿يا أيها النبيُّ قل لأزواجكَ إن كنتنَّ تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتَها فتعالينَ امتعكنَّ وأسرحكنَّ سراحاً جميلاً، وإن كنتنَّ تُردنَ الله ورسولَهُ والدارَ الآخرة، فإن الله أعدَّ للمحسناتِ منكنَّ أجراً عظيماً﴾[1].

ثم إن نساء النبي كن يأتمرن به، فقد كان إذا صلَّى العصر دار على نسائه فيدنو منهنَّ، فدخل على حفصة في رواية، وعلى زينب بنت جحش في رواية ثانية فاحتبس عندها أكثر مما يحتبس، فأحدث ذلك الغيرة في نفوس سائر نسائه، قالت عائشة: (فتواطأتُ أنا وحفصة أنَّ أيتنا ما دخل عليها النبي ﷺ، فلتقلْ إني أجدُ ريح مغافير، أكلت مغافير) ــ والمغافير شيء حلو له ريح كريهة، وكان النبي ﷺ لا يحب الرائحة الكريهة ــ.

فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: (بل شربتُ عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له)؛ وروت سودةُ، وكانت قد تواطأت على مثل ذلك مع عائشة، أن النبيَّ ﷺ لما دنا منها قالت له: أكلتَ مغافير؟ قال: لا، قالت: فما هذه الريح؟ قال: سقتني حفصةُ شربةً من عسلٍ، قالت: جرست نحلُه العرفط ــ أي رَعَتْ نحلُه شجر العرفط الذي يثمر المغافير ــ.

ودخل ﷺ على عائشة فقالت له ما قالت سودةُ. ثم دخل على صفية فقالت له مثل قولهما، فحرَّمه على نفسه ﷺ. فلما فعل قالت سودة: سبحان الله! والله لقد حرمناه، فنظرت إليها عائشة نظرة ذات مغزىً، وقالت لها: اسكتي.

لقد جعل رسول الله ﷺ لأزواجه هذه المكانة بأن يتمتعن بحريتهنّ [2]، لم

---

(١) من سورة الأحزاب الآيتان (٢٨و٢٩).

(٢) كان من الأفضل أن يقول (يتمتعن بحرية) لينسجم الكلام مع ما بعده. المحقق.

تكن لغيرهنَّ، ولكن الغيرة عند النساء أمر طبيعي، ولقد رأينا لما ولدت مارية ابنها إبراهيم خرجت الغيرةُ بأزواج النبي ﷺ عما أدبهنَّ به.

وقد حدث أن كانت حفصةُ يوماً قد ذهبت إلى بيت أبيها فتحدثَتْ عنده وجاءت ماريةُ إلى النبي ﷺ وهو في دار حفصة، وأقامت بها زمناً معه، وعادت حفصةُ فوجدتها في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها، وهي أشدُّ ما تكون غيرةً، وجعلت كلما طال بها الإنتظار تزداد الغيرةُ بها شدة، فلما خرجت مارية ودخلت حفصةُ على النبي ﷺ، قالت له: (لقد رأيتُ مَنْ كان عندك، والله! لقد سببتَني، وما كنتَ لتصنعها لولا هواني عليك)، وأدرك سيدنا محمدٌ ﷺ أن الغيرة قد تدفع حفصة إلى إذاعة ما رأت والتحدث به إلى عائشة أو إلى غيرها من أزواجه، فأراد إرضاءها بأن حلف لها أن مارية عليه حرامٌ إذا هي لم تذكر مما رأت شيئاً، ووعدتْهُ حفصةُ أن تفعل؛ لكن الغيرة أكلتْ صدرها فلم تُطق كتمانَ ما به، فأسرَّته إلى عائشة، وأومأت هذه[1] إلى النبي ﷺ بما رأى منه، أن حفصة لم تَصُنْ سِرَّهُ، ولعل الأمر لم يقف عند حفصة، وعائشة من أزواج النبي ﷺ، ولعلهنَّ جميعاً وقد رأين ما رفع النبي عليه الصلاة والسلام من مكانة مارية قد تابعن عائشة وحفصة حين ظاهرتا على النبي ﷺ على أثر قصة مارية هذه؛ وإن تكن لذاتها قصة لا شيء فيها، أكثر مما يقع بين رجلٍ وزوجه، أو بين رجلٍ وما ملكتْ يمينُه، مما هو حِلٌّ له، ومما لا موضع فيه لهذه الضجة التي أثارتها إبنتا أبي بكر وعمر، محاولتين أن تقتصّا لذاتيهما من ميل النبيّ ﷺ لمارية؛ ولقد رأينا أن شيئاً من الجفوة وقع بين النبي ﷺ وأزواجه في أوقات مختلفة بسبب النفقة، أو بسبب عسل زينب، أو لغير ذلك من الأسباب، الّتي تدلُّ على أن أزواج النبي ﷺ كنَّ يجدنَ عليه أن يكون

(١) إن هذا الكلام ربما يتعارض مع قوله تعالى (قال نبأني العليم الخبير) فمصدر علمه ﷺ بإفشاء حفصة لسرّه. هو الوحي وليست عائشة بنص الآية الكريمة. هذا وفي النفس شيء من صحة هذه الرواية وربما تكون رواية تحريمه ﷺ العسل على نفسه أقرب إلى القبول من رواية تحريمه (مارية) وعلى أي حال فالمقصود بالتحريم هنا التحريم اللغوي لا الشرعي أي بمعنى المنع. المحقق.

لعائشة أحب، أو أن يكون لمارية أهوى. وبلغت منازعات أمهات المؤمنين في بعض الأحايين، بسبب إيثاره بعضهن بالمحبة على بعضٍ، حدّاً همَّ النبي ﷺ أن يطلق بعضهنَّ لولا أنهنَّ جعلْنَهُ في حِلٍّ، أن يؤثر من يشاء منهنَّ على من يشاء؛ فلما ولدت ماريةُ إبراهيم لجَّت بهنَّ الغيرةُ أعظم لجاج، وكانت بعائشة ألجّ؛ فلا بدَّ من درس فيه حزمٌ وفيه صرامة يردُّ الأمور بين أزواجه إلى نصابها، ويدع له طمأنينة التفكير فيما فرض الله عليه للدعوة إلى رسالته، وليكن هذا الدرس هَجْرهُنَّ، والتهديد بفراقهنَّ، فإن ثُبْنَ إلى رشادهنَّ فذاك، وإلا متَّعهنَّ وسرحهنَّ سراحاً جميلاً. وانقطع النبي ﷺ عن نسائه شهراً كاملاً لا يكلّم أحداً في شأنهنَّ، ولا يجرؤ أحدٌ أن يفاتحه في حديثهنَّ، وفي خلال هذا الشهر، اتَّجه بتفكيره إلى ما يجب عليه وعلى المسلمين للدعوة إلى الإسلام، ولمدّ سلطانه إلى ما وراء شبه الجزيرة، على أن أبا بكر وعمر وأصهار النبي ﷺ جميعاً، كانوا في قلقٍ أشد القلق على ما قُدِّرَ مصيراً لأمهات المؤمنين، وما يتعرَّضْنَ له من غضب رسول الله ﷺ، وما يجرُّ إليه غضب الرسول ﷺ من غضب الله وغضب ملائكته. بل لقد قيل: إن النبي ﷺ طلَّقَ حفصة بنت عمر بعد الذي كان من إفشائها ما وعدتْ أن تكتمه؛ وقد سرى الهمسُ بين المسلمين أن الرسول ﷺ مطلّق أزواجه؛ وأزواجه خلال ذلك مضطربات نادمات أن دفعتْهُنَّ الغيرةُ إلى إيذاء هذا الزوج الرفيق بهنَّ، وهو منهنَّ الأخ والأب والابن وكل ما في الحياة وما وراء الحياة، وجعل الرسول الكريم يقضي أكثر وقته في خزانة له، ذات مشربة، يجلس غلامُه رباحٌ على أسكُفَّتها ــ عتبتها ــ ما أقام هو بالخزانة، ويرقى هو إليها، على جذع من نخلٍ، هو الخشونة كل الخشونة.

وإنه لفي خزانته يومَ أوفى الشهرُ الذي نذر فيه هجر نسائه على التمام، وقد أقام المسلمون بالمسجد مطرقين ينكتون الحصى ويقولون: (طلَّق رسول الله ﷺ نساءه) ويأسوْن لذلك أسَى يبدو على وجوههم واضحاً عميقاً؛ إذ قام عمر من بينهم فقصد إلى مُقام النبي ﷺ بخزانته، ونادى غلامه رباحاً كي يستأذن له على رسول الله ﷺ، ونظر إلى رباح يروم الجواب، فإذا رباح لا يقول شيئاً، علامة أن النبيَّ ﷺ لم يأذن، فكرَّر عمر النداء ولم يجب رباح مرة أخرى، فرفع

عمر صوته قائلاً: (يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله، فإني أظنه ظنَّ أني جئتُ من أجل حفصة، والله! لئن أمرني بضرب عنقها لأضربنَّ عنقها).

وأذن النبي ﷺ فدخل عمر فجلس، ثم أجال بصرَهُ، فيما حوله وبكى، قال الرسول ﷺ: ما يبكيك يا بن الخطاب؟ وكان الذي أبكاه هذا الحصير الذي رأى النبيَّ ﷺ مضجعاً عليه، وقد أثَّر في جنبه، والخزانة لا شيء فيها إلاّ قبضةٌ من شعيرٍ، ومثلها من قرظٍ وأفيقٍ ــ جلدٍ ــ معلقٍ؛ فلما ذكر عمر ما يُبكيه، علَّمه رسولُ الله ﷺ من وجوب الإعراض عن الدنيا، ما ردَّ إليه طمأنينته؛ ثم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله! ما يشقُّ عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهنَّ فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، ثم انعكف يحدّث النبيَّ ﷺ حتى تحسَّرَ الغضبُ عن وجهه، وحتى ضحك، فلما رأى عمرُ ذلك منه ذكر له أمر المسلمين بالمسجد، وما يذكرون من طلاقه نساءه؛ فلما ذكر النبيُّ ﷺ له: أنه لم يطلق نساءه، استأذنه عمر في أن يفضي بالأمر إلى أولئك المقيمين بالمسجد ينتظرون؛ ونزل إلى المسجد فنادى بأعلى صوته: لم يطلّق رسول الله ﷺ نساءه.

وفي هذه الحادثة التشريعية نزل قول الله تعالى: (يا أيها النبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لكَ تبتغي مرضاة أزواجكَ والله غفورٌ رحيم، قد فَرَضَ اللهُ لكم تَحِلَّةَ أيمانِكم واللهُ مولاكم وهو العليم الحكيمُ، وإذْ أسرَّ النبيُّ إلى بعض أزواجه حديثاً، فلما نَبَّأت به وأظهره الله عليه عرَّفَ بعضَهُ وأعرضَ عن بعضٍ، فلما نبَّأها به، قالت من أنبأكَ هذا؟ قال نبأني العليم الخبير، إن تتوبا إلى الله فقد صغتْ قلوبُكما، وإن تظاهرا عليه، فإن الله هو مولاهُ وجبريلُ وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهيرٌ، عسى ربُّهُ إنْ طلَّقكُنَّ أن يبدلَهُ أزواجاً خيراً منكنَّ مسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ سائحاتٍ ثيِّباتٍ وأبكاراً)[1].

وبذلك انتهى الحادث، وثاب إلى نساء النبي ﷺ رشادهنَّ ورجع هو إليهنَّ تائباتٍ عابداتٍ مؤمناتٍ، وعادت إلى حياة رسول الله ﷺ البيتية السكينةُ التي

(١) من سورة التحريم الآيات من (١-٥).

يحتاج إليها كل إنسان لأداء ما فُرض عليه أداؤه.

وكان درساً عظيماً لزوجات النبي ﷺ ومن بعدهن إلى قيام الساعة.

٣٦٣ ــ ردٌّ استغلال رخيص للطعن على صاحب الرسالة

إن ما شرحته فيما مضى عن هجر الرسول ﷺ لنسائه هي خلاصة قصة مارية وحفصة وباقي زوجاته عليه الصلاة والسلام وهو ثابت في كتب التفسير والحديث والسير، وتضافرت الأقوال على صحة وقوعه؛ غير أن بعض المستشرقين يستغلون هذه المسألة و يصطادون بالماء العكر للتضليل، وثلم رسول الإنسانية سيدنا محمد ﷺ لما يضمرون من الحقد الأسود واللؤم الخبيث فيكتبون ويقولون: (إن محمداً كان رجلاً محباً للنساء حباً معيباً). فسيدنا محمدٌ عظيم في بيته، عظيم في أمته، عظيم عند البشرية أجمع فالكاتب النزيه يأبى كل الإباء أن يجعل من إفضاء حفصة لعائشة بأنها وجدتْ زوجها في بيتها مع مولاة له هي ملك يمينه وهي بذلك حلٌ له، سبباً لهجر محمد رسول الله نساءه شهراً كاملاً، وتهديده إياهن جميعاً بأن يطلقهنَّ؛ والنقد النزيه من كاتب عاقل يأبى كذلك أن تكون حكاية العسل سبب هذا الهجر والتهديد؛ فإذا كان الرجلُ عظيماً كمحمدٍ، رفيقاً كمحمدٍ، واسع الصدر طويل الأناة، متصفاً بصفات عالية، وأخلاق سامية شهدت أساطين العلم وفلاسفة الكون بخصاله الحميدة، وآدابه الغالية، التي أقرَّ بها، مؤرخو التاريخ جميعاً على السواء؛ وإنما كان ما قام به ﷺ درساً محمدياً خالصاً لزوجاته مما يدل على سعة عقلية الرسول ﷺ بتنظيم شؤون عياله، كما ينظم أي زوج فيما يرى مصلحة بيته، وهذا أمر طبيعي يقع في كثير من البيوت، ولرب البيت تدبير بيته حسب عقله، ولا عقلية أكبر وأوسع من عقلية رسول الإنسانية البشير النذير والرحمة الكبرى المرسل رحمة للعالمين.

لكن هؤلاء خصوم الإسلام ورسوله يفتشون عن أي ثلمة تلوح لهم، ليضللوا الناس حسب هواهم فيفترون ويختلفون، وقد أبى الحق إلا أن يظهر، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

٣٦٤ ــ غزوة تبوك أو غزوة العسرة

تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، بينه وبين المدينة أربع عشرة مرحلة، وبينه وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة؛ وتبوك الآن في المملكة العربية السعودية، وهي مركز هام للسياحة والنقل، وهي تبعد عن المدينة المنورة سبعمائة وستاً وثمانين[١] كيلو متراً على حسب المقياس في عصرنا الحاضر.

وتسمى هذه الغزوة غزوة العسرة، مأخوذة من قوله تعالى: ﴿الذين اتّبعوهُ في ساعة العسرة﴾[٢] وكانت في شهر رجب سنة تسع من الهجرة (سبتمبر ــ اكتوبر) سنة (٦٣٠) م.

وهي آخر غزواته ﷺ، وكان الوقت حين خروجه حراً شديداً، وقحطاً كبيراً، ولذلك لم يُورِ عنها ﷺ كعادته في سائر الغزوات؛ بل بيَّنها للناس، وأخبرهم أنه يريد الروم، وكانوا من شدة الحر، ينحرون البعير، فيشربون ما في كرشه من الماء. فسميت غزوة العسرة ــ أي الشدة والضيق ــ.

وسببها: ما ورد في كتب السيرة[٣]، أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن ملكهم هرقل قد رزق أصحابه مؤونة سنة، وجلبت قوات هرقل معها قبائل لخم وجذام وعاملة وغسَّان، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء[٤]، وقيل: إن ملكهم الامبراطور هرقل كان في قاعدته حمص. أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بمقصدهِ لبعد الشقة، وكثرة العدوّ، ليأخذ الناسُ عدتهم؛ لذلك بعث إلى مكة وقبائل الأعراب يستنفرهم لهذا الأمر، وحثَّ الموسرين على تجهيز المعسرين، فأنفق عثمانُ بن عفان رضي الله عنه عشرة آلاف دينار،

---

(١) في الأصل (وست وثمانون كيلومتر) والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٢) جزء من الآية رقم (١١٧) من سورة التوبة. المحقق.

(٣) انظر حياة محمد ص٤٣٨. وكتاب (محمد رسول الله) ص٤٥٧. وكتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) ص٢١٠.

(٤) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى.

وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرساً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم![1] ارض عن عثمان فإني راضٍ عنه». وكان أول من جاء بمساعدة الجيش الإسلامي أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقد جاء بماله كله وقد بلغ أربعين ألف درهم، فقال له ﷺ: هل أبقيتَ لأهلك شيئاً؟ قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله؛ وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله، فسأله ﷺ: هل أبقيتَ لهم[2] شيئاً؟ ــ أي لأهله ــ ؟ قال نعم، نصف مالي؛ وجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بمائتي أوقية فضة؛ وتصدَّقَ عاصم بن عدي بسبعينَ وسقاً من تمرٍ، وجاء العباس وطلحة بمالٍ كثيرٍ، وأرسلت النساء بكل ما يقدرنَ عليه من حليهنَّ.

وجاءه ﷺ سبعة أنفسٍ من فقهاء الصحابة وهم يبكون يطلبون من قائدهم ورسولهم ﷺ ما يركبون عليه فقال لهم: ما أجد ما أحملكم عليه، فلما قال لهم ذلك انصرفوا باكين وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ولا على الذين إذا ما أتَوْكَ لتحملهم قلت لا أجدُ ما أحملكم عليه، تولَّوا وأعينُهم تفيضُ من الدمع حزناً ألاَّ يجدوا ما ينفقون﴾[3].

فجهَّزَ عثمانُ ثلاثة منهم، وجهَّزَ العباسُ اثنين، وجهَّزَ ياميُن بنُ عمروٍ اثنين؛ وجاء ناسٌ من المنافقين، يستأذنون رسول الله ﷺ في التخلف من غير علةٍ ولا سببٍ، فأذن لهم، وهم بضعة وثمانون رجلاً، وقال قائل من هؤلاء المنافقين: لا تنفروا في الحرّ، زهادةً في الجهاد، وشكّاً في الحقّ، وإرجافاً بالرسول ﷺ؛ وكان من جملتهم عبد الله بن أبيّ بن سلول، رأس المنافقين القائل: يغزو محمدٌ بني الأصفر ــ الروم ــ مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، يحسب محمدٌ أن قتال بني الأصفر معه اللعب، والله! لكأني أنظر أصحابَهُ مقرنين في الحبال ــ أي أسرى بيد العدو ــ ولما بلغه عن المنافقين مقالتهم في حقّه ﷺ وحق أصحابه، أرسل إليهم عمارَ بن ياسر

(١) انظر كتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) ص ٢١٠.

(٢) لو قال (لأهلك) لكان أفضل لأنهم لم يسبق لهم ذكر. المحقق.

(٣) من سورة براءة آية (٩٢).

يسألهم عما قالوا؟ فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب. وجاء إليه جماعةٌ، منهم: الجد بن قيس، يعتذرون عن الخروج، فقالوا: يا رسول الله! ائذن لنا، ولا تَفْتِنَّا لأنا لا تأمن من نساء بني الأصفر. وجاء إليه المعذِّرُونَ[1] من الأعراب، وهم أصحاب الاعذار من ضعف أو قلةٍ ليؤذن لهم، فأذن لهم وكذلك استأذن كثيرٌ من المنافقين فأذن لهم؛ وقد عتب الله عليه في ذلك الإذن بقوله: (عفا اللهُ عنكَ لِمَ أذنتَ لهم، حتى يتبيَّنَ لكَ الذينَ صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ ثم قال في حقهم: ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وارتابتْ قلوبُهم، فهم في ريبهم يترددُونَ ﴾ ثم كذَّبهم الله تعالى في عذرهم فقال: ﴿ ولو أرادوا الخروجَ لأعدُّوا له عدة ولكن كره اللهُ انبعاثَهم فثبَّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ ثم لكيلا يأسى المسلمون على قعود المنافقين عنهم قال جلَّ ذكرُهُ: (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خَبالاً، ولأوضعوا خلالكم، يبغونكُم الفتنة، وفيكم سمَّاعونَ لهم، واللهُ عليم بالظالمين[3] ﴾. وتخلَّفَ جماعةٌ من المسلمين لا يُتَّهمون في إسلامهم، منهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وأبو خيثمة، ولما خلَّف ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه في أهله قال المنافقون: قد استثقله فتركه، فأسرع إلى رسول الله ﷺ وشكا له ما سمع، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي؟» فرجع علي إلى المدينة. واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة رضي الله عنه، لحراستها. واستخلف على عسكره أبا بكر الصديق رضي الله عنه يصلي بالناس. اجتمع الجيشُ حول قائده ورسوله ﷺ، وكان عددهُ ثلاثين[4] ألفاً، وعدد الخيل فيه عشرة آلاف رأس صالحة للكرّ والفرّ، وكان هذا العدد تاماً عدا مَنْ[5] تخلف مِن[6] المنافقين وبعض الأعراب، وأهل الأعذار.

(١) في الأصل (المعذَّرون) بفتح الذال المشددة والتصحيح من كتاب الله. المحقق.
(٢) الآية رقم (٤٣) من سورة التوبة. المحقق.
(٣) انظر الآيات (٤٥-٤٧). في حق المتخلفين والمنافقين في سورة التوبة.
(٤) في الأصل (ثلاثون) والصواب بالياء كما أثبتناه. المحقق.
(٥) في الأصل (عن) والصواب (من) كما أثبتناه. المحقق.
(٦) لم يذكر في الأصل كلمة (من). المحقق.

قام أبو بكر الصديق في الجيش إماماً كما أوصاه الرسول القائد والجيش في انتظار عودة رسول الله ﷺ من تدبير شؤون المدينة أثناء غيبته؛ وعند حضور النبي القائد تحرك الجيش، وثار النقعُ، وصهلت الخيلُ، وارتفعت نساءُ المدينة على أسطحة المنازل، يشهدْنَ هذا الجحفلَ الجرَّار، يتوجَّهُ مخترقاً الصحراء، ومجتازاً السهول والوهاد، صوب الشام، مستهيناً في سبيل الله بالحرّ والظمأ والمسغبة، تاركاً وراءهُ القواعدَ والخوالف وأهل النفاق؛ لقد حرَّكَ منظرُ الجيش؛ يتقدمه عشرة آلاف فارس، ومنظر النسوة مأخوذات بجلاله وقوته، بعض نفوس لم تحرِّكها دعوةُ الرسول ﷺ فتقاعستْ ولم تتبعه؛ رجع أبو خيثمة بعد أن رأى هذا المنظر، فوجدَ امرأتين له قد رشَّتْ كلُّ واحدة منهما عريشها، وبرَّدَتْ له فيه ماءً، وهيأتْ له فيه طعاماً، فلما رأى الرجلُ ما صنعتا، قال: رسول الله ﷺ في الضَّحِّ والريح والحرّ، وأبو خيثمة في ظلٍّ بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء في ماله مقيم، هيّئا لي زاداً حتى ألحقَ به؛ فهيأتا له زادهُ ولَحِقَ بالجيش لله تعالى، وحباً برسوله.

وسار الجيشُ حتى بلغ الْحِجْر، وبها أطلالٌ لمنازل ثمود منقورة في الصخر، هنالك أمر رسول الله ﷺ بالنزول، فاستقى الناسُ من بئرها، فلما راحوا قال لهم ﷺ: ﴿لا تشربوا من ماثها شيئاً، ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجينٍ عجنتموهُ فاعلفوهُ الإبلَ، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجنَّ أحدٌ منكم الليلة إلا ومعه صاحبٌ له﴾؛ ذلك أن المكان لم يكن أحدٌ يمر به؛ وكانت تعصف فيه أحياناً عواصفُ الرملِ تطمر الناس والإبل، ولقد خرج رجلانِ على خلاف أمر القائد الرسول ﷺ، فاحتملت أحدهما الريح، وطمرت الآخرَ الرمال؛ فلما أصبحوا ألفوا ــ وجدوا ــ هذه الرمالَ قد طمت البئر فلم يبقَ بها ماء، ففزعوا خيفة الظمأ وقدَّرُوا هولَ ما بقي من طول الطريق؛ وإنهم لكذلك إذ مرتْ بهم سحابةٌ أمطرتْهم من فيض كرم الله، فارتووا وأصابوا من الماء ما شاءوا، وزال منهم الفزع، وزاد أكثرهم سروراً، وأقبل بعضُهم على بعضٍ يقول: إنها معجزة للرسول القائد والنبي الكريم. وانطلق الجيشُ بعد ذلك قاصداً تبوك، وكانت الرومُ قد بلغها أمرُ هذا

الجيش وقوته؛ فآثرتِ الانسحابَ بجيشها الذي كانت وجّهتْهُ إلى حدودها ليحتمي داخل بلاد الشام في حصونها. فلما انتهى المسلمون إلى تبوك، وعرف الرسولُ القائدُ أمرَ انسحاب الروم من خوفهم من لقائه، لم يَرَ محلاً لتتبعهم داخلَ بلادهم، وأقام عند الحدود يناجز من شاء أن ينازله أو يقاومه، و يعمل لكفالة هذه الحدود، حتى لا يتخطّى من بعد ذلك إليها أحدٌ؛ وكان (يوحنّا بن رؤبة) صاحب أيْلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود؛ ولقد وجّه إليه النبيُّ ﷺ رسالةً أن يذعن أو يغزوهُ، فأقبل يوحنّا وعلى صدره صليبٌ من ذهب، وقدّم الهدايا والطاعة، وصالح الرسول ﷺ على إعطاء الجزية، كما صالحه أهلُ الجرباء[1]، وأذرح، وأعطوهُ الجزية، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاب أمنٍ. هذا نص الكتاب ليوحنّا:

٣٦٥ ــ كتاب أمن رسول الله ﷺ ليوحنا بن رؤبة وأهل أيْلة

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذه أَمَنَةٌ منَ الله ومحمدٍ رسول الله، ليوحنّا بن رؤبة، وأهل أيْلَةَ، سُفُنُهم وسياراتُهم في البرِّ والبحر، لهم ذمةُ الله ومحمدٍ النبي، ومن كان معهم من أهل الشام و أهلِ اليمن وأهل البحر، فمن أحدثَ منهم حَدَثاً فإنه لا يحول مالُه دونَ نفسهِ، وإنه طَيِّبٌ لمحمدٍ أخذُهُ من الناس، وإنه لا يحلّ أن يمنعوا ماءً يَردونه ولا طريقاً يريدونه من بَرٍّ أو بحرٍ» وإيذاناً بالموافقة على هذا العهد، أهدى محمدٌ إلى يوحنّا رداءً من نسج اليمن، وأحاطه بكل صنوف الرعاية، بعد أن اتفق على أن تدفع أيْلَةُ جزيةً قدرها ثلاثمائة دينارٍ في كل عام[2].

لم يبق للرسول القائد حاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم، و بعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه.

---

(١) الجرباء: قرية بالقرب من عمّان. وأذرح: بلد قرب عمان مجاورة لأرض الحجاز وهي قريبة من الجرباء.

(٢) انظره في كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل ص ٤٤٤.

٣٦٦ ــ انتقاض أُكَيْدر بن عبد الملك الكندي النصراني بدومة الجندل وإرسال خالد بن الوليد إليه

أظهر العداوة أكيدر بن عبد الملك النصراني أمير دومة[١] الجندل، وأعلن مساعدته لجيش الروم إن[٢] من ناحيته، وبلغ الخبر للرسول القائد، فبعث ﷺ إليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس، وانقلب ﷺ بجيشه راجعاً إلى المدينة؛ وأسرع خالدٌ في تنفيذ أمر قائده ورسوله، فانقضَّ على دومة الجندل في غفلةٍ من مليكها، الذي خرج في ليلةٍ مقمرة، ومعه أخ له يسمى حسَّان يطاردان بقر الوحش ولم يلقَ خالدٌ رضي الله عنه مقاومةً تذكر؛ فقتلَ حسانَ وأخذَ أكيدر اسيراً، وهدَّدَهُ بالقتل إن لم تفتح دومةُ الجندل أبوابها، وفتحت المدينةُ الأبواب فداءً لأميرها، وساق خالدٌ منها ألفَيْ بعيرٍ، وثمانمائة شاة، وأربعمائة وَسْقٍ من بُرٍّ، وأربعمائة درع، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق النبي ﷺ في عاصمته وقاعدة الإسلام المدينة المنورة وعرض الرسولُ القائدُ محمد ﷺ الإسلام على أكيدر فأسلم[٣] وأصبح له حليفاً[٤].

وجاء في كتاب قادة الفتح الإسلامي ص ٤٠٣: (أن رسول الله ﷺ حقن دم أكيدر وصالحه على الجزية، وتركه يعود إلى قومه في دومة الجندل). وجاء في كتاب محمد رسول الله ص ٤٦٠: أن أكيدر قبل صلحاً بدفع الجزية وحقن دمه و دم أخيه مُصاد وخلّى سبيلهما.

٣٦٧ ــ المعجزات وخوارق العادات في غزوة تبوك

في هذه الغزوة، وقع لرسول الله ﷺ بعض المعجزات وخوارق العادات، والأخبار بالمغيبات، أذكر للسادة القراء منها:

---

(١) دومة الجندل على سبع مراحل من دمشق بينها و بين المدينة.

(٢) لعل الصواب (إن جاء من ناحية). المحقق.

(٣) ليس في سيرة ابن هشام، ولا في طبقات ابن سعد ما يدل على أنه أسلم. المحقق.

(٤) انظر كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل ص ٤٤٤.

١ ــ كان رسول الله ﷺ حين مرَّ بالحِجرِ نزلها، واستقى الناسُ من بئرها، فلما راحوا منها قال رسول الله ﷺ: لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضئوا منها للصلاة، وما كان من عجينٍ عجنتموهُ، فاعلفوُه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجنَّ أحدٌ منكم الليلةَ إلا ومعه صاحبٌ له، ففعل الناسُ ما أمرهم به الرسول القائد، إلا رجلين من بني ساعدة، خرج أحدهما لحاجتهِ، وخرج الآخرُ في طِلب بعير له؛ فأما الذي ذهب لقضاء حاجته فإنه خنق بالرمال وأتيَ به على آخر نفس، وأما الثاني الذي ذهب لطلب بعيره، فاحتمله الريحُ حتى طرحتْهُ في جبل طيء، فأخبرَ رسول الله ﷺ بذلك، فقال: ألم أنهكم أن يخرج أحدٌ إلا ومعه صاحب؟ ثم دعا للذي أصيب وأتيَ به على آخر نفس، فشفي بإذن الله ودعاء[1] رسوله. وأما الآخر الذي وقع بجبل طيء، فإن طيئاً أهدته لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة وهو سالم.

٢ ــ ولما أصبح الناس ولا ماء معهم، شكوا إلى رسول الله ﷺ فدعا الله تعالى، فأرسل الله عز وجل سحابةً فأمطرت مطراً غزيراً فشرب الناس وارتووا، واحتملوا معهم حاجتهم من الماء لهم ولماشيتهم.

٣ ــ وضلَّتْ ناقةُ رسول الله ﷺ ببعض الطريق، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من بعض أصحابه يقال له: عمارة بن حزم وكان في رحله رجلٌ يدعى (زيد بن لُصيبٍ) القينقاعي، وكان منافقاً، فقال زيد بن لصيب لعمارة بن حزم: أليس يزعم محمد أنه يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فسمع رسول الله ﷺ هذه المقالة وكان عمارة عنده فقال ﷺ: إن رجلاً قال: إن هذا محمداً يخبركم أنه نبي وهو يزعم أنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله! لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلَّني الله عليها، وهي في الوادي من شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوا بها، فذهبوا فجاءوا بها، ثم مضى الجيش سائراً،

---

(١) في الأصل (ودعا) بدون همزة في آخره. المحقق.

والرسول القائد معهم، فجعل يتخلف عنه الرجلُ، فيقولون: يا رسول الله! تخلَّف فلان، فيقول: دعوه، فإن يكُ فيه خيرٌ، فسيلحقه الله بكم، وإن يكُ غير ذلك، فقد أراحكمُ الله منه. حتى قيل: يا رسول الله! تخلَّف؛

٤ ــ أبو ذرٍ الغفاري، وأبطأ به بعيرهُ، فقال: دعوهُ، فإن يكُ فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكمُ الله منه، وتلوَّمَ أبو ذرٍّ على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ أبو ذرٍّ متاعه وحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثرَ رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل الرسولُ القائدُ في بعض منازله، فنظر ناظرٌ من المسلمين فقال: يا رسول الله! إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذرٍّ، فلما تأمله القومُ قالوا: يا رسول الله! إن هذا الرجل هو أبو ذرٍّ، فقال رسول الله ﷺ: (يرحم الله أبا ذرٍّ يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده)، وقد تحقق قوله ﷺ، فإن عثمان بن عفان رضي الله عنه، لما نفَى أبا ذرٍّ، نزل أبو ذرٍّ الرَّبَذَة[1] ــ هي من قرى المدينة ــ فأصابه بها قدره المحتوم ــ الموت ــ ولم يكن معه أحدٌ إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما: أن غسلاني وكفناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول مركبٍ يمرُّ بكم فقولوا: هذا أبو ذرٍّ صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه؛ فلما مات فعلا ذلك به كما أوصى، ثم وضعاه على قارعة الطريق، فأقبل عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه ورهط معه من أهل العراق عُمَّاراً، فلم يرعهم إلا بجنازة على الطريق قد كادت الإبلُ أن تطأها، وقام إليهم الغلام فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه، فاستهلّ عبد الله بن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله: «تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك» ثم نزل هو وأصحابه فواروه، ثم حدثهم ابن مسعود حديثه، وما قال له[2] رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك، وكان ذلك عام (٣٢) هجرية. هذه أمور وقعت في غزوة تبوك، وكرامات من الله لتكريم رسوله ومصطفاه، ومعجزات خارقات تشهد على صدق الرسالة.

(١) في الأصل (الرِّبذَة) بكسر الباء. والصواب فتحها. والتصحيح لسان العرب. المحقق.

(٢) لعل الصواب (وما قاله). المحقق.

٣٦٨ ــ دروس نافعة توحيها لنا غزوة تبوك

١ ــ الأول: يجب على القائد أن يكون مستعداً قبل خوض المعركة مع عدوه، لذا رأينا القائد الرسول، قد هيأ قواته، وجعلها مستعدة كل الاستعداد للذهاب لقتال عدو هو أكثر منه عدداً وعدة كما في تبوك، فقد تفقد الأسلحة ووسائل الركوب، وفحص نفوس جنوده، فرآها على أتم استعداد وأهبة للقاء العدو رغم بعد المسافات، ورداءة الطقس، وشدة الحر.

٢ ــ الثاني: يجب أن يرفع القائد معنويات جنوده أمام الأعداء كما فعل الرسول ﷺ، كما رأينا من توجيهاته الحكيمة وما تحلى به الجنود من التنظيم، وعقد الرايات وتسليمها إلى رجال هم أهل لحمل عبئها، والمسئولية الكبرى المترتبة عليها من الحفظ والتقدم والدفاع؛ كل هذا تحلى به جيش محمد ﷺ حتى أصبح لدى الجيش الإسلامي عقيدة بأنه في إمكانهم محاربة الروم والتغلب عليهم؛ ولم يكن العرب يحلمون قبل الرسول بأنهم يستطيعون صد اعتداء الروم عليهم في عقر دارهم، فأصبحوا يعتقدون أنه بإمكانهم بعد تبوك، محاربة الروم في بلاد الروم نفسها والقضاء على جيوشهم هناك.

٣ ــ الثالث: لقد رأينا انتصار المسلمين على الروم، كما رأينا جماعةً تخلفوا عن تبوك لمرض في قلوبهم؛ نرى بعد ذلك حساب الأعداء لهذه القوى المدربة والملأى بالعقيدة، والمتجهة اتجاهاً صحيحاً وحربها حرباً منظماً لا عشوائياً ولا غوغائياً إنما هو مركز على أمور ثلاثة: الإسلام أو الجزية أو الحرب؛ لذا كان الأعداء يخشون قوة القائد الرسول العظيم، ثم إن هذه القوة أعطت درساً للمتخلفين بسبب ما انطوت عليه بعض النفوس من النفاق أو ضعف الإيمان كما أعطت دروساً لبعض المتخلفين عن دين الله.

٤ ــ الرابع: لقد رأينا الرسول القائد قد دعم الحدود الشمالية التي كانت تربط شبه الجزيرة العربية ببلاد الشام الخاضعة للروم؛ وذلك بعقد المحالفات مع سكان تلك المنطقة وإقبال بعضهم على الإسلام وبدعمه هذا قد حفظ

الحدود من الفساد، وتجاوز العدو للبلاد، كما حفظ البلاد من غربها وشرقها، وجنوبها وشمالها، مما يدل على عظم تفكير القائد، وإصابة مخططه الحربي والتنظيمي والإداري. إن نقاط الارتكاز، ووضع هذا المخطط الصحيح، قد سهَّل مهمة الفتح الإسلامي، على عهد الخلفاء الراشدين، تلاميذ القائد العربي العظيم سيدنا محمد ﷺ؛ ومن هؤلاء الأشبال الذين تعلموا بالمدرسة الإسلامية، وتلقوا دروسهم على من تخرج من جامعة غار حراء الرسول القائد، انطلقت نحو الشمال تفتح أرض الشام، ونحو الشرق تفتح أرض فارس، معلنة لا إله إلا الله، على راياتها عُقد النصر، وتحققت العدالة الاجتماعية، والمساواة الأخوية، ووُصِلت الرحم الإنسانية، وأُنقِذ الإنسان من ظلم أخيه الإنسان.

٣٦٩ ــ رد افتراء صادرٍ من حقودين على الإسلام

يثير بعض المستشرقين المأجورين، من ذوي الأهواء الضالة، افتراءات لا تمت إلى الحقيقة بصلة، فيقولون: (إن الإسلام قد انتشر بالسيف، ومحمداً كان يحب سفك الدماء، وكان يكره الناس على الدخول بدينه). كما قاله كارل بروكلمان، وليم مور، وكيتاني وأضرابهم. وجاء في كتاب التبشير والاستعمار ص٤١: (إن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفةً من سفك الدماء والحروب والمذابح).

وقال لطفي ليفونيال: في القرن السابع للميلاد، برز من الشرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام، الذي أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب، لقد وضع محمدٌ السيفَ في أيدي الذين اتبعوه وتساهل في أقدس قواعد الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب.... إلى آخر هذا الهراء[1].

وجاء في كتاب (تاريخ فرنسا) تأليف هـ. غيومان.و.ف لوستير ص٨٠ قوله: (إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس: أسلموا أو موتوا...).

---

(١) انظر كتاب (البحث عن الدين الحقيقي) تأليف المنسنيور كولي ص٢٢٠.

إن هؤلاء المستشرقين العاملين المأجورين، قد لجأوا إلى وسائل دنيئة ظالمة، استخدموها في هجومهم على الإسلام ونبيّهِ وتعاليمه: ﴿كبرتْ كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾[1].

إن خصوم الإسلام، ونبيِّ[2] الملك العلام، لم يتركوا ميداناً إلا اقتحموه ولا باباً من الفساد والإفساد إلا سلكوه، ولا طريق غواية وضلال إلا ولجوه، في بث سمومهم وافتراءاتهم على هذا الدين القويم؛ الذي حمل للناس مشعل الهداية والنور، وأنقذ البشرية من الظلمات إلى النور، وأزال عنهم الإصر والضيق، وألزمها[3] كلمة التقوى. أقول في الرد على هؤلاء: هذه رسالة سيد الأنبياء وإمام الأصفياء بين يدي السادة القراء، منذ ولادته ﷺ حتى وفاته، هل نرى فيها ما يفتريه هؤلاء المضللون؛ لقد دخل في دين الله على يدي هذا النبي الصادق الأمين الناس بلا قتال ولا إحراج، بل رأينا قريشاً واليهود والروم والغساسنة من العرب تتآمر على قتله صلى الله عليه وسلم وإلحاق الضرر به وبأصحابه، إلى أن أنزل الله تعالى عليه في قرآنه: ﴿أذن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾[4].

فهذه الآية ترشدنا بكل جلاء ووضوح، إلى أن القتال لم يشرع إلا دفاعاً عن النفس، ويتبع ذلك الدفاع عن العرض والمال والكرامة الإنسانية، لا كما يقول هؤلاء الأفاكون، الذين يريدون تغيير الحقائق كما يشتهون، وكما يأمرهم ساداتهم من الطعن والتجريح مما يدل على حقدهم الأسود.

---

(١) جزء من الآية رقم ٥ بسورة الكهف. المحقق.

(٢) في الأصل (ونبيَّ) بفتح الياء المشددة وهو خطأ والصواب كسرها لأن الكلمة معطوفة على «الإسلام». المحقق

(٣) لعل الصواب (وألزمهم). المحقق.

(٤) انظر سورة الحج الآيتان من (٣٩-٤٠).

فالرسول الكريم حينما دخل مكة فاتحاً، نادى أمراء الجيش قائلاً لهم: «ألا يقتلوا أحداً إلا من قاتلهم»[1].

فالنبي ﷺ كان حريصاً على عدم سفك الدماء، غير أن القوم قد تمادوا في العناد، وأصروا على إطفاء النور، مؤثرين الوثنية على وحدانية الله... وقد صدق الشاعر العربي عمر أبو ريشه إذ يقول:

لم يَرِقْهُ سفكُ الدماء ولكن عجزَ الحلمُ في انتزاع الداء
وإذا الحلم لم تجدّ فيه بناءً فأكرم بالسّيف من بناء

هذا في قتاله للعرب، وأما قتاله لليهود الذين عاشوا في ظل أمن الإسلام لكنهم نقضوا العهد، وبطروا النعمة وقالوا لرسول الله ﷺ (يا محمد! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة) يقول ابن الأثير[2]: (فكانوا أول يهودٍ نقضوا ما بينهم وبين رسول الله؛ ثم ذكر قصة المرأة المسلمة التي تعرض لها اليهود في سوق بني قينقاع).

كان الرسول العظيم، محقاً في إجلاء [3] هؤلاء الناقضين والمتآمرين والذين يعتدون على الأعراض المسلمة.

وهكذا قام سيدنا محمد ﷺ يصدح بالحق على مبدأ الكرامة تنفيذاً لأمر الله بقوله: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[4]. أما قولهم بأن محمداً أكره الناس على الدخول بالإسلام، فهذا محض افتراء وتضليل، لأنه ﷺ كان ينفّذ قول الله تبارك وتعالى ﴿لا إكراه في الدين قد تبيَّنَ الرشدُ من الغيّ﴾[5].

ويكفي رداً على هؤلاء قول شيخ المؤرخين (توينبي المعاصر)[6]: (من الميسور أن نسقط الدعوى التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلواً في تجسيم

(١) انظر كتاب الكامل ج ٢ ص ١٦٧.
(٢) انظر (تاريخ الدولة العربية) ص ١٥ ليوليوس فلها وزن.
(٣) في الأصل (جلاء). والصواب ما أثبتناه. المحقق.
(٤) جزء من الآية رقم (٨) من سورة المنافقون. المحقق.
(٥) من سورة البقرة آية رقم (٢٥٦)[١١١].
(٦) انظر كتاب ما يقال عن الإسلام. ص ٢٧.

أثر الإكراه في الدعوة الإسلامية، إذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف، وإنما كان تخييراً بين الإسلام والجزية وهي الخطة التي استحقَّتْ الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في البلاد الإنجليزية على عهد الملكة اليزابيث).

وصفوة القول: أن المسلمين استخدموا الدعوة الحسنة أولاً ثم استخدموا السيف دفاعاً عن العقيدة والنفس والعرض، ثم لإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور، وقمع الظلم والظالمين، وتحرير الإنسان من ظلم أخيه الإنسان، ولإعلاء كلمة الله تعالى.

يقول الحكيم الفيلسوف توماس كارليل: (أية قوة عجيبة تكمن في هذا الدين؟ أية قوة داخلية من قوى الإقناع تنصهر به؟ ومن أي غورٍ سحيقٍ من أغوار النفس الإنسانية ينتزع نداؤه استجابة مزلزلة[1]). فقوله هذا كاف في الرد على من يقول إن الإسلام انتشر بالسيف. وقال غوستاف لوبون: (سيرى القارىء حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن وأن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم)[2].

وقال غوستاف لوبون أيضاً: (ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب) وقال روبرتسون في كتابه (تاريخ شارلكن): (إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعُوا بين الجهاد والتسامح نحو أتباع الأديان الأخرى الذين غلبوهم وتركوهم أحراراً في إقامة شعائرهم الدينية).

وقال ميشود في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية): (إن الإسلام الذي أمر بالجهاد، تسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وهو قد أعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من[3] الضرائب).

---

(١) انظر كتاب (دفاع عن الإسلام) ص ٤٠.

(٢) انظر كتاب (حضارة العرب ترجمة محمد عادل زعيتر لي غوستاف لوبون) ص ١٤٥.

(٣) في الأصل (وأعفاهم من الضرائب). وقد حذفنا كلمة (وأعفاهم) لتكررها. المحقق.

وقال الكونت هنري دي كاستري في كتابه (الإسلام خواطر وسوانح) بعد وصفه الفتوحات الإسلامية، وانتشار الإسلام بين الشعوب أخذ يصف المسلمين بقوله: (فلم يقتلوا أمَّةً أبت الإسلام)[1]، ثم قال: (فلم يكره أحداً عليه بالسيف ولا باللسان، بل دخل القلوبَ عن شوق واختيار، وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالألباب). وذكر الفيلسوف توماس كاريل في كتابه «الأبطال» ص ٧٦ في معرض رَدِّهِ على شبهة انتشار الإسلام بالسيف: (فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف، ولكن ما هو الذي أوجد السيف؟ هو قوة ذلك الدين، وإنه حق، والرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجلٍ واحد، فالذي يعتقده هو فرد، فرد ضدَّ العالم أجمع، فإذا تناول هذا الفرد سيفاً، وقام في وجه الدنيا، فقلَّما والله يضيع، وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه، بأي طريقة حسبما يقتضيه الحال؛ أولم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً، وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون. وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان، أم بأية آلةٍ أخرى؛ فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو الصحافة أو بالنار، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها[2]، فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم).

فهذه شهادات المنصفين من أساطين العلم وفلاسفة الكون تشهد: أن للإسلام قوة هي قوة الإيمان بالمبدأ الذي يخالط الدم واللحم، لأن العقيدة الإسلامية قامت على الأفكار الحرة والدليل القطعي والحجة الدافعة، ولو أنصف هؤلاء الخصوم لما قالوا ما قالوه عن الإسلام ورسوله بل قالوا: إن للإسلام قوة هائلة من الله تعالى يمنحها لمن أحبه من عباده، وهداه لدينه؛ ونادوا جميعاً مرددين قول ليبري: (لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ، لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون).

---

(١) ترجمة أحمد فتحي زغلول ص ٣٩ و ٤٠.

(٢) الأفضل (وأظفارها). المحقق.

والحمدلله ظهر الحق عياناً، واندحر الباطل جهاراً (إن الباطل كان زهوقاً)[1].

٣٧٠ ــ مجموع غزوات الرسول القائد صلوات الله عليه وسلامه والسرايا التي بعثها

بعد أن شرحت للسادة القراء ختام غزواته ﷺ بغزوة تبوك، أرى لزاماً عليَّ، ووفاء للسادة القراء، أن أذكر لهم مجموع ما توقع[2] للرسول القائد من الغزوات خلال سبع سنوات بعد هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، فقد بلغت ثماني[3] وعشرين غزوة، أولها غزوة ودّان التي وقعت في شهر صفر من السنة الثانية للهجرة وآخرها غزوة تبوك التي شرحت عنها، وما توقع[2] فيها من المعجزات لحبيب الله ومصطفاه، وما حصل فيها من دروس نافعة بإذن الله، وكانت في شهر رجب من السنة الثامنة للهجرة.

وقد نشب القتال بين المسلمين الذين هم تحت رايته وقيادته، وبين المشركين أو اليهود بتسع غزوات من تلك الغزوات وهي في: بدرٍ وأُحُدٍ والخندق وقريظة والمصطلق وخيبر وفتح مكة وحنين والطائف؛ بينما فرَّ المشركون في تسع عشرة غزوة منها بدون قتال، ولم يخفق الرسول ﷺ في أية معركةٍ خاضها المسلمون بقيادته الحكيمة، حتى غزوة أُحُد، لم تكن اندحاراً للمسلمين من الناحية العسكرية، كما بينته سابقاً في حين شرحها.

وقد ذكر ابن هشام في سيرته: أنه ﷺ قاد سبعاً وعشرين غزوة، لأنه لم يدرج غزوة بني قينقاع مع غزواته[4].

---

(١) جزء من الآية رقم (٨١) من سورة الإسراء. المحقق.

(٢) لعل الأصوب (وقع) بدل (توقع). المحقق.

(٣) في الأصل (ثمانٍ). المحقق.

(٤) انظر ذلك في الجزء الرابع ص ٢٨٠. وكان عدد السرايا التي بعثها صلى الله عليه وسلم على ما قاله ابن اسحاق في سيرته (٣٨) سرية.

٣٧١ ــ إن الأرض لله، يرثها من عباده الصالحون

إن النتائج التي سجلها جهاد المسلمين بقيادة الرسول القائد ﷺ كانت متوقعة منذ بدأ هذا الجهاد؛ لأن الرسول ﷺ أعدّ وسائل النصر على أعدائه الكثيرين، ولهذا كان واثقاً من النصر التي أيده الله به، ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾[1] لذا كان دائماً يبشّر به أصحابه في كل مناسبة.

وكان لجيشه المخلص، عقيدة راسخة، وأهداف سامية معلومة، ولم يكن لأعدائهم مهما كثروا عقيدة، ولم تكن لهم أهداف، تستحق التضحية والإقدام.

تلك هي أسباب انتصارات الفئة المؤمنة القليلة على الفئة المشركة الكثيرة. وتلك هي أسباب انتصار كل قوة في كل زمان ومكان. إن الأرض لله تعالى، يرثها العباد الصالحون لعمارتها؛ وقد كان المسلمون حينذاك همُ العباد الصالحون[2]، فورثوا الأرض ومن عليها بفضل الله ونصره، وبقوا يحكمونها، حتى غيّرُوا ما بأنفسهم فتبدلت الحال غير الحال.

وسيعيدون[3] سيرتهم الأولى بإذن الله، إذا عادوا إلى الله، وتنفيذ أحكام دينهم بما فيه من تكاليف البذل والعطاء والتضحية والفداء ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[4] وهذا وعدٌ قطعي من الله عز وجل للمؤمنين.

اللهم! سدّد خطانا، وردّنا إلى ديننا، وانصرنا على القوم الكافرين.

٣٧٢ ــ هدم مسجد الضّرار بقُباء بأمر رسول الله ﷺ

لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك وقبل أن يدخل المدينة، جاءه جماعةٌ من المنافقين، وسألوه أن يأتي مسجدهم بقُباء ليصلي فيه

---

(١) جزء من الآية ١٢٦ من سورة آل عمران. المحقق.

(٢) في الأصل (الصالحين) والصواب بالواو كما أثبتنا لأنه نعت لمرفوع. المحقق.

(٣) في الأصل (وسيعدون). المحقق.

(٤) آخر الآية (٤٧) من سورة الروم. المحقق.

وهو (مسجد الضرار) الذي بنوه لإضرار المسلمين، وتفريق كلمتهم وجماعتهم، فدعا ــ طلب ــ رسول الله ﷺ بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فأنزل الله تعالى عليه قوله: ﴿والذين اتّخذوا مسجداً ضِراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسولَهُ من قبلُ، ولَيَحْلِفُنَّ إنْ أردنا إلا الحسنى، واللهُ يشهدُ إنهم لكاذبون، لا تقمْ فيه أبداً﴾[1].

فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخشم، ومعن بن عديّ بن السكن، ووحشياً، وقال: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه واحرقوه، فخرجوا مسرعين، حتى أتَوْا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدُّخشم ــ كما في زاد المعاد ــ فقال مالك: أنظروني[2] حتى آتيكم بنار، فدخل عند أهله، فأخذ من سعف النخل، فأشعله ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه، وهدموه، وتفرق عنه أهله؛ وأمر رسول الله ﷺ أن يتخذوا ذلك الموضع كناسة، أي مجمعاً[3] للقمامات وفيه الجيف. كان أصحاب مسجد الضرار قد أتوه[4] وهو يتجهّزُ إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله! إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال: إني على جناح سفرٍ وحالِ شغلٍ، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم، فلما نزل بذي أوانٍ، أتاه خبرُ المسجد من السماء.

وكان الذين بنوهُ اثنا عشر رجلاً وهم: خذام[5] بن خالد ومن داره أخرج المسجد، وثعلبة بن حاطب، ومُعتِّب بن قُشير، وأبو حبيبة بن الأزعر،

---

(١) من سورة التوبة الآيتان (١٠٧-١٠٨). المحقق.

(٢) في الأصل (انظروني) بدون همزة فوق الألف. والصواب ما أثبتناه لأنه من (أنظر) لا من (نظر). المحقق.

(٣) في الأصل (مجمع) والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٤) (أتوه) الضمير يعود على رسول الله ﷺ. المحقق.

(٥) في الأصل (وهم كل من خذام.. الخ) وقد حذفنا لفظ (كل من) لسبب يتعلق بالإعراب. المحقق.

وعَبَّاد بن حُنيف، وجارية بن عامر وابناه مجمع بن جارية وزيد بن جارية، ونَبْتَلُ بن الحارث، وبَخْزَج بن عثمان ومجاد بن عثمان، ووديعة بن ثابت.

أما مالك بن الدخشم الذي مرَّ ذكرُه وهو أحد الذين هدموا مسجد الضرار فقد كان يتّهم بالنفاق، وهو الذي قال فيه عتبان بن مالك لرسول الله ﷺ إنه منافق، فقال رسول الله ﷺ أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟ فقال: بلى، ولا شهادة له، فقال رسول الله ﷺ: أليس يصلي؟ قال: بلى، ولا صلاة له، فقال رسول الله ﷺ أولئك الذين نهاني الله عنهم، ولا يصح عنه النفاق، وقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه.

٣٧٣ ــ موت رأس المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول

في هذه السنة التاسعة في شهر ذي العقدة، مات رأس المنافقين (عبد الله ابن أبي بن سلول) بعد أن مرض عشرين ليلةً. وحدث أنه لما كان عبد الله مريضاً عادة رسول الله ﷺ فطلب منه أن يصلي عليه إذا مات ويقوم على قبره؛ ثم إنه أرسل إلى الرسول ﷺ يطلب منه قميصه ليكفن فيه[1]، فأرسل إليه القميص الفوقاني ــ أي الثوب ــ فردَّهُ، وطلب منه الذي يلي جسده ليكفن فيه، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تعطي قميصك للرجس النجس، فقال عليه الصلاة والسلام: إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً، فلعل الله يدخل به ألفاً في الإسلام.

وكان المنافقون لا يفارقون عبد الله زعيمهم؛ فلما رأوه يطلب هذا القميص بإلحاح، و يرجو أن ينفعه، أسلم منهم يومئذٍ ألف؛ فلما مات جاء ابنه يعرّفه فقال عليه الصلاة والسلام لابنه: صلِّ عليه وادفنه، فقال: إن لم تصلِّ عليه يا رسول الله! لم يصلِّ عليه مسلمٌ، فقام ﷺ ليصلي عليه، فقام عمرُ فحال بين رسول الله وبين القبلة لئلا يصلي عليه فنزل قول الله تبارك وتعالى: (ولا تُصَلِّ

(١) لعل الصواب أن الذي طلب الصلاة على ابن أبي وطلب من النبي قميصه ليكفّن هو ابنه عبد الله وليس ابن أبي نفسه. المحقق.

على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا وهم فاسقون) [1].

قال العلامة الزجاج: كان رسول الله ﷺ إذا دفن الميت وقف على قبره، ودعا له، فمنع ههنا منه.

وجاء في كتب الصحاح من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: فصلّى عليه ــ أي على عبد الله بن أبي بن سلول ــ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآية: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات...﴾ الآية.

ولم يأخذْ رسول الله ﷺ بقول عمر رضي الله عنه، جرياً على ظاهر حكم الإسلام، واستصحاباً لظاهر الحكم، ثم لإكرام ولده الذي تحقق إيمانه وصلاحه وتقواه، ثم استئلافاً لقومه لدخولهم في الإسلام وقد دخلوا بحكمة النبي ﷺ في تأليف القلوب؛ وعن عبد الله بن عباس قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعاً، يقول: لما توفي عبد الله بن أبيّ بن سلول، ودعا [2] رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحوَّلتُ حتى قمتُ في صدره، فقلت يا رسول الله! أتصلي على عدو الله عبد الله بن أبي بن سلول القائل يوم كذا، كذا وكذا؟ أعدِّدُ أيامه، ورسول الله ﷺ يبتسمُ، حتى إذا أكثرتُ عليه، قال: أخّر عني يا عمر! إني خُيِّرتُ، فاخترتُ، وقد قيل لي ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم [3] سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ [4] فلو أني أعلم أني إن زدت على السبعين غُفر له لزدتُ. قال: ثم صلّى عليه ومشى معه، فقام على قبره حتى فرغ منه؛ قال [5]: أتعجب لي وجرأتي على رسول الله ﷺ؟ والله ورسوله أعلمُ، فوالله! ما كان إلا يسير،

---

(١) من سورة التوبة الآية (٨٤).
(٢) من الذي دعا رسول الله للصلاة عليه؟. المحقق.
(٣) لم يذكر في الأصل (إن تستغفر لهم). المحقق.
(٤) جزء من الآية (٨٠) من سورة التوبة. المحقق.
(٥) (قال) أي: عمر. المحقق.

حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾، فما صلّى رسول الله ﷺ على منافق، ولا قام على قبره، حتى قبضه الله تعالى.

٣٧٤ ــ حجة أبي بكر الصديق امتثالاً لأمر النبي ﷺ

بعث رسول الله ﷺ في السنة التاسعة في شهر ذي الحجة مارس سنة (٦٣١) م. أبا بكر الصديق رضي الله عنه يحج بالناس، فخرج في ثلاثمائة رجلٍ من المدينة، وبعث معه بعشرين بدنة، قلدّها وأشعرها بيده الشريفة؛ وساق أبو بكر رضي الله عنه خمس بدنات. وخرج أبو بكر ومن معه قاصداً مكة لأداء نسك الحج؛ لكن العام قد يتلو العام وتمر الأيام وتنقضي الليالي، والمشركون ما يزالون يحجُّون بيت الله الحرام، أليس بين الرسول ﷺ وبين الناس عهدٌ عام ألا يُصدَّ عن البيت أحدٌ جاءه، ولا يخاف أحدٌ في الشهر الحرام؟ أليست بينه وبين قبائل من العرب عهود إلى آجالٍ مسماة؟ فما دامت هذه العهود، فسيظل بيت الله يحجُّ إليه من يشرك بالله ومن يعبد غير الله، وسيظل المسلمون يرون عبادة الجاهلية تؤدَّى بأعينهم حول الكعبة، وهم بحكم هذه العهود الخاصة، وهذا العهد العام لا قِبَلَ لهم بصدِّ أحدٍ عن حج البيت والعبادة فيه؛ وإذا كانت الأصنام التي يعبدها العرب قد حُطِّم الكثيرُ منها وحطّم منها كل ما كان في الكعبة أو حولها؛ فان هذا الاجتماع في بيت الله المقدّس اجتماعاً يضمُّ الثائرين على الشرك والوثنية والمقيمين على هذا الشرك وهذه الوثنية، تناقض غير مفهوم، وإذا استطاع أحدٌ أن يفهم حج اليهود والنصارى جميعاً إلى بيت المقدس في القدس العربية الإسلامية، على أنه أرض الميعاد لليهود ومولد المسيح للنصارى؛ فلن يستطيع أحد أن يفهم اجتماع عبادتين حول بيتٍ تحطم فيه الكفر والوثنية والأصنام، لذا كان طبيعياً أن يحال بين المشركين وبين الاقتراب من البيت الذي طُهِّرَ من الشرك، ومُحيتْ منه كل معالم الوثنية، وفي هذا نزلت الآيات من سورة براءة، ولكن موسم الحج بدأ والمشركون قد أتى منهم من أتى من كل فجٍّ يقضي مناسك حجه؛ فليكن هذا الاجتماع أوانَ تبليغهم أوامر الله بنقض كل عهدٍ

بين الشرك والإيمان، إلا من عَهْدٍ عُقِدَ لأجلٍ، فإنه يبقَى إلى أجله.

ولهذه الغاية أوفد النبيُّ ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه كي يلحق بأبي بكر، ليخطب الناس بتلاوة الأحكام الواردة في سورة براءة يوم عرفة.

وحضر علي رضي الله عنه في أثر أبي بكر والمسلمين الذين برزوا إلى الحج معه كي يؤدّي رسالته، فلما رآه أبو بكر قال له: أميرٌ أم مأمور؟ قال سيدنا علي: بل مأمور، وأخبره بما جاء منه [1] وأن النبيَّ ﷺ إنما بعثه على ناقته القصواء لينادي في الناس لأنه من أهل بيته؛ فلما اجتمع الناس بمنًى يؤدون مناسكَ الحج، وقف سيدنا علي رضي الله عنه وإلى جانبه أبو هريرة، فنادَى عليّ في الناس يتلو قوله تبارك وتعالى: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير مُعْجزي الله، وأن الله مخزي الكافرين، وأذان منَ الله ورسولِهِ إلى الناس يومَ الحجِّ الأكبر أن الله بريءٌ من المشركينَ ورسوله... ﴾إلى آخر السورة.

قرأها كلها سيدنا عليّ على الناس يوم النحر عند الجمرة، ونبذَ إلى كل ذي عهدٍ عهده، وقال: لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ثم رجعا قافلين إلى المدينة، وكان سيدنا علي رضي الله عنه، يصلي خلف أبي بكرٍ إلى أن رجع إلى المدينة.

ومن ذلك الوقت، وُضعتْ [2] حجر الأساس الذي تقوم عليه الدولة الإسلامية تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

٣٧٥ ــ سرية خالد بن الوليد إلى بني الحارث بنجران

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه في شهر ربيع الأول سنة عشر (يونيو سنة ٦٣١) م في سرية في أربعمائة إلى بني الحارث

---

(١) لعل الصواب (وأخبره بما جاء له). المحقق.

(٢) لعل الصواب (وضع) لا (وضعتْ). المحقق.

ابن كعب بنجران ــ موضع بين اليمن ونجد وهي في جنوب المملكة السعودية للشرق من اليمن ــ، وأمره أن يدعوَهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم، ثلاثاً، فإن استجابوا لكَ، فاقبلْ منهم، وأقمْ فيهم، وعلّمهم كتاب الله وسنة نبيّهِ، ومعالم الإسلام، فإن لم يفعلوا فقاتلهم؛ وكان أهل نجران على شريعة عيسى عليه السلام؛ فخرج خالدٌ حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجهٍ، ويدعون الناس إلى الإسلام ويقولون: يا أيها الناس! أسلموا تسلموا؛ فأسلم الناسُ، ودخلوا فيما دعاهم إليه؛ فأقام خالدٌ فيهم يعلّمهمُ الإسلامَ وكتاب الله وسنة نبيه؛ ثم كتب خالد إلى رسول الله ﷺ بالكتاب التالي:

٣٧٦ ــ كتاب سيدنا خالد لرسول الله ﷺ يبشره فيه بإسلام بني الحارث

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد النبيّ رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد.

السلام عليك يا رسول الله! ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليكَ الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: يا رسول الله! صلى الله عليكَ فإنكَ بعثتني إلى بني الحارث بن كعبٍ، وأمرتني إذا أتيتُهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا قبلتُ منهم وعلمتُهم معالمَ الإسلام وكتابَ الله وسنة نبيِّهِ، وإن لم يسلموا قاتلتُهم؛ وإني قدمتُ عليهم فدعوتُهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ، وبعثتُ فيهم ركباناً، يا بني الحارث! أسلموا تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيمٌ بين أظهرهم، وآمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما ينهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام، وسنة النبي ﷺ حتى يكتبَ إليَّ رسول الله، والسلام عليك يا رسول الله! ورحمة الله وبركاته.

الإمضاء

هذا نص كتاب خالد بن الوليد رضي الله عنه لرسول الله ﷺ، شرح فيه خالدٌ مهمتَهُ، وأنه قام بها خير قيام؛ فكتب إليه رسول الله ﷺ الكتاب التالي.

٣٧٧ ـ نصُّ كتاب رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمدٍ النبيِّ رسولِ الله إلى خالد بن الوليد.

«سلامٌ عليكَ، فإني أحمدُ الله إليكَ الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإن كتابكَ جاءني مع رسلك بنجران تخبر أن[١] بني الحارث قد أسلموا قبل أن يقاتلوا، وأجابوا ما دعوتهم إليه من الاسلام وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن قد هداهمُ الله بهداه، فبشّرهم وأنذرهم وأقبلْ وليقبلْ معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[٢].

الإمضاء: محمد رسول الله.

فأقبل خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ، وأقبل وفد بني الحارث بن كعب، فيهم: قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذو الغصَّة، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المحجَّل، وعبد الله بن قريظ[٣] الزيادي، وشداد بن عبد الله القناني، وعمرو بن عبد الله الصَّبابي.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ فرآهم، قال: مَن هؤلاء القوم، كأنهم رجال الهند؟ قيل: يا رسول الله! هؤلاء بنو الحارث بن كعب، فلما وقفوا عند رسول الله سلموا عليه، فقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله وأنَّكَ رسول الله، فقال رسول الله: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، ثم قال رسول الله: أنتم الذين إذا زُجِروا استقدموا؛ فسكتوا[٤] فلم يراجعه منهم أحد؛ ثم أعادها رسول الله ﷺ الثانية والثالثة والرابعة، فقال يزيد بن عبد المدان: نعم يا رسول الله! نحن الذين إذا زجرنا استقدمنا، فقالها أربع مراتٍ، فقال رسول الله: لو أن خالد بن الوليد لم يكتب إليَّ فيكم أنكم

---

(١) (تخبر أن بني الحارث.. الخ) لم يذكر في الأصل لفظ (تخبر أن) والتصحيح من سيرة ابن هشام. المحقق.

(٢) انظر نص الكتابين في كتاب (محمد رسول الله) ص٤٦٧ وص٤٦٨.

(٣) في سيرة ابن هشام (قراد) بدل (قريظ). المحقق.

(٤) لم يذكر المصنف كلمة (فسكتوا) وقد أثبتناها من المصدر السابق. المحقق.

أسلمتم ولم تقاتلوا، لألقيتُ رؤوسكم تحت أقدامكم، فقال يزيد بن عبد المدان: أما والله يا رسول الله! ما حمدناكَ ولا حمدنا خالداً، فقال: فمن حمدتم؟ قالوا: حمدنا الله الذي هدانا بك، قال: صدقتم، ثم قال رسول الله ﷺ: بِمَ كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: لم نكن نغلبُ أحداً، فقال رسول الله: بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم، قالوا: يا رسول الله! كنا نغلب من قاتلنا إنا كنا بني عبيد[1] وكنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال ﷺ: صدقتم، ثم أمّر رسول الله على بلحارث[2] بن كعب قيس بن الحصين فرجع وفد بلحارث[2] بن كعب إلى قومهم، ولم يمكثوا بعد أن قدموا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله ﷺ[3].

٣٧٨ ــ وفاة إبراهيم ابن[4] رسول الله ﷺ

كان إبراهيم ابن رسول الله ﷺ قد بلغ سنُّه ثمانية عشر شهراً[5]، وكان والده الشفوق الرحيم إذا فرغ من أداء حق الله ورسالته، وحق أهله جميعاً ذهب لزوجه[6] مارية أم إبراهيم، فيطمئن عندها ويأنس[7] بولده الذي ظل يترعرع وينمو، ويزداد شبهه بوالده الرسول ﷺ وضوحاً، وكان والده يحبه حباً جماً، ويزداد قلبه به تعلقاً، وخلال هذه الأشهر كانت حاضنتهُ أم سيف ترضعه وتسقيه لبن الماعز التي أهداها النبيُّ ﷺ لها.

لم يطل هذا الأمل ليطول فقد مرض إبراهيم الطفل مرضاً خيف منه على حياته، فَنُقل إلى نخلٍ بجوار مَشْرَبَةِ أم إبراهيم، وقامت من حوله أمه مارية وأختها سيرين تمرّضانه؛ ولم يطل بالطفل المرض؛ فلما كان في الاحتضار وأخبر

---

(١) لم يذكر في سيرة ابن هشام عبارة (إنا كنا بني عبيد). المحقق.

(٢) صوابها (على بني الحارث) والتصحيح من المصدر السابق. المحقق.

(٣) انظر المصدر السابق ص٤٦٨.

(٤) في الأصل حذفت ألف (ابن) والصواب إثباتها. المحقق.

(٥) في الأصل (ثمانية عشر شهر). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٦) لم تكن (مارية) زوجاً بل كانت (سرية) كما بينا ذلك فيما سبق. المحقق.

(٧) في الأصل (ويؤنس). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

النبي ﷺ بأمره أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يعتمد عليه لشدة ألمه، حتى أتيا إلى النخل بجوار العالية التي تقوم المشربة اليوم مكانها، فوجد إبراهيمَ في حجر أمه، وهو يجود بنفسه، فأخذه فوضعه في حجره، وقلبه يخفق تحناناً ورقةً، و يده تضطرب، وقد ملك الحزنُ عليه فؤاده، و بدت صورة الألم على قسمات وجهه. أجل وضعه في حجره وقال: (إنا يا إبراهيم! لا نُغني عنكَ من الله شيئاً) ثم وجم وذرفت عيناه، والغلامُ يجود بنفسه، وأمه وسيرين تبكيان فلا ينهاهما رسول الله ﷺ.

فلما هدأ الطفل ولم يعد فيه حراك [1]، ولا حياة فيه، وانطفأ بموته ذلك الأمل المشرق في نفس أبيه، ذلك الأمل الذي تفتحت له نفسُ النبي ﷺ زمناً، مات الطفلُ وذبل هذا البرعمُ وكان والدهُ يقول: «يا إبراهيم! لولا أنه أمرٌ حقٌّ، ووعدٌ صدق، وإن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنا عليكَ بأشد من هذا» و بعد أن وجم هنيهةً قال: «تدمعُ العينُ ويحزنُ القلبُ، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا يا إبراهيم لَعلى فراقك لمحزونون». مات الطفل الصغير، ومات ذلك الأمل الكبير، مات كلاهما والأب في الستين من عمره... أي صدمة في ختام العمر؟

أي أملٍ في الحياة؟ الدينُ قد تمَّ، وهذه الآصرة قد انقطعت فليس في الحياة ما يستقبلُ و ينتظر، كل ما فيها إلى إدبار وزوال. مات الطفل إبراهيم ولما يدرك السنتين...

مصاب صغير إن كانت المصائب إنما تقاس بسنوات المفقودين، ولكن المصائب في الأعزاء إنما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم، والصغير أحوج إلى العطف من الكبير المستقل بشأنه؛ وإنما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا، وتعويل الصغير على وليّهِ أكبر من تعويل الكبير.

---

(١) في الأصل (حراكاً) بالنصب. المحقق.

وإنما تقاس بمبلغ الأمل فيهم، والأمل يطول في بداية الطريق وقد يقصر في منتصف الطريق؛ إنما تُقاس آلامُ المفقودين بأعمار الفاقدين؛ وأي مصاب أفدح من مصاب الستين من العمر وما بعدها، في الأمل الوحيد الواصل بينها وبين الزمان ماضيهِ وآتيه.

ما تخيلتُ سيدنا محمداً في موقف أدنَى إلى القلوب الإنسانية من موقفه على قبر الوليد الصغير ذارف العينين، مكظوم الوجه ضارعاً إلى الله. نعم رأى المسلمون ما برسول الله ﷺ من حزنٍ، وحاول حكماؤهم أن يردوه عن الإمعان فيه، فذكّروهُ بما نهَى عنه، فقال: «ما عن الحزنِ نهيتُ، وإنما نهيتُ عن رفع الصوت بالبكاء، وإن ما ترون بي أثرُ[1] ما في القلب من محبة ورحمة، ومن لم يبد الرحمة لم يبدِ غيره عليه الرحمة» ثم نظر إلى مارية وسيرين نظرة عطف، وطلب إليها أن تهوّنا عليها قائلاً: «إنَّ له لمرضعاً في الجنة». ثم بعد أن غسّلته أم بردة أو الفضل بن عباس، حمل من بيت أمه مارية على سرير صغير، وشيَّعه النبيُّ ﷺ وعمه العباس وطائفة من المسلمين إلى البقيع حيث دفن بعد أن صلّى عليه[2] النبيُّ ﷺ فلما تم دفنه أمر الرسولُ ﷺ بسدِّ القبر ثم سوَّى عليه بيده، ورشَّ الماء عليه وجعل علامة عليه وقال: «إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقرُّ عينَ الحيّ، وإن العبدَ إذا عمل عملاً أحبَّ الله أن يُتقنَهُ».

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس، فرأى المسلمون في ذلك معجزة وقالوا: إنها انكسفت لموت إبراهيم، وسمعهم النبي ﷺ فقال لهم: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، ولا ينكسفان لموت أحد» وقد ردَّ على هؤلاء القائلين، ولم يرض ﷺ إلا الحق وقول الصدق.

قال مسيو درمنجم في كتابه حياة محمد في فصل (٢١): إن محمداً كان واسع العقل، فردَّ على هذه الخرافة الجميلة بقوله: (إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحدٍ) وهذه الكلمات لا يقولها مخادع.

---

(١) في الأصل (أثر) بفتح الراء والصواب ما أثبتناه لأنه خبر (إن). المحقق.

(٢) لم يذكر في الأصل لفظ (عليه). المحقق.

قال الإمام النووي في تهذيب الأسماء: وأما ما روي، عن بعض المتقدمين (لو عاش إبراهيم لكان نبياً) فباطل، وجسارة على الكلام في المغيبات ومجازفة، وهجوم على عظيم الزلات [1].

وقد تعزّى ﷺ بفضل الله، وبمتابعته أداء رسالته وبازدياد الإسلام انتشاراً، في الوفود التي كانت ما تفتأ تتوارد إليه من كل صوب حتى لقد دُعيت السنة العاشرة من الهجرة سنة الوفود، وهي السنة التي حج فيها أبو بكر رضي الله عنه بالناس. وكانت وفاة إبراهيم في شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة (يونيو سنة (٦٣١)م.

٣٧٩ ــ عام الوفود الإسلامية على رسول الله ﷺ وعهده لهم

ما كادتْ تُذاع على الناس سورة براءة في موسم الحج بمنى، حتى بدأت الوفودُ تقدم على رسول الله ﷺ ويسألونه عن حقيقة دعوته، ويعلنون الإسلام من غير حاجةٍ إلى إراقة دماء وزهق أرواح، حتى أنزل الله تعالى على رسوله سيدنا محمد ﷺ قوله: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتحُ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبِّحْ بحمد ربك واستغفرْهُ إنه كان تواباً﴾ [2]، ومن أجل هذا النصر المبين، سمي ذلك العام الذي نزلتْ فيه آيات القتال بـ(عام الوفود)، وكان من ضمن الوفود:

١ ــ (وفد بني تميم) وقد جاءوا إليه بعطارد بن حاجب من كبار الخطباء المشهورين بالفصاحة والبلاغة وجزالة اللفظ ورقة العبارة، وكثرة المعاني، وجاءوا بشاعرهم: الزبرقان بن بدر وكان من أكابر الشعراء في عصره، ومشهود له بالتلاعب بالألباب لسحر ألفاظه وقالوا يا محمد! جئناك نفاخرك، فائذن لخطيبنا وشاعرنا فليقولا أمامكَ، فأذِنَ لهم بذلك؛ فتكلم عطارد، وعندما انتهى من مقاله، قال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس: قم فأجب الرجل في

---

(١) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٤٧٠.

(٢) سورة النصر الشريفة بكاملها.

خطبته، فقام ثابتٌ وأجاب، ثم قام شاعرهم الزبرقان فألقى قصيدة في الفخر؛ فدعا رسول الله ﷺ حسان بن ثابت وأمرهُ أن يجيب على ما قال، ففعل وأجاد، ولما فرغ من قوله قال القومُ: إن هذا الرجل لمؤتًى[1] له ــ أي موفق ــ، فخطيبُه ــ أي خطيب النبي ﷺ ــ أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعرُ من شاعرنا، ولأصواتُهم أحلى من أصواتنا؛ وأسلموا له، وأجازهم رسولُ الله ﷺ فأحسنَ جوائزهم.

٢ ــ وكان ممن قدم المدينة على رسول الله ﷺ (وفدُ بني عامر) وفيهم: عامر بن الطفيل، وجبّار بن سلمى، وأربد بن قيس، وقد تآمروا على اغتيال رسول الله ﷺ وعُهد إلى الأخير أربد بن قيس بهذه المهمة، وعندما مثلُوا في حضرة الرسول ﷺ أخذ عامر بن الطفيل زعيم الوفد يشرط لدخوله في الإسلام أن يجعله خليلاً وصاحباً له، والرسول ﷺ يأبى إلا أن يكون الإيمان بالله وحده مجرداً عن أي شرط وغرض دنيويٍّ، ثم انصرفوا من عنده، وعامر يقول لرسول الله ﷺ: لأملأنّها عليك خيلاً ورجلاً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ اكفني أذاهُ» فلما خرجوا من عنده، قال عامر لأربد: ويحك يا أربدُ! أين ما كنتُ أمرتُك به؟ فأجابه أربدُ: والله! ما هممتُ بالذي أمرتني به من قتله، إلا رأيت بيني وبينه حتى ما أرى غيرك، أفأضرب بك بالسيف؟ وما كادوا يمضون في طريقهم إلى بلادهم، حتى أصيب عامر بالطاعون في عنقه فمات في أثناء الطريق قبل أن يصل إلى بلده، ونزلتْ صاعقةٌ على أربد وهو على جمله فأحرقتهما، وأنزل الله تعالى فيهما قوله: ﴿الله يعلم ما تحملُ كلُّ أنثى وما تغيضُ الأرحامُ وما تزداد، وكلُّ شيء عنده بمقدار، عالمُ الغيب والشهادة الكبيرُ المتعال، سوآء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، له مُعَقِّبات من بني يديه ومن خلفه يحفظونهُ من أمر الله، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له، وما لهم من دونه من والٍ﴾[2].

(١) في الأصل (لموتًى) بدون تنوين والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٢) من سورة الرعد الآيات من (٨-١١)[٢٢٢].

٣ ــ وبعثَتْ بنو سعدِ بن بكر زعيمها ضمامَ بنَ ثعلبة، فلما قدم على رسول الله ﷺ، وكان بين أصحابه فلم يميّزه عنهم فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: أنا ابن عبد المطلب، قال ضمامُ بن ثعلبة: أمحمد؟ قال: نعم، قال يا بن عبد المطلب! إني سائلُكَ ومغلظٌ عليك في المسألة، فلا تجدَنَّ عليَّ في نفسك، قال: لا أجد في نفسي فسلْ عما بدا لك، قال: أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولاً؟ قال ﷺ: اللهم! نعم، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان[1] قبلك وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبدهُ وحدهُ، ولا نشرك به شيئاً؟ وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدونها معه؟ قال: اللهمَّ! نعم، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال: اللهم![2] نعم، ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضةً فريضةً الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها، ينشده عند كل فريضةٍ منها كما ينشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال ضمام: فإني أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص؛ ثم انصرف إلى بعيره راجعاً؛ فقال رسول الله ﷺ: إن صدق دخل الجنة.

وخرج ضمامٌ حتى أتى على قومِهِ، فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: بئستِ اللاتُ والعزَّى، قالوا: مَهْ يا ضمام، اتقِ البرصَ، اتقِ الجذامَ، اتقِ الجنونَ، قال: ويلكم إنهما والله لا يضرّان ولا ينفعان، إن الله قد بعثَ رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله عبده ورسولُه، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم[3] عنه فوالله! ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا وقد أسلم[4].

(١) (وإله من كان قبلك) في الأصل بدون لفظ (كان). المحقق.
(٢) (قال اللهم نعم) في الأصل بدون لفظ (اللهم). المحقق.
(٣) في الأصل (وأنهاكم) والصواب ما أثبتناه. المحقق.
(٤) انظر كتاب (التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ ج ١ ص ١٣٤ وفي كتاب (رسالة الإسلام ــ نور بدد الظلام) ص ٢٠٠ وقد أخذته عن الكتاب الثاني.

٤ ــ وقد كان ممن قدم المدينة على النبي ﷺ وفد طيء بزعامة زيد الخيل، فلما انتهوا إليه عرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام فأسلموا، فخرج زيد إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام غير أنه مرض بالحمى أثناء الطريق ومات، فعمدت امرأته إلى ما كان بحقيبته من كتبٍ فأحرقتْها، فبعث رسول الله ﷺ إلى طيء ببعض قومه لهدايتهم، فلما[1] أقبلوا عليهم، وسمع بهم عدي بن حاتم الطائي وكان أشد الناس كراهة لرسول الله ﷺ وكان نصرانياً ــ وقد تقدم خبر إسلامه سالفاً وقد منَّ الرسول على أخته ــ وجاءت به أخته سفانة بنت حاتم، وأسلم عدي وتحدث عن رسول الله بما حدثه به كقوله ﷺ: «فوالله! ليوشكنَّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه. والله! ليوشكنَّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، وايم الله! ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم» قال عدي: فأسلمتُ وأخذ يتحدث بما رآه بعد من إخبار رسول الله ﷺ بما حدثه.

٥ ــ وكان ممن قدم على رسول الله ﷺ وفدُ كِنْدة في ثمانين شخصاً يرأسه (الأشعث بن قيس) فدخلوا عليه ﷺ وقد رجَّلوا شعورهم وتكحلوا ولبسوا جُباب الحبرات ــ أي السود من الجبب ــ عليها سجفٌ من الحرير، فلما رآهم عليه الصلاة والسلام قال: أو لم تسلموا؟ قالوا: نعم، قال: فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟ فشقوه فألقوه، ثم قال الأشعثُ بنُ قيسٍ: يا رسول الله! نحن بنو (آكل المرار، وأنت ابن آكل المرار) إشارة إلى مفاخر كانوا يفتخرون و يعتزّون بها في الجاهلية، أي أنهم من بيوت ملكٍ، فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال: ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب، وربيعة بن الحارث، فلما سمع الأشعث ذلك من رسول الله ﷺ التفت إلى باقي الوفد وقال: والله! لا أسمعُ رجلاً يقولُها إلا ضربتُه ثمانين.

٦ ــ وكان ممن قدم على رسول الله ﷺ رسولٌ من ملوك بني حمير، الحارث

---

(١) لم يذكر المصنف جواب (فلما). المحقق.

بن عبد كُلال، ونعيم بن عبد كُلال، والنعمان قَيْلُ[1] ذي رُعين ومعافر وهمدان، يشعرونه بإسلامهم، ومفارقتهم الشرك وأهله، فكتب إليهم رسول الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمدٍ رسول الله النبي، إلى الحارث بن عبد كُلال، وإلى نُعيم بن عبد كُلال، وإلى النعمان قَيْل[1] ذي رُعين، ومعافر وهَمْدان، أما بعد[2]: فإني أحمدإليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم مُنْقلبنا من أرض الروم، فلقينا بالمدينة قبلغ ما أرسلتم به وخبَّر[3] ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأن الله قد هداكم بِهُداهُ وأصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من الغنائم خُمس الله وسهم الرسول وصفية[4]، وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء، وعلى ما سقى الغربُ نصف العشر، وأن في الإبلِ الأربعين ابنة لبون، وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر، وفي كل خَمسٍ من الإبلِ شاة، وفي كل عشر من الإبلِ شاتان، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع، جَذَعَة أو جَذَع، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة؛ وأنها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصدقة ــ أي الزكاة المفروضة ــ فمن زاد خيراً فهو خير له ومن أدَّى ذلك، وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين ـ فإنه من المؤمنين له ما لهم، وعليه ما عليهم وله ذمة الله وذمة رسوله، وأنه من أسلم من يهودي أو نصراني، فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فلا يردُّ عنها، وعليه

---

(١) (قَيْل) في الأصل (فيل) بالفاء، وهو خطأ. والقَيْل: الملك من ملوك حمير وجمعه (أقيال وقيول) ومنه الحديث: «إلى قيل ذي رُعَيْن» أي ملكها وهي قبيلة من اليمن تنسب إلى (ذي رُعَيْنٍ) أحد ملوك اليمن. من لسان العرب بتصرف. المحقق.

(٢) (أما بعد) في سيرة ابن هشام (أما بعد ذلكم) بزيادة كلمة (ذلكم). المحقق.

(٣) (وخبّر) في سيرة ابن هشام (وخبرنا) بزيادة (نا). المحقق.

(٤) أصل الصفيّ: ما يصطفيه القائد من الغنيمة قبل القسمة. المحقق.

الجزية على كل حالمٍ ذكراً كان أو أنثى، حراً أو عبداً، دينار وافٍ من قيمة المعافر[1] أو عوضه ثياباً، فمن أدى ذلك إلى رسول الله، فإن له ذمة رسوله، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله».

٧ ــ وبعث زُرْعة[2] ذُو يزن من ملوك حمير أيضاً: مالك بن مرة الرهاوي، يشعر بإسلام قومه، فكتب له يقول:

أما بعد: فإن رسول الله محمداً النبي، أرسل إلى زرعة ذي يزنٍ، أن إذا أتاكم رسلي، فأوصيكم بهم خيراً، معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عبادة، وعقبة بن نمر، ومالك بن مرة وأصحابهم، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم، وأبلغوها رسلي، وأن أميرهم معاذ بن جبل، فلا ينقلبنَّ إلا راضياً، أما بعد: فإن محمداً يشهد أن لا إلـه إلا الله وأنه عبده ورسوله، ثم إن مالك بن مُرَّة الرهاوي قد حدثني أنك أسملتَ من أول حمير، وقتلت المشركين فأبشر بخيرٍ، وآمرك بحمير خيراً، ولا تخوّفوا[3] ولا تخاذلوا، فإن رسول الله هو وليُّ غنيّكم وفقيركم، وأن الصدقة لا تحلُّ لمحمدٍ ولا لأهل بيته، إنما هي زكاة يزكىَّ بها على فقراء المسلمين وابن السبيل، وأن مالكاً قد بلّغ الخبر، وحفظ الغيب، وآمركم به خيراً، وإني قد أرسلتُ إليكم من صالحي أهلي، وأولي علمهم[4]، وآمرك بهم خيراً، فإنهم منظورٌ إليهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[5].

الإمضاء.

٨ ــ وكان ممن قدم عليه ﷺ وفدُ بني الحارث بن كعب، وكان قد أرسل إليهم ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه يدعوهم للإسلام فأسلموا بمجرد الدعوة،

---

(١) (المعافر) نوع من ثياب اليمن. المحقق.

(٢) (زُرعة) في الأصل (ذَرعة) بالذال وبفتحها. المحقق.

(٣) في سيرة ابن هشام طبع دار الجيل /بيروت (ولا تخونوا) بدل (ولا تخوّفوا) وكلاهما جائز. المحقق.

(٤) في المصدر المذكور (وأولي دينهم وأولي عملهم). المحقق.

(٥) انظر هذه الكتب في كتاب (رسالة الإسلام نور يبدد الظلام) ص ٢٠٢و٢٠٣.

وحضر معه وفدُهم، فلما قدموا عليه ﷺ ورآهم قال عليه الصلاة والسلام: مَنْ هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟ قيل: يا رسول الله! هؤلاء رجال بني الحارث بن كعب ــ وقد مر ذكرهم في بعث خالد ــ فلما وقفوا على رسول الله سلموا عليه وقالوا: نشهد أنك رسول الله وأنه لا إله إلا الله قال رسول الله ﷺ: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، ثم قال رسول الله ﷺ: أنتم الذين إذا زجروا استقدموا، فسكتوا فلم يراجعه أحدٌ منهم، ثم أعادها ثانيةً، فلم يراجعه أحدٌ منهم، ثم أعادها الثالثة فلم يراجعه أحدٌ منهم، ثم أعادها الرابعة فقال يزيد بن عبد المُدانِ: نعم يا رسول الله! نحن الذين إذا زجروا استقدموا قالها أربع مرات، فقال رسول الله: لو أن خالداً لم يكتب لي أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيتُ رؤسكم تحت أقدامكم، فقال يزيد بن عبد المدان: أما والله! ما حمدناك ولا حمدنا خالداً، قال: فمن حمدتم؟ قالوا: حمدنا الله عز وجل الذي هدانا بك يا رسول الله! فسُرَّ بهذا وقال: صدقتم، ثم قال ﷺ: بم كنتم تغلبون مَنْ قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نفترق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: صدقتم، وأمَّر رسول الله ﷺ على بني الحارث بن كعب واحداً منهم هو قيس بن الحصين، ثم بعث لهم رسول الله عمرو بن حزم ليفقِّههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب له كتاباً عهد إليه فيه عهده وأمره فيه بأمره:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بيان من الله ورسوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود ﴾.

«عهد من محمد النبي رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله، وأن يبشّر الناس بالخير و يأمرهم به، و يعلم الناس القرآن و يفقِّههم فيه، و ينهى الناس فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم، والذي عليهم و يلين للناس في الحق، و يشتد عليهم في الظلم، فإن الله كره الظلمَ ونهى عنه فقال: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ و يبشر

الناسَ بالجنة وبعملها، وينذر الناس النار وعملها، ويستألف الناس حتى يُفَقَّهُوا في الدين، ويعلم الناس معالمَ الحج وسنته وفريضته وما أمر الله به، والحج الأكبر، والحج الأصغر هو العمرة، وينهي الناسَ أن يصلي أحدٌ في ثوب واحدٍ صغير إلا أن يكون ثوباً يثنى طرفيه على عاتقيه، وينهي الناس أن يحتبي[1] أحدٌ في ثوب واحدٍ يُفضي بفَرجِهِ إلى السماء، وينهي أن يعقص أحدٌ شعرَ رأسه في قفاه، وينهى «إذا كان بين الناس هَيْج»[2] عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، وليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له، فمن لم يدعُ إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطفوا بالسيف ــ أي يقطعوا ــ حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء: وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين، ويمسحون برؤوسهم كما أمرهمُ الله، وآمر[3] بالصلاة لوقتها، وإتمام الركوع والسجود والخشوع، ويُغَلّسُ بالصبح. ويهجّر بالهاجرة حين تميل الشمس، وصلاة العصر والشمسُ في الأرض مدبرة[4]، والمغرب حين يقبل الليل، لا يؤخر حتى تبدو نجوم السماء، والعشاء أول الليل، وآمر[3] بالسعي إلى الجمعة إذا نودي لها، والغسل عند الرواح إليها، وآمره[5] أن يأخذ من الغنائم خُمسَ الله، وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عُشرَ ما سقت العينُ وسقت السماء، وعلى ما سقى الغربُ نصف العشر، وفي كل عشرين من الإبل شاتان، وفي كل عشرين أربع شياه؛ وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع جَذَعَةٌ أو جَذَعٌ؛ وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة، فإنها فريضة الله التي افترضَ على المؤمنين في الصدقة؛ فمن زاد خيراً فهو خيرٌ له؛ وأنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من

---

(١) (يحتبي) في الأصل (يختبيء) والصواب ما أثبتناه. ومعنى (يحتبي): يجمع ظهره وساقيه بثوبه أو بعمامته. يقال: حلّ حِبْوَته من لسان العرب بتصرّف. المحقق.

(٢) (هيج) في الأصل (هينع) وهو خطأ. والهَيْج والهِياج والهَيْجا. والهَيْجاء: الحرب لأنها موطن ثورة وغضب. المحقق.

(٣) (وآمر) في سيرة ابن هشام طبع دار الجيل /بيروت (وأمر) أي الله. المحقق.

(٤) في الأصل (مدبرة) بالنصب والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٥) في المصدر السابق (وأمره) بدل (وآمره). المحقق.

نفسه، ودان بدين الإسلام، فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم؛ ومن كان على نصرانيته أو يهوديته، فإنه لا يردُّ عنها، وعلى كل حالمٍ ذكراً أو أنثى، حراً أو عبداً، دينار وافٍ أو عوضه ثياباً؛ فمن أدّى ذلك فإن له ذمة الله وذمة رسوله؛ ومن منع ذلك فإنه عدوٌّ لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً. صلوات الله على محمدٍ، والسلام عليه، ورحمة الله وبركاته»[1].

محمد رسول الله

أقول:

هذا هو دستور الإسلام على لسان سيد الأنام، محمد عليه الصلاة والسلام. وكله نفع للفرد والجماعة، وتلاحم للأمة، وتراصٌّ بين أفرادها إنه بحق سعادة للبشرية جميعاً. ويصدق عليه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

٣٨٠ ــ حجة الوداع لحبيب الله ومصطفاه ﷺ

لقد انقضتْ بقيةُ العام التاسع ومعظم العاشر من الهجرة؛ والنبيُّ ﷺ يستقبلُ الوفود القادمين إليه، معلنين الإسلام وقد أعلن الرسولُ الصادقُ الأمينُ رغبتهُ في أداء فريضة الحج، فما كادت تقبل الأشهر الحرم، حتى اكتظَّتِ المدينة المنورة بالألوف من المسلمين من كل حدبٍ وصوبٍ، من كل بقعةٍ من سائر البلاد العربية المترامية الأطراف، يبتغون الحجَّ في معيتهِ ﷺ؛ ولما كان العام التاسع من الهجرة يوم أن بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه، هو العام الذي صادف فيه إقامة الحج في شهر ذي الحجة، بعدما أحدثه المشركون من تلاعب في مواعيده، وجعله متمشياً مع الشهور الشمسية؛ فقد أمر الرسول ﷺ أن تظلَّ إقامة الحج في مواعيدها التي شرعها الله من عهد سيدنا إبراهيم في اليوم التاسع من ذي الحجة

---

(١) انظر كتاب (رسالة الإسلام) ص ٢٠٤.

من كل عام وأخذ يتهيأ لذلك، حتى اذا كان يوم الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة سنة عشر(١) من الهجرة. خرج رسول الله ﷺ من المدينة، وصحب معه جميع نسائه، وتبعه من المسلمين ما يربُو عن مائة وخمسين ألفاً، يقصدون الحجَّ والعمرة لله، وساق معه ﷺ الهدي، ولما أن بلغ (سَرِفَ) (٢) وهو موضع قريب من أرض التنعيم، أمر الناس أن يحلوا بعمرةٍ، إلا من ساق الهديَ، ولما بلغ مكة في الرابع من ذي الحجة، أمر نساءهُ أن يحللنَ بعمرةٍ أيضاً، فقلن له: فما منعك يا رسول الله أن تحلَّ معنا؟ فقال: أهديتُ ولبدتُ ــ أي وضعتُ على شعري صمغاً لئلا يشعثَ ــ فلا أحلُّ حتى أنحر الهدي؛ وفي يوم الثامن من ذي الحجة ــ ويسمى يوم التروية ــ سار رسول الله ﷺ إلى منى، فضرب بها خيامه، وصلَّى بها فروضه، وقضى الليل حتى مطلع فجر يوم التاسع، فصلَّى الصبح، ثم ركب ناقتهُ حين بزغت الشمسُ متوجهاً إلى عرفات، والناسُ خلفه، حتى بلغها، فحطَّ رحالُه في مقدمتها في مكانٍ يقال له (نمرة) ــ وهو الآن مسجد نمرة ــ وضُربَتْ له هنالك خيمة ــ قبةٌ ــ يستظل تحتها، وانتشر الناسُ في بطن الوادي، وظل هو حتى حان وقتُ الزوال فركب ناقته، وسار حتى بلغ جبل عرفات فقال: هذا الموقف وكل عرفة موقف، وكانت قريشٌ من قبل لا تقف إلا في مزدلفة من دون باقي الناس؛ ولما تكامل جمعُ الناس حول رسول الله ﷺ، حمد الله وأثنى عليه، ثم ألقى خطبته التاريخية، وإنني أقدمها للسادة القراء، بلا زيادة ولا نقص والتي أجمع عليها علماء الإسلام.

٣٨١ ــ نصُّ الخطبة التاريخية الجامعة لرسول الله ﷺ

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الحمد لله نحمدهُ، ونستعينهُ ونستغفرهُ ونتوبُ إليه، ونعوذُ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَنْ

---

(١) جاء في كتاب (زاد المعاد) أنه ﷺ خرج من المدينة نهاراً بعد الظهر ليست بقين من شهر ذي القعدة سنة عشر من الهجرة.

(٢) (سَرِفَ) في الأصل (سَرِفٍ) بكسر الفاء منونة. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

يَهْدِ الله فلا مضلَّ له، ومَنْ يُضللْ فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله، وأحثُّكم على طاعتهِ، وأستفتحُ بالذي هو خير، أما بعد: أيها الناسُ! اسمعوا أبيِّنْ لكم، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ إلى أن تلقوا ربكم، كحرمةِ يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا، وإنكم ستلقَونَ ربكم، فيسألكم عن أعمالكم ألاَ هل بلغتُ؟ اللهمَّ! اشهدْ، فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كلَّ رباً موضوعٌ[1]، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أنه لا ربا[2] وإن أول رباً أبدأ به ربا عمي العباسِ بن عبد المطلب، وإنَّ كلَّ دمٍ كان في الجاهلية موضوعٌ، وإن أول دمائكم أضعُ: دمُ[3] عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مآثر الجاهلية ــ أي مفاخرها ــ موضوعةٌ، غير السدانة[4] والسقاية[5] والعمدُ قودٌ[6]، وشبهُ العَمْد ما قتلَ بالعصا والحجرِ وفيه مائةٌ بعيرٍ. أيها الناس! إن الشيطانَ قد يئس من أن يعبدَ في أرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يُطعْ فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروهُ على دينكم.

أيها الناس! إنما النسيء[7] زيادة في الكفر، يُضَلُّ به الذين كفروا يُحلُّونه عاماً ويحرِّمونه عاماً، ليواطئوا[8] عدةَ ما حرَّم الله، فيحلُّوا ما حرَّم الله، وإن الزمان قد استدارَ كهيئتهِ يومَ خلق الله السماواتِ والارض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعةٌ حرمٌ، ثلاثٌ متواليات وواحدٌ فردٌ: ذو

---

(١) أي مهدر، وضع عنه الشيء أسقطه.

(٢) في الأصل (رباء) بالمد. المحقق.

(٣) في الأصل (دمَ) بالنصب والصواب ما أثبتناه لأنه خبر إن مرفوع. المحقق.

(٤) السدانة: خدمة الكعبة.

(٥) والسقاية: سقاية الحجيج.

(٦) القود: القصاص.

(٧) تأخير حرمة الشهر الى شهر آخر إذا هلَّ وهم في القتال.

(٨) ليوافقوا بتحليل شهر وتحريم شهر آخر بدله.

القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجبُ الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغتُ؟ اللهم اشهد، أما بعدُ أيها الناس! فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهنَّ عليكم حقاً، لكم عليهنَّ ألا يُوَطِّئْنَ فرشكم غيركم، وعليهنَّ ألاَّ يُدْخِلْنَ أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتينَ بفاحشةٍ مُبَيِّنَةٍ، فإن فَعَلْنَ فإن الله قد أذنَ لكم أن تهجروهنَّ في المضاجع وتضربوهنَّ ضرباً غير مبرح ــ غير شديد ــ فإن انتهين فلهنَّ رزقهنَّ وكسوتُهنَّ بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهنَّ عندكم عَوَانٍ ــ أي لكم ــ لا يملكْنَ لأنفسهنَّ شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهنَّ خيراً، ألا هل بلغتُ؟ اللهم اشهد. أيها الناس! إنما المؤمنون إخوة، ولا يحلُّ لامرىءٍ مالُ أخيه، إلا ما أعطاهُ عن طيب نفسٍ منه، فلا تظلمُنَّ أنفسكم، فلا ترجعُنَّ بعدي كفاراً، يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ، فإني قد تركتُ فيكم أمراً بيناً إن اعتصمتُم به فلن تضلوا أبداً، كتابَ الله وسنةَ نبيه، ألا هل بلغتُ؟ اللهم! اشهد. أيها الناس! اسمعوا قولي واعقلوهُ: ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من ترابٍ إنَّ[1] أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليمٌ خبير، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، ألا هل بلغتُ؟ اللهم اشهد، فليبلغ الشاهدُ منكم الغائب، أيها الناس! إن الله قد قسم لكلِّ وارث نصيبهُ من الميراث، ولا تجوزُ وصيةٌ لوارث، ولا تجوزُ وصيةٌ في أكثر من الثلث، والولدُ للفراش، ــ أي لأبيه ــ وللعاهر الحجر ــ أي الرجم أو إقامة الحدّ ــ، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولَّى غيرَ مواليه، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ــ فرضاً ــ ولا عدلاً ــ نفلاً ــ ولا تنفقُ امرأة من بيتها إلا بإذن زوجها، والسلام عليكم ورحمةُ الله.

وكان ﷺ يقول: وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء

---

(١) (إن أكرمكم) في الأصل بدون لفظ (إن). المحقق.

ويخفضها إلى الناس: اللهم اشهد اللهم! اشهد ثلاث مرات. وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا سيدي يا رسول الله! وجزاك الله عنا خير الجزاء»[1].

وكان رسول الله ﷺ يقول كل جملة من خطابه القيّم، وكان ربيعة بن أمية بن خلف يردّدُ الجملة على الناس، جملةً جملةً، ليتأكد من سماعهم لها، ثم ينتقلُ إلى ما بعدها، فلما بلغ خاتمة كلامه وقال: اللهم هل بلّغتُ؟ أجاب الناسُ من كل صوبٍ بكلمة: نعم، فقال حبيب الله ومصطفاه صلى الله عليه وسلم: اللهم اشهد ــ ومعنى اللهم: أي يا ألله اشهد لي أني قد بلغتُ ما أمرتني به.

وأنزل الله تبارك وتعالى عليه قوله في هذا الموقف العظيم: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم، وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾[2]، ثم مضى رسول الله ﷺ إلى مزدلفة التي تبعد عن عرفات سبعة كيلومتراً[3] ومنها إلى منى خمسة كيلومتراً[3] ومنها لمكة ثمانية كيلومتراً[3]، ومن مسجد نمرة لجبل الرحمة خمسة كيلومتراً[3]، فتكون المسافة من بيت الله الحرام إلى عرفة خمساً وعشرين كيلومتراً[3].

ولما وصل عليه الصلاة والسلام إلى مزدلفة صلّى بها المغرب مع العشاء، وقضى فيها ليلته، ثم صلّى الصبح ووقف بالمشعر الحرام على قزح ــ جبل المزدلفة ــ، وقال: هذا موقف وكل المزدلفة موقف، ثم سار إلى منى، حيث نحر بالمنجر ثلاثاً وستين ناقةً، وأتم المائة سيدنا علي رضي الله عنه، وقال رسول الله ﷺ: هنا المنحر، وكل منى منحر، ثم حلق رأسه، ثم مضى يري المؤمنين مناسكهم، ويعلمهم ما فرض الله عليهم من رمي الجمار، وطواف بالبيت وما أحلّ لهم من حجتهم، وما حرّم عليهم، وأخذ ﷺ يردد أمرَهُ بضرورة المحافظة على عدة الشهور[4]، وحرمة بعضها على حسب ما اختصّها به الله، خشية أن

(١) انظر السيرة لابن كثير، وفقه السيرة، والعقد الفريد.
(٢) جزء من الآية (٣) من سورة المائدة. المحقق.
(٣) في الأصل (كيلومتر) والصواب ما أثبتناه. المحقق.
(٤) في الأصل (الشهر) والصواب ما أثبتناه. المحقق.

يعود الناسُ إلى ما أحدثه المشركون من النسيء فيها، فجمع الناس وقال: الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض...

وكان هذا آخر عهده برؤية البيت الحرام، وهذه الحجة التي أكمل الله بها للناس دينهم، وأتم نعمته عليهم، وكانت هي حجة البلاغ التي أشهد الناس فيها على أنه قد بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، وقفل بعدها راجعاً إلى المدينة بعد أن شرح للناس معالم دينهم في خطبته التاريخية الهامة، وكانت هذه الخطبة من حضرة الرسول الكريم في حجة الوداع يوم عرفة في اليوم التاسع من ذي الحجة سنة عشر للهجرة والموافق التاسع من شهر آذار عام (٦٣٢)م.

إنها خطبة تاريخية هامة، لقد حددت واجبات الفرد والجماعة وإنها بحق قانون محمدي عظيم، لاشتمالها على الأسس التي قامت عليها الدولة الإسلامية الحديثة، وإنها قد هتفت بالمساواة بين الناس، وردت الحق إلى نصابه، ورفعت من شأن المرأة بعد أن منحها الإسلام حقوقها كاملة والتي لم تحلم بها لولا الإسلام. لقد حددت الخطبة واجبات الزوجية على الوجه الذي يكفل السعادة للأسرة التي هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع.

حقاً إنها كلمات هدي وإيمان، ومبادىء سلم وأمان، فتح بها ﷺ آذاناً صماء، وقلوباً غلفاً، وعيوناً عمياً، ربط عليه الصلاة والسلام بين القلوب المتنافرة، وجمع بين الصفوف المتفرقة، مع شرحه صلى الله عليه وسلم للحلال والحرام، ودعوته للخير والبرّ والسلام.

٣٨٢ ـ أثر حجة الوداع وانبساط سلطان الدين الإسلامي

تمت بفضل الله تعالى حِجَّةُ الوداع، وذاع دستور المسلمين بين الشعوب المؤمنة، على لسان النبي الصادق الأمين؛ وآن لعشرات الألوف التي أدّتْ فريضة الله في الحج لبيت الله الحرام ممن صحبوا رسو الله ﷺ فيها؛ أن يعودوا إلى ديارهم، فأنجد منهم أهل نجد، وأتْهم أهلُ تهامة، وانحدر إلى الجنوب أهلُ اليمن وحضرموت وما حاذاها؛ وسار الحبيب المصطفى ﷺ

وأصحابه إلى قاعدتهم وحاضرة الإسلام وقاعدة الإيمان، ميممينَ وقاصدين المدينة المنورة؛ حتى إذا بلغوها أقاموا بها في أمنٍ وطمأنينة وراحة بالٍ مع أهلهم وذويهم. أما أمر رسول الله ﷺ وتفكيره فهو متجه لإتمام رسالة الإسلام، وإنقاذ الشعوب الرازحة تحت حكم الروم وفارس بالشام ومصر والعراق، فهو قد أمن من ناحية شبه الجزيرة العربية بعد أن دخل الناسُ في دين الله أفواجاً، وبعد أن جعلت الوفودُ تترىٰ إلى المدينة قاعدة الإسلام وملجأ سيدنا محمدٍ عليه الصلاة والسلام، تُعلنُ الطاعةَ، وتتفيأ ظلال المدينة تحت لواء الإسلام، وبعد أن انحاز العرب جميعاً إلى الدين الحنيف ورسوله القائد الأمين؛ وقد انبسط سلطان الدين المحمدي على كل الأنحاء، وعَنَتِ الوجوهُ للحيّ القيوم، وآمنت القلوب بالله تعالى الواحد القهار.

٣٨٣ ــ بعث أسامة بن زيد بجيش بقيادته إلى الروم بالشام

قلتُ إن تفكير الرسول العظيم كان متجهاً لإنقاذ الشعوب الرازحة تحت ظلم الروم وفارس، وكانت عنايته ﷺ متجهةً لهذه الغاية، ولنشر الإسلام في هذه الربوع؛ والحق أنه ﷺ منذ غزوة مؤتة، ومنذ عاد المسلمون قانعين من الغنيمة بالإياب مكتفين بما أبداه خالدُ بن الوليد من مهارة في المقاومة وفي الانسحاب، كان الرسول ﷺ يحسب لناحية الروم حسابها ويرى توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام حتى لا يعود إليها الذين جَلَوْا عن شبه الجزيرة إلى فلسطين يناوئون أهلها؛ ولهذا جهز الرسول ﷺ بعثاً إلى الشام، وقد أمَّر عليهم أسامة بن زيد رضي الله عنه، بعد أن أقام في المدينة بعد عودته من الحج الأكبر بقية شهر ذي الحجة والمحرم وصفر؛ وقد أمره أن يوطىء الخيلَ تخوم البلقاء والدَّوارم من أرض فلسطين؛ فتجهَّزَ الناس وفيهم الأنصار والمهاجرون الأولون؛ وخرج أسامة بن زيد رضي الله عنه والجيشُ معه إلى الجُرُف ــ اسم موضع قريب من المدينة شمالاً ــ يتجهَّزُون للسفر، إلى فلسطين، وإنهم لفي جهازهم، إذ حال مرضُ

رسول الله ﷺ، ثم اشتدَّ المرض به، صلواتُ الله وسلامه عليه، دون أن يتابعوا السير لأداء المهمة التي كلَّفهم بها رسول الله ﷺ؛ وقد يسأل إنسان كيف يحول مرض رسول الله، دون مسيرة جيشٍ، أمر هو بجهازه وسفره؟ لكنَّ مسيرة جيش إلى الشام، يقطع البيدَ والصحارى أياماً طويلة ليستْ بالأمر الهيِّن، ولم يكن يسهل على المسلمين، والنبيُّ ﷺ أحب إليهم من أنفسهم، أن يتركوا المدينة، وهو يشكو المرض، وهم لا يعلمون ما وراء هذا المرض ثم إنهم لم يعرفوا قطُّ من قبل أنه شكا مرضاً ذا بالٍ، فهو لم يُصَبْ من المرض أكثر من فقد الشهية في السنة السادسة من الهجرة، حين قالوا كذباً: إن اليهود سحروه، ومن ألمٍ أصابه واحتجم من أجله حين أكل من الشاة المسمومة في السنة السابعة من الهجرة؛ فإذا مرض كان طبيعياً أن يخاف محبوهُ وأصحابه وكان طبيعياً أن يخافوا عليه، وهم قد رأوا ما عاناه من مصاعب الحياة خلال عشرين سنة متتابعةً، فهو من بدء جهرِه بالدعوة في مكة، منادياً الناس بعبادة الله وحده، لا شريكَ له، وبترك الأصنام مما كان يعبدُ آباؤهم، قد لقي من العنتِ ما تنوءُ به النفوسُ، مما شَتَّتَ عنه أصحابه الذين أمرهم بالهجرة إلى الحبشة، وما اضطره للاحتماء بشعاب الجبل حين أعلنتْ قريشٌ قطيعته؛ وهو حين هاجر من مكة إلى المدينة بعد بيعة العقبة، قد هاجر في أدق الأحوال وأشدها تعرُّضاً للخطر، وهاجر وهو لا يعرف ما قُدِّرَ له بالمدينة.

ولقد كان بها في الفترة الأولى من مُقامهِ فيها، موضع دَسِّ اليهود وعبثهم ومؤامراتهم عليه؛ فلما نصره الله عز وجل وأذنَ أن يدخل الناسُ من أنحاء البلاد في دين الله أفواجاً، ازداد عمله، وتضاعفت جهودُه؛ وإن له ﷺ لمواقف في بعض الغزوات، يشيبُ [1] لهولها الولدان، وأي موقف أشد موقفاً [2] وهولاً من موقفه يوم أحدٍ؟ حين ولّى المسلمون، وسار هو يصعد في الجبل، ورجال قريش يشتدُّون في تتبعه، ويرمونه حتى كُسرتْ رباعيتُه، وأي موقف أشد هولاً من

(١) في الأصل (ما يشيب) وقد حذفنا كلمة (ما) ليستقيم المعنى. المحقق.

(٢) (وأي موقف أشد موقفاً) في هذه الجملة تكرار لا مبرر له. المحقق.

موقفه يوم حنين؟ حين ارتدَّ المسلمون في عماية الصبح مولِّين الأدبار.

رأى أصحاب رسول الله ﷺ هذا كله، فإذا مرض خافوا عليه، وتمهلوا في السير في معسكرهم بالجرف حتى تطمئن نفوسهم عليه ﷺ.

٣٨٤ ــ وفاة رسول الله ﷺ وما حدث في أثنائها

مرض رسول الله ﷺ في أواخر شهر صفر سنة عشر من الهجرة عام (٦٣٢) م وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً وكان في ابتداء مرضه، في بيت ميمونة، ورأى نفسه في حاجةٍ إلى التمريض؛ هنالك دعا نساءهُ إليه في بيت ميمونة، واستأذنهنَّ بعد أن رأينَ حاله، أن يمرَّض في بيت عائشة، وأذِنَ له أزواجُه في الانتقال، فخرج عاصباً رأسه، يعتمد في مسيرته على عليّ بن أبي طالب وعلى عمه العباس رضي الله عنهما، وقدماه الشريفتانِ لا تكادانِ تحملانه حتى دخل بيتَ عائشة. وزادَتْ به الحمَّى في الأيام الأولى من مرضه، حتى شعر كأن به لهباً منها، وعندما خفَّتْ عنه قليلاً، وَصَبَبْنَ عليه ماء القرب السبع حتى طفق يقول: حسبُكم حسبُكم ــ أي يكفيكم؛ ثم لبس ثيابه وعَصَبَ رأسه، وخرج إلى المسجد وجلس على المنبر، فحمد الله ثم صلى على أصحابِ أحدٍ واستغفر لهم، وأكثر من الصلاة عليهم ثم قال: «أيها الناس! أنفذُوا بَعْثَ أسامة، فلعمري! لئن قلتم في إمارته، لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقاً لها». وسكت ﷺ هنيهةً خيَّم الصمتُ على الناس أثناءها، ثم عاد إلى الحديث فقال: «إن عبداً من عباد الله، خيَّرَهُ الله بين الدنيا[1] وبين ما عنده، فاختار ما عند الله»، وسكت عليه الصلاة والسلام، والناس كأنما على رؤوسهم الطير؛ لكن أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه، أدرك أن النبيَّ ﷺ إنما يعني بهذه العبارة الأخيرة نفسه، فلم يستطع لرقَّة وجدانه، وعظيم صداقته للنبي ﷺ أن يمسك عن البكاء، فأجهش بالبكاء وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا؛ وخشي ﷺ

(١) (بين الدنيا) في الأصل (بين الدنيا والآخرة) والصواب حذفها. والتصحيح من سيرة ابن هشام طبع دار الجيل /بيروت. المحقق.

أن تمتدّ عدوى التأثر من أبي بكر الصديق إلى الناس، فأشار إليه قائلاً: على رسْلك يا أبا بكر! ثم أمر أن تقفل جميع الأبواب المؤدية إلى المسجد إلاّ باب أبي بكر، فلما أقفلتْ قال: إني لا أعلمُ أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه، وإني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكن صحبةٌ وإخاء وإيمان، حتى يجمع الله بيننا عنده، ونزل رسول الله ﷺ عن المنبر، يريدُ أن يعود بعد ذلك إلى بيت عائشة، على أنه لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال: «يا معشر المهاجرين! استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون، والأنصارُ على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عيبتي ــ أي خاصّتي وموضع سري ــ التي أويتُ إليها، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم».

وفي يوم غده، حاول أن يقوم ليصلي بالناس كما عوَّدهم فإذا هو لا يقدر؛ إذ ذاك قال: «مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس» فقالت عائشة: إن أبا بكر رجلٌ رقيقُ الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن، قال ﷺ: مروهُ فليصلِّ بالناس، فكررت عائشة قولها، فصاح ﷺ والمرضُ يهزّه: إنكنَّ صواحب يوسف، مروهُ فليصلِّ بالناس، وصلى أبو بكر بالناس كما أمر ﷺ.

وبلغتْ به ﷺ شدَّةُ المرض حدّاً آلمه، ذلك أن الحمَّى زادت به، حتى لقد كانت عليه قطيفة، فإذا وضع أزواجه أو عوّادُه أيديهم فوقها شعروا بحرِّ هذه الحمَّى؛ وكانت ابنتُه فاطمة الزهراء رضي الله عنها تعودهُ كل يوم، وكان يحبها لأنها الباقية له من كل عَقِبه، لذلك كانت إذا دخلت عليه، قام إليها وأجلسها في مجلسه؛ فلما بلغ منه المرضُ هذا المبلغ دخلت عليه فقبلتْهُ، فقال: مرحباً يا بنتي، ثم أجلسها إلى جانبه، وأسر إليها حديثاً فبكتْ، ثم أسرَّ إليها حديثاً آخر فضحكتْ، فسألتها عائشة في ذلك، فقالت: ما كنت لأفشي سِرَّ رسول الله ﷺ، فلما مات ذكرتْ أنه أسرَّ إليها أنه سيقبضُ في مرضه هذا فبكتْ ثم أسرَّ أنها أول من يلحقه من أهله فضحكتْ.

وتناقل الناسُ ما بلغ من اشتداد المرض بالنبي ﷺ حتى هبط أسامةُ وهبط

الناس معه من الجرف إلى المدينة. ودخل أسامة عليه ﷺ في بيت عائشة، فإذا هو قد أصمت فلا يتكلم، فلما بَصُرَ بأسامة جعل يرفعُ يَدَهُ إلى السماء ثم يضعها على أسامة علامة الدعاء له.

وفي اليوم التالي صحا ﷺ وكان أبو بكر يصلي بالناس فصلّى[1] قاعداً لجانبه وبعد انتهاء الصلاة، أقبل على الناس، رافعاً صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد فقال: «أيها الناس! سُعِّرَتْ النارُ، وأقبلتِ الفتنُ كقِطَعِ الليل المظلم وإني والله! ما تمسّكون عليَّ بشيء، إني والله! لم أحلَّ إلا ما أحلَّ القرآن، ولم[2] أحرِّم إلا ما حرَّم القرآن، ولعن الله قوماً اتخذوا قبورهم[3] مساجد».

وكان هذا الصحو للنبي ﷺ الصحو الذي يسبق الموت فقد كان يزداد بعد دخوله إلى البيت في كل لحظةٍ ضعفاً، وكان يرى الموت يدنو، ولم يبق لديه ريبٌ في أنه لم يبق له في الحياة إلا سويعات؛ وفي شهر يونيو سنة (٦٣٢)م اشتدَّ به المرض وتفاقم، فدعا بإناء فيه ماء بارد، صار يضع يده فيه، ويمسح بمائه وجهه؛ ودخل آنئذٍ رجلٌ من آل أبي بكر على عائشة وفي يده سواك، فنظر رسول الله ﷺ إليه نظراً يدلُّ على أنه يريده، فأخذته عائشة من قريبها، ومضغتْهُ له حتى لان، وأعطتْهُ إياه، فاستاك به، وإنه قد شقَّ عليه النزعُ، فتوجّه[4] إلى الله تعالى يدعوه: «اللهم! أعنّي على سكرات الموت»، قالت عائشة: وكان رأسُ النبي ﷺ في ذه الساعة في حجرها: (وجدتُ رسول الله ﷺ يثقلُ في حجري، فذهبتُ أنظرُ في وجهه، فإذا بصره قد شخص وهو يقول: بل الرفيقَ الأعلى من الجنة، قلتُ: خُيِّرْتَ يا رسول الله فاخترتَ، والذي بعثك بالحق! وقبض رسول الله ﷺ بين سَحْري ونحري ــ أي كان

---

(١) في الأصل (صلى) بدون فاء. والصواب بالفاء كما أثبتنا. المحقق.

(٢) في الأصل (ولا) بدل (ولم) والتصحيح من سيرة ابن هشام طبع دار الجيل /بيروت. المحقق.

(٣) (قبورهم) لعل صوابها (قبور أنبيائهم). المحقق.

(٤) في الأصل (توجه) بدون فاء. والصواب ما أثبتناه لربط الكلمة بما قبلها. المحقق.

مسنداً إلى ما يحاذي الرئة من صدرها، لأن السحر: الرئة ــ وهو في حجري ثم وضعتُ رأسه على وسادةٍ، وقمتُ ألتدم مع النساء وأضربُ وجهي).

٣٨٥ ــ هول المسلمين لخبر الوفاة، وعمر يكذب، ومجيء أبي بكر من السُّنح

اختار النبي ﷺ الرفيقَ الأعلى في بيت عائشة رضي الله عنها، وفوجيء المسلمون بالمسجد بهذه الضجة؛ لأنهم رأوا النبي ﷺ في الصباح، وكل شيء يدل على أنه عُوفي، مما جعل أبا بكر الصديق يذهب إلى زوجه بنت خارجة بالسُّنح، لذلك أسرع عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه إلى حيث كان جثمانُ النبي ﷺ وهو لا يصدق أنه مات، ذهب فكشف عن وجهه فألفاه[1] لا حراك به، فحسبه في غيبوبةٍ لا بدَّ أن يفيق منها، وعبثاً حاول المغيرةُ إقناعه بالحقيقة الأليمة، فقد ظلَّ مؤمناً بأن محمداً لم يمتْ؛ فلما ألحَّ المغيرة عليه قال له: كذبت. وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح: (إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد تُوفي، وإنه والله! ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلةً، ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات، ووالله! ليرجعَنَّ رسولُ الله كما رجع موسى، فليقطعنَّ أيدي رجالٍ وأرجلهم زعموا أنه قد مات)[2]. واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر يرسل الواحدة تلو الأخرى، وهم في حال أشبه شيء بالذهول، حقاً إنها فاجعة كبرى أليمة، ورزء فادح أصاب المسلمين.

ألا إنْ كان محمد الحبيب قد مات ولحقَ بالرفيق الأعلى، فواحرَّ قلباهُ، وما للعيون من حرج أن تسكب الدموع.

لقد أحاطت جموع المسلمين بعمر، وهم أدنَى إلى تصديقه وإلى الإيمان

---

(١) (فألفاه) في الأصل (فألقاه) بالقاف ومعنى (فألفاه): فوجده. المحقق.

(٢) عن كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل ص٤٨٨.

بقوله، بأن رسول الله لم يمت، وكيف يموتُ وقد كان معهم منذ ساعات يرونه ويسمعون إلى صوته الجهوري وإلى دعائه واستغفاره؟ كيف يموت وهو خليل الله الذي اصطفى لتبليغ رسالته، وقد دانت له العرب كلها؟ وكيف يموت وهو هذه القوة التي هزَّت العالم مدى ثلاث وعشرين سنة، أحدثت أعنف ثورة روحية عرفها[1] التاريخ؟

والمسلمون على هذه الحال بين واجم وعاكف، وبين باكٍ ومتأوِّه، وبين مدهوش ومتحيّر، وبين قائل وصامت، إذ أقبل أبو بكر آتياً[2] من السُّنْح وقد بلغه الخبرُ الفادح، وأبصر المسلمين وعمر يخطبهم، فلم يقف طويلاً، ولم يلتفت إلى شيء، بل قصد إلى بيت عائشة فاستأذن ليدخل، فقيل له: لا حاجة لأحدٍ اليوم بإذن، فدخل فألفى سيد الوجود محمداً ﷺ مُسجًّى في ناحيةٍ من البيت، عليه بُرْدٌ حَبْرَة ــ أي برد يماني موشى مخطط ــ فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثم أقبل عليه يقبّلهُ وقال: ما أطيبك حياً! وما أطيبك ميتاً! ثم إنه أخذ رأس النبي ﷺ بين يديه وهو يطيل النظر في معارف وجهه ﷺ التي بقيت لم يُنكرها عدوان الموت عليها وقال رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي! ثم أعاد الرأس إلى الوسادة، ثم خرج وعمرُ ما يزال يتكلّم أمام الناس ويُقنعُهم بأن محمداً لم يمت؛ وأفسح[3] الناسُ طريقاً لأبي بكر، فلما دنا من عمر ناداه: على رسلك يا عمر! أنصتْ؛ لكن عمر أبى أن يسكت أو ينصت، واستمر يتكلم، فأقبل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على الناس، وأشار إليهم بأنه يكلمهم؛ ومن كأبي بكر في هذا المقام؟ أليس هو الصدّيق صفي النبي ﷺ ومن لو اتخذ النبيُّ ﷺ خليلاً لاتخذه خليلاً؟ لذلك أسرع الناسُ إلى تلبية دعوته وانصرفوا إليه عن عمر رضي الله عنه، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس! إنه من كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات، ومَنْ كان يعبدُ الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبلِهِ الرسلُ أفإنْ مات أو قُتِلَ انقلبتم على

(١) (عرفها) في الأصل (عرف) بدون «ها». المحقق.

(٢) في الأصل (آت) والصواب ما أثبتناه لأنه حال منصوب. المحقق.

(٣) في الأصل (وفسح) والصواب ما أثبتناه. المحقق.

أعقابكم، ومن ينقلبْ على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً، وسيجزي الله[1] الشاكرين﴾[2].

وكان عمر قد أنصتَ حين رأى انصرافَ الناس إلى أبي بكرٍ، فلما سمع أبا بكرٍ يتلُو هذه الآية خرَّ إلى الأرض، ما تحمله رجلاهُ، موقناً أن رسول الله ﷺ قد مات؛ وأما الناسُ فقد أخِذُوا من قبلُ بأقوال عمر، حتى لقد ألفوا أنفسهم إذ سمعوا هذه الآية يتلوها أبو بكر، وكأنهم لم يكونوا يعلمون أنها نزلت، وكذلك زايل القلوبَ كل شكٍّ في أن محمداً قد اختار جوارَ الرفيق الأعلى، وأن الله قد ضمَّهُ إليه. وأن ذكره ﷺ سيبقى يعطّر الكون كله على مر الأيام وانقضاء السنين؛ فلا عجب إذا اقتنع عمر بن الخطاب بأن سيدنا محمداً ﷺ لا يمكن أن يموت؛ وهو حقاً لم يمت ولن يموت. وسيبقى ذكره إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها[3] وإليه المآب والمصير.

وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين، في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، الذي هو تتمة عشر سنين للهجرة، فارق الحياة ﷺ بعد أن أدَّى الأمانة حقَّ أدائها، وهدى الناس إلى الصراط المستقيم، ودعاهم إلى عبادة الله الرحمن الرحيم. وبوفاته حزنت النفوس حزناً شديداً على فراقه، اللهم! آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد.

٣٨٦ ــ دفنه عليه الصلاة والسلام في حجرة عائشة رضي الله عنها

بقي ﷺ في بيته على وسادته مسجًّى، حتى تمت البيعةُ لأبي بكر الصديق خليفةً على المسلمين، ينهض بالأعباء التي كان يقوم بها ﷺ، حسب ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ.

---

(١) (وسيجزي الله الشاكرين) لم يذكر في الأصل لفظ (الله). المحقق.

(٢) من سورة آل عمران آية (١٤٤).

(٣) (ومن عليها) لم تذكر في الأصل وقد استحسنا إثباتها. المحقق.

أقبل الناس على جهاز رسول الله كي يدفنوه، وقد اختلفوا؛ منهم من يريد دفنه بمكة مسقط رأسه، ومنهم من يريد دفنه بالمسجد الأقصى حيث مدفن الأنبياء والمرسلين، واتفقوا أخيراً أن يدفن بالمدينة التي آوتْهُ ونصرتْهُ والتي استظلت بلواء الإسلام قبل غيرها؛ وتحدَّثُوا أين يدفن؟ قال فريقٌ منهم: يدفن بالمسجد حيث كان يخطب الناس ويعظهم ويصلي بهم، ويبلغهم أحكام الإسلام ويفقههم في الدين، ورأى هؤلاء أن يدفن حيث المنبر أو إلى جانبه؛ لكن هذا الرأي لم يلبث أن رفض، لما روي عن عائشة أن النبي ﷺ كان عليه رداء أسود حين اشتدَّ به وجعُه، فكان يضعه مرة على وجهه ويكشفه مرة عنه وهو يقول: «قاتل الله قوماً اتخذُوا قبور أنبيائهم مساجد». ثم قضى أبو بكر بين الناس إذ قال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما قُبِضَ نبيٌّ إلا دُفِنَ حيثُ يُقْبضُ»، وبذلك تقرر أن يحفر له مكان الفراش الذي قُبض فوقه.

٣٨٧ ــ غسلُ النبيِّ ﷺ ووداع الجثمان الطاهر الأخير[1]

وتولَّى غُسْل النبيِّ ﷺ أهله الأقربون، وفي مقدمتهم سيدنا علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وولداهُ الفضلُ، وقُثم[2]، وأسامة بن زيدٍ رضي الله عنهم. وكان أسامة بن زيد وشُقران مولى النبي ﷺ هما اللذان يصبان الماء عليه، وعليٌّ يغسّله وعليه قميصه، فقد أبوا أن ينزعوا عنه القميص؛ وكانوا أثناء ذلك يجدون به طيباً حتى كان عليٌّ رضي الله عنه يقول: بأبي أنتَ وأمي! ما أطيبك حيّاً وميتاً! فلما فرغوا من غسله وعليه قميصه كُفِّنَ في ثلاثةِ أثوابٍ، ثوبين صُحَاريين ــ نسبة لبلدٍ في اليمن ــ وبُرْدٍ حَبَرةٍ أُدرج فيه إدراجاً؛ ولما تمَّ الجهازُ على هذا النحو، تُرِكَ الجثمانُ حيث كان، وفُتحتِ الأبواب للمسلمين، يدخلون من ناحية المسجد يطوفون، يُلقونَ على نبيهم ورسولهم نظرة الوداع، ويصلون على النبي ﷺ ثم يخرجون، وقد هَوى الحزنُ بنفوسهم إلى قرارٍ سحيق.

---

(١) لو قال (وتوديع الجثمان الطاهر إلى مقرّه الأخير) لكان أوجه وأوضح. المحقق.

(٢) صوابه (قُثم) بالثاء لا بالتاء. المحقق.

وامتلأتِ الحجرة الشريفة حين دخل أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه وعمر بن الخطاب يصليانِ مع المسلمين، لا يؤمهم في صلاتهم هذه أحدٌ، فلما استوى الناسُ بالمكان، وقد علاهم الصمتُ قال أبو بكر: (السلامُ عليكَ يا رسول الله! ورحمة الله وبركاته، نشهد أن نبيَّ الله ورسوله قد بلَّغَ رسالةَ ربّه، وجاهدَ في سبيله حتى أتمَّ اللهُ النصرَ لدينهِ، وأنه وَفَى بوعدهِ، وأمر أن لا نعبدَ إلا الله وحده لا شريكَ له) وكان المسلمون يجيبونَ عند كل جملةٍ من كلام أبي بكرٍ في هيبةٍ وخشوعٍ: آمين آمين. فلما فرغ الرجالُ من صلاتهم وخرجوا، أدخل النساءُ ثم أدخل الصبيانُ من بعدهم، وهؤلاء وأولئك جميعاً كلٌّ واجفٌ قلبُه محزون، وفؤاده مكلوم، يَفْري الأسى كبده[1] لفراق رسول الله خاتم النبيين وإمام المرسلين.

٣٨٨ ــ من ساعات التاريخ الرهيبة

إني لأستعيد بالقارىء الكريم الساعة، من ألف وثلاثمائة وسبع وتسعين عاماً من ذلك اليوم[2]، صورة المشهد الرهيب، مشهد وفاة حبيب الله ومصطفاه، فتمتلىء النفوس هيبةً وخشوعاً ورهبة؛ هذا الجثمانُ الطاهر المسجَّى في ناحيةٍ من الحجرة الشريفة التي ستصبح غداً قبراً، والتي كانت إلى أمس بساكنها حياةً ورحمةً ونوراً؛ هذا الجثمان الطاهر لذلك الرجل الذي دعا الناس إلى الهدى والحق وكان لهم المثل الأعلى في البر والرحمة والإقدام والهدى وإنصاف المظلوم، والانتصاف من كل معتدٍ أثيم، محطم الوثنية، ومزيل عبادة الطاغوت[3] ورحمة الله للعالمين.

وهذه الجموع تمرُّ به كاسفة البال، كسيرة الطرف مكلومة القلب، محرقة الفؤاد؛ وكلُّ رجلٍ، وكل امرأة، وكل صبي، يذكر في هذا المسجَّى الذي

(١) في الأصل (يفري الأسى كبدُه) بضم الدال وهو خطأ والصواب فتح الدال لأنه مفعول به منصوب. المحقق.

(٢) هذا عند تأليف الكتاب. أما الآن فستة وأربعمائة عام. المحقق.

(٣) (ومزيل الطاغوت) في الأصل (ومزيل الطاغوت والإسلام) فحذفنا كلمة (والإسلام) لما يترتب على إثباتها من فساد لا يخفى. المحقق.

اختار جوار ربه والتحق بالرفيق الأعلى، كل من هؤلاء يذكر به أباه وأخاه وصاحبه ووفيّه. يذكر أنه نبيُّ الله ورسولُه، فتمتلىء العيون بالدمع، واللسان بالآهات والقلب بالفجيعة.

أي شعور تمتلىء به القلوب العامرة بالإيمان الممتلئة إشفاقاً مما يخبّئه[1] الغد بعد موت الرسول العظيم سيدنا محمد ﷺ؟

إنني أستعيدُ الساعة صورة المشهد الرهيب، فأراني شاخصاً له مع السادة أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، مأخوذاً به، ممتلىء القلب من جلال هيبته، أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه بديلاً، والشاهد على ذلك، دموعي الهاطلة على لحيتي المخضَّبة بالشيب والدمع يغسلها تحناناً على رسول الله ومشاركةً لآله الأطهار وصحابته الأبرار، والله خير الشاهدين.

٣٨٩ ـ دفن الجثمان الطاهر الشريف

بعد أن مرَّ المسلمون بالجثمان الطاهر الشريف، وودَّعوهُ الوداعَ الأخير؛ اعتزم أهل النبي ﷺ دفنه حسب عادة أهل المدينة، لحداً على يد أبي طلحة زيد بن سهل رضي الله عنه.

فانتظر أهله ﷺ حتى مضى هزيع من الليل، وفرشوا القبرَ برداء أحمر، كان النبي ﷺ يلبسه، ثم أنزله الذين تولوا غسله إلى المقر الأخير لرفاته عليه الصلاة والسلام، وبنوا فوقه باللبن، وأهالوا التراب فوق القبر، قالت عائشة: ما علمنا بدفنِ رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل، وقالت فاطمة رضي الله عنها مثل قول عائشة.

وكان دفنه ليلة الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول.

وظلت عائشة من بعد ذلك تعيش بمنزلها في الحجرة المجاورة لحجرة القبر، سعيدة بهذا الجوار الكريم؛ ولما مات أبو بكر دُفِنَ إلى جوار النبي ﷺ، كما دفن عمر بن الخطاب إلى جواره من بعدُ.

---

(١) (يخبئه الغد) في الأصل (يخبأ الغد). المحقق.

ويروَى أن عائشة كانت تزور حجرة القبر سافرة، إلى أن دفن عمر بها إذ لم يكن بها إلى يومئذٍ غير أبيها وزوجها، فلما دُفِنَ عمرُ كانت لا تدخل إلا متحجبة لابسة كامل ثيابها.

٣٩٠ ــ بعض شمائله وصفاته ﷺ وخطبه

نبي الرحمة، وبحر الحكمة، وإمام الهدى، وعين الكمال.

لو سأل سائل عن سيدنا محمدٍ ﷺ نبي الإسلام والمسلمين؟ لأجيب: بأنه البحر الزاخر، والبدر المنير، والسراج الوهاج، والروح الذي تجلّى عليه الوحي، فجلى من أسرار الملك والملكوت شيئاً غريباً. والحق الذي سدده الحق، ففتح في الفضل والفضيلة والدين والدنيا فتحاً قريباً.

لازمته الرعاية قبل النبوة، فكان أميناً في الأرض، أميناً في السماء؛ لاحظتْهُ العناية الربانية في البعثة، فكان مؤيد الحجة في المحجة البيضاء؛ سرى إليه المدد الإلهي، فكان في جميع الأقوال والأفعال نبي الرحمة، وبحر الحكمة، وإمام الهدى، وعين الكمال.

فُطم عن ثدي السيدة حليمة، لكن الأخلاق الكريمة والأذواق السليمة، والأعراق القويمة، لم يزل منها يرضع، وفيها يرتع، وعليها يترعرع، حتى نشأ، والعناية له خادمة، حتى طلع والهداية له ملازمة، حتى سما، وأشخاص الكمال فيه قائمة، حتى نما وآيات الحق عليه حاكمة، حتى أشرقت شمس النبوة الكاملة، وتدفقت ينابيع الحكمة الفاضلة.

فكان ﷺ قبل النبوة وافر الأدب، زاهر الحسب، باهر الجلال، وكان بعدها نبي الرحمة، وبحر الحكمة، وإما الهدى، وعين الكمال.

إذا كانت مباني الأهرام دليلاً على قوة الأقدمين، فمباني الإسلام دليل على حكمة رب العالمين، ومعالي نبي الإسلام آية للقدر العالي والفضل المبين.

دعا سيدنا محمدٌ ﷺ دعوة الدليل الصادق، إلى خير السبل، وصبر على الإيذاء صبْر أولي العزم من الرسل، برز وحيداً فريداً بين أجلاف جُفاة، غلاظ

شداد عتاة، لا ناصر له إلا أن يضع سيف الحق في رقاب الأباطيل، لا مستمدَّ له إلا أنه يترجم عن لسان الوحي الجليل.

لقي أشد ما يلقاه حقٌّ من باطلٍ، وعالم من جاهلٍ، تدفَّقَتْ ينابيعُ حكمتِه، وبهَرتْ الأبصارَ شمسُ رسالتِه، وتغلغلت في القلوب آياتُ شريعتِه.

فأصبح الأعرابيُّ الجلفُ حكيماً، والعربيُّ الغضوبُ حليماً، والقاسي الغليظُ رحيماً، والبخيل الحريصُ كريماً، والمفتونُ بالدنيا زاهداً، والمشركُ بالله عابداً، والكسلانُ نشيطاً قوياً، والخاملُ نبيهاً ذكيّاً، والجاهلُ عالماً، والمفرِّطُ حازماً، والجبناء شجعاناً، والأعداء إخواناً.

جاء سيدُ الوجود محمدٌ ﷺ وأوروبا لم تبصر نور المدنية إلا في سم الخياط، والشرق مقلب الكيان يمشي في افتتان ويصبح في اختباط، والعرب نار الحمية من بين أيديهم تتوقد، والعالم كله بصنوف الكوارث مهدَّد، والأخلاق على أقصى أنواع الوحشية، وإرادة الرعاة قد سلبت مختارات الرعية.

جاء سيدنا محمدٌ ﷺ فلم يكن ملكاً حَشَدَ وَحَشر، ونهى وأمر، بل نبياً حشد إلى الهدى عبيد الأضاليل، وإلى التوحيد عبَّاد التماثيل، وإلى الحق أبناء الأباطيل.

حشر في القلوب القاسية رأفةً ورحمةً، وفي الأخلاق الغليظة رقةً وحكمةً، وفي الأرواح الخبيثة طهارة وذِمَّةً، وفي الأشباح الفاترة نشاطاً وهمةً.

نهَى عن إفشاء الأسرار، ومصاحبة الأشرار، والنظر إلى بيت الجار، نهَى عن أكل الأمانات، وسب الأموات، وقذف المحصنات، نهَى عن التنفير والتعسير، والتغرير والتحقير، والتبذير والتقتير، نهى عن الفحش[1] والفحشاء، والكذب والافتراء، والجدال والمراء، والسمعة والرياء. نهى عن التباغض والتنازع، والتحاسد والتقاطع، والتجالد والتصارع، نهى عن البذاءة والسبّ، والمثلة والضرب، والازدراء والعيب، نهَى عن التشبه بالأعاجم، والقسوة على البهائم،

(١) في الأصل (نهى الفحش) بدون لفظ (عن). المحقق.

والفرار من الملاحم، نهى عن الغيبة والاستماع، والنميمة والنزاع، والمكر والخداع، وكل رديء من العادات والطباع.

أمر ببرِّ الوالدين، والعمل للدارين، وحفظ اللسان والعين.

أمر بصلة الأرحام وإلانة الكلام، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام.

أمر بحفظ العهود، ومراقبة الرب المعبود، وملاحظة واجب الوجود في الوجود، لطلب رضا الرب الودود.

أمر بالمساواة والعدل، والتآخي والبذل، والرفق والمهل.

أمر بالصبر عند الصدمة، والشكر على النعمة، والجد في الخدمة. أمر بما فيه سعادة العالمين، وهناءة[1] الرعايا والسلاطين.

أمر على الجملة بما فيه صلاح الدنيا والدين، والسعادة في جنات النعيم.

فهل بعد هذه الخصال والفعال يقال: إنه رجل ساحر محتال؟ أو هو ملك عاقل كما قال من قال؟

هو ولا جدال، نبي الرحمة، وبحر الحكمة، وإمام الهدى، وعين الكمال.

ـ أخلاقه ﷺ:

بشاشة في لين، وإخلاص في يقين، عزيمة في دين، ذكر في استغفار، دعاء في إذكار، سكينة في وقار، تعليم في تهذيب، تشريع في تأديب، (وإنك لعلي خلقٍ عظيم) أدبني ربي فأحسن تأديبي، تدبير في ترتيب، إحسان في معاملة، لطف في مجاملة، ابتسام في مقابلة، سداد رأي في الآراء، صدق في وفاء، عفاف في حياء؛ صبر في حلم، حكمة في علم، حزم في عزم، فهم في حزم، عفو في إحسان، قوة في برهان، زهد في تكلان.

---

(١) في الأصل (وجور) بدل (وهناءة) وقد تصرفنا هذا التصرف دفعاً للفساد المترتب على كلمة (وجود) في هذا المقام. المحقق.

خشوع في صلاة، خنوع في مناجاة، قنوع في حياة. معروف في برّ، حفظ في سر، تؤدة في كلام، صيام في قيام. عدل في أحكام. بذل في سماحة، عقل في رجاحة، قول في فصاحة.

خطارة في شأن، تواضع في سلطان، توفيق في مداراة، صمت في أناة.

إيفاء بالعهد، وفاء بالوعد، حسن في القصد، رأفة بالمؤمنين، رحمة بالمساكين.

عزة لا أخذاً بالصلف، علو لا فخراً بالشرف، سيادة لا عن مال، فوز لا باحتيال، أبهة في جمال، هيبة في جلال. هو بالإجمال، كما شهد الحق، ودل الصدق، ونطق الحال. نبي الرحمة، وبحر الحكمة، وإمام الهدى، وعين الكمال.

ـ حالتُه المعاشية:

عاش سيدنا محمدٌ ﷺ لم يلبس حريراً ولا ذهباً، ولم يأخذ إلى الأبهة أهبةً ولا سبباً.

لم يقل ﷺ: أين سطوة الملوك وعترة السلاطين؟ بل قال: (اللهمَّ! أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين)، لم يُوحَ إليه: أن اجمع المال وكن من التاجرين المثرين، بل أوحي إليه: (أنْ سبِّحْ بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبُدْ ربَّك حتى يأتيك اليقين).

ما جمع بين إدامينِ في طعام، بل أثنى على الملح والزيت والخلّ، وقال: «نعم الادام الخلّ».

لم تمسَّ يدُه يد امرأة أجنبية قط، ترفّعاً عن مواطن الريبة، وتشريعاً لأمته ﷺ.

لم يغتسل عرياناً قط، حياءً من الله، وملاحظةً لعظمته تعالى. كان لا يحقر مسكيناً لحاجته وفقره، ولا يهابُ ملكاً لرفعةِ قدره، كان يستحي من الله، إذا أراد دخول بيت الخلاء، حتى كان يتقنَّعُ بردائهِ من شدة الحياء من ربّه.

كان يلبس ما وجد، فمرة جبةَ صوفٍ، ومرة بُرْدَ حبرةٍ، ومرة ثوبَ قطنٍ، ومرة شملةً.

كان يركبُ ما وجد، فمرة فرساً، ومرة بعيراً، ومرة حماراً، ومرة بغلةً.

كان يأكلُ مع الفقراء والمساكين والخدم، ويبشُّ في وجوههم ويفرح.

كان لا يجزي بالسيئة السيئة، بل يعفو ويصفح، ويقابلُ السيئةَ بالإحسان.

كان يساعدُ أهلَ بيتهِ في الخدمة؛ كان يحتطب ثم يحمل الحطب وهو سيدُ الأمة.

كان يجلس حيث انتهى به المجلس، حتى إنه لم يكن يُعرف من بين أصحابه.

كان الأعرابي إذا جاء يسأل عن دينه، لا يعرفه، فيسأل عنه، حتى يهتدي إلى جنابه؛ كان على رغم أنف كل معاند وخصم، وعدو وقوّالٍ: «نبي الرحمة، وبحر الحكمة، وإمام الهدى، وعين الكمال. ﷺ».

ـ شريعته ﷺ:

أما شريعته المطهرة، فحدِّثْ عنها ولا حرج؛ فإنه ﷺ لم يشِنْ مقام الإلهيّة باتّحادٍ أو حلول أو صلب، ولا مقام الأنبياء بزنا أو سكرٍ أو سب، ولم يضيّق على النفوس بزوجة واحدة أو منع طلاق، ولم يرض بفضيحة الاعتراف بالذنوب على الإطلاق.

هذا هو سيد الوجود سيدنا محمدٌ ﷺ، وهذه سيرته العطرة وشريعته الخالدة، كلها اعتدال وكمال، وطاعة لله وامتثال. إنه نبي الرحمة، وبحر الحكمة، وإمام الهدى وعين الكمال.

ـ خطبُه ﷺ:

كان ﷺ يخطب وهو واقف على الأرض، وعلى المنبر، وعلى البعير والناقة.

وكان إذا خطب احمرَّتْ عيناهُ، وعلا صوتُه، واشتدَّ غضبُه.

وكان لا يخطب خطبةً إلا افتتحها بحمد الله، وكان يخطب قائماً و يبدأ الناسَ بالسلام، ويختمُ خطبتَهُ بالاستغفار، وكثيراً ما يخطب بالقرآن الكريم، وكان مدار خطبته ﷺ على حمد الله والثناء عليه، وذكر الجنة والنار، وتعاليم قواعد الإسلام، والأمر بتقوى الله العظيم، وبيان موارد غضبه، ومواقع رضاه.

وكان منبرُهُ ثلاث درجات، فإذا استوى عليه، واستقبل الناسَ أخذ المؤذن في الأذان فقط.

وإذا خطب أخذ عصا، فتوكأ عليها و هو على المنبر، و يعتمد أحياناً على قوسٍ، ولم يؤخذ عنه أنه توكأ على سيفٍ، لأن الدين الإسلامي إنما قام بالوحي، والمدينة المنورة فُتحت بالقرآن لا بالسيف.

وكان إذا عرضَ له عارض اشتغل به، ثم رجع لخطبته.

وكان يقصر خطبتهُ ﷺ، ويطيلها أحياناً حسب حاجة الناس إلى فهمها وفهم ما تضمنتْهُ.

وكانت خطبتُه العارضة أطول من الراتبة.

وكان يخطب النساء على حدة في الأعياد، ويحرّضهنَّ [1] على الصدقة. وله خطب كثيرة أذكر للسادة القراء منها الخطبة التالية:

ـ خطبة له ﷺ في الوعظ:

«أيها الناس! إنَّ لكم معالمَ فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم؛ إن المؤمنَ بينَ مخافتين: بين عاجلٍ قد مضَى لا يدري ما الله صانعٌ به، وبينَ آجلٍ قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه؛ فليأخُذْ العبدُ من نفسهِ لنفسهِ، ومن دنياهُ لآخرته ومن الشبيبة قبلَ الكبر، ومن الحياة قبل الموت؛

(١) في الأصل (ويحرضَنّ). المحقق.

فوالذي نفسُ محمدٍ بيده! ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار».

ـ موعظة نبوية من خطبة ﷺ:

«اتقوا الله حق تقاته، واسعوا في مرضاته، وأيقنوا من الدنيا بالفناء، ومن الآخرة بالبقاء، واعملوا لما بعد الموت، فكأنكم بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل، ألا وإنَّ مَنْ في الدنيا ضيفٌ وما في يده عارية، وإن الضيفَ مرتحلٌ، والعاريةَ مردودة، ألا وإن الدنيا عَرَض حاضرٌ يأكلُ منها البَرُّ والفاجرُ، والآخرةُ وعدٌ صدقٍ، يحكمُ فيها مَلِكٌ قادرٌ. فرحم الله امرأ نظر لنفسهِ، ومهّد لرمسه، ما دام رسنُه مرخًى وحبلُه على غاربِه ملقًى، قبل أن ينفذ أجلُه، و ينقطعَ عملُه».

ـ تأديب الرسول ﷺ لأمته قال:

«أوصاني ربي بتسعٍ أوصيكم بها: أوصاني بالإخلاص في السرِّ والعلانية، والعدلِ في الرضا والغضب، والقصدِ في الغنَى والفَقر، وأن أعفوَ عمن ظلمني، وأعطي مَنْ حرمني، وأصِلَ مَنْ قطعني، وأن يكونَ صمتي فكراً، ونُطقي ذكراً، ونظري عبراً».

وقال: نهيتكم عن قيل وقال، وإضاعةِ المال، وكثرةِ السؤال. لا تقعدوا على ظهور الطُرق، فإن أبيتُمْ فغضُّوا الأبصارَ، وأفشُوا السلامَ، واهدُوا الضُلاَّلَ، وأعينوا الضَعيف.

وقال: ألا أنبئكم بشر الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: من أكلَ وحدَهُ، ومنعَ رِفْدَهُ، وجلدَ عبدَهُ؛ ثم قال: ألا أنبئكم بشرٍّ من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: مَنْ يبغضُ الناسَ ويبغضونه».

ـ في الحكم والآداب: من قوله ﷺ:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً؛ من لا يَرحم لا يُرحم، آية المنافق ثلاث: إذا حدَّثَ كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ٱؤتمن خان، وفي رواية: وإذا خاصم فجر.

المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

٣٩١ ــ من يخلف الرسول ﷺ بعد وفاته؟

تكلمت فيما مضى عن وفاة رسول الله ﷺ وعن تجهيزه ودفنه، وبعضٍ من شمائله وصفاته وخطبه، فمن للمسلمين من بعده، يخلفه في مقامه وفي تنفيذ أوامر الله ورسوله؟ ومن هو يا ترى يكون أهلاً لإدارة شؤون المسلمين وأمورهم؟

لقد أيقن المسلمون بموت رسول الله ﷺ، وعلموا أنه لا بقاء في هذه الحياة الدنيا، ولو كانت تدوم لدامت لحبيب الله ومصطفاه، وما هي إلا كما قال صلوات الله عليه وسلامه: «إن من في الدنيا ضيف، وما في يده عارية، وإن الضيف مرتحل، والعارية مردودة».

لذا كان أول أمرٍ فكّر به المسلمون وتحدثوا فيه، هو من يخلف رسول الله ﷺ في أمورنا؟

لقد كان المصطفى ﷺ نبياً ورسولاً من الله لعباده، وقد انتهت النبوة والرسالة، فهو خاتم دولة النبيين والمرسلين، وكان حاكماً ينفّذ أحكام رب العالمين، فمن عساه يصلح لأن يخلفه في هذه المهمة؟ هذا ما اختلفتْ حوله الآراء؛ فأصحابُ الرسول ﷺ كلهم على جانب عظيم من التقوى والصلاح، وكلٌّ منهم لا يرى في نفسه القدرة على القيام بأعباء هذا الأمر، بحيث يمكن أن يملأ ذلك المركز الذي خلا بموت النبي الكريم، وما كان عليه من الصفات، التي لا يمكن أن تجتمع في رجلٍ على وجهِ البسيطة.

ولقد انحازَ حيٌّ من الأنصار إلى سعد بن عبادة الأنصاري، في سقيفة بني ساعدة، واعتزل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه والزبيرُ بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة رضي الله عنهم، وانحازَ المهاجرون ومعهم

أسَيْدُ بن حُضَيْر إلى أبي بكر، وأخذ الجميع يفكّرون في هذا الأمر؛ ورسولُ الله وقتئذٍ في بيته مسجًى، وقد أغلق أهلُه دونه الباب؛ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه: انطلقْ بنا إلى إخواننا الأنصار للنظر معهم في الأمر، فانطلقا، وبينما هما في الطريق، إذ التقيا برجلين، فحدّثوهما: بأن الأنصار يريدون الأمر فيهم وأنه خيرٌ للمهاجرين أن يبتُّوا في الأمر من تلقاء أنفسهم؛ فما رضيا بذلك وذهبا حتى بلغا سقيفة بني ساعدة، فوجدا القومَ قد تجمعُوا، وبينهم سعدُ بنُ عبادةَ مُزَمِّلٌ يشكُو المرضَ فسلَّما وجلسا بينهم، فقام خطيبٌ من الأنصار، فحمد الله وأثنَى عليه ثم قال: (أما بعد! فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين! رهطٌ منا، وقد دَفَّتْ دافَّةٌ من قومكم، وإذا هم يريدون أن يجتزونا من أصلنا، و يغصبونا الأمر؛ وكانت هذه دف الأنصار أثناء حياة النبيّ)، لذلك لم يكدْ يسمعُ عمرُ هذا الكلام، حتى أراد أن يدفعه، فأمسكَ به أبو بكر الصديق، مخافة شدته، وقال: على رِسلكَ يا عمر! ثم قال موجهاً كلامه للأنصار: (أيها الناس! نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثرهم ولادة في العرب، وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتّبعوهم بإحسان)[1]. فنحن المهاجرون، وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدو؛ أما ما ذكرتم فيكم من خيرٍ، فأنتم أهلٌ له، وأنتم أجدر بالثناء من جميع أهل الأرض، فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر، إلا لهذا الحي من قريشٍ، فنحن الأمراء، ومنكم الوزراء) وهنا استشاط أحد الأنصار غضباً، وقام يفاخرُ بقومه و يقول: (بل منا أميرٌ ومنكمُ أميرٌ يا معشر قريش!)قال أبو بكر: (بل منا الأمراء ومنكم الوزراء، وقد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم)[2]، وأخذ بيد عمر بن الخطاب، وبيد أبي عبيدة عامر بن الجراح، وهو جالس

(١) جزء من الآية (١٠٠) من سورة التوبة. المحقق.

(٢) في الأصل (أيهما إن شئتم) والصواب حذف (إن) كما أثبتنا. المحقق.

بينهما؛ هنالك كثر اللغط، وارتفعت الأصوات، وتشعَّب الخلاف، فنادى عمرُ بصوت جهوري: أبسط يدك يا أبا بكر! فبسط أبو بكر يدهُ، فبايعه عمر وهو يقول: (ألم يأمر النبيُّ ﷺ بأن تصلي بالناس، أنت يا أبا بكر، فأنت خليفته، ونحن نبايعك فنبايعُ خير من أحبَّ رسول الله ﷺ منا جميعاً).

وَمَسَّتْ هذه الكلمات قلوبَ الحاضرين من المسلمين، فقالوا: إذا كان الرسولُ قد ارتضاكَ لديننا، أفلا نرضاكَ لدنيانا؟ ثم أقبلوا عليه يبايعونه.

وفي الغد من ذلك اليوم جلس أبو بكر على المنبر، وتقدم ابن الخطاب فتكلم قبل أبي بكر: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (إني قد قلتُ لكم بالأمس مقالةً،ما كانت مما وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهداً عهدَهُ إليَّ رسول الله، ولكني كنتُ أرَى رسول الله سيُدَبِّرُ أمرنا، و يبقى ليكونَ آخرنا، وأن الله قد أبقَى فيكم كتابه الذي به هدي رسولَه، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه)؛ فبايع الناس أبو بكر البيعة العامة بعد بيعة السقيفة. وقام أبو بكر بعد أن تمت البيعة، فألقى في الناس هذا الخطاب الذي يعتبر آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب، قال رضي الله عنه: (بعد أن حمد الله وأثنَى عليه، أما بعد: أيها الناس !فإني قد وُلّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوّموني، الصدق أمانة، والكذبُ خيانة، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أردَّ إليه حقَّهُ إن شاء الله، والقويُّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذَ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قومٌ الجهادَ في سبيل الله إلا ضربهم اللهُ بالذلّ، ولا تشيعُ الفاحشةُ في قومٍ إلا عمَّهُم اللهُ بالبلاء، أطيعوني ما أطعتُ الله ورسولَهُ، فإن عصيتُ الله ورسولَهُ، فلا طاعة لي عليكم، قُومُوا إلى صلاتكم يرحمكم الله)[1].

وبعد أداء الصلاة، قاموا بدفن رسول الله ﷺ، وقد رثاه الكثير بقريضهم. وممن قال في رثائه: شاعره حسان بن ثابت رضي الله عنه.

(١) انظر (كتاب رسالة الإسلام ــ نور بدَّد الظلام) ص٢١٦.

٣٩٢ ــ رثاء حسان بن ثابت للرسول ﷺ

لقد أنشد حسانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه شاعر الرسول ﷺ، عدة قصائد في رثائه عليه الصلاة والسلام، أثبت منها هذه القصيدة العامرة وهي في كتاب رسالة الإسلام[١].

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهدُ ... منيرٌ وقد تعفُو الرسومُ وتَهْمُدُ
ولا تمتحي[٢] الآياتُ من دار حرمةٍ ... بها منبرُ الهادي الذي كان يصعدُ
وواضع آثار وباقي معالمٍ ... وربع له فيه مصلًّى[٣] ومسجدُ
بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نورٌ يُستضاءُ ويُوقَدُ
معارف لم تطمس على العهد آيُهَا ... عداها البلَى فالآيُ منها تجدَّدُ
عرفتُ بها رسمَ الرسولِ وعهدَهُ ... وقبراً بها وآراهُ في الترب مُلْحَدُ
ظللتُ بها أبكي الرسولَ فأسْعَدَتْ ... عيونٌ ومثلاها من الجفْنِ تُسْعِدُ
يُذَكِّرْنَ آلاء الرسول وما أرى ... لها محصياً نفسي فنفسي تُبَلَّدُ
مُفجَّعةً قد شفّها فقدُ أحمدٍ ... فظلتْ لآلآء الرسولِ تعدَّدُ[٤]
وما بلغت من كل أمرٍ عُشَيْرَةُ ... ولكن لنفسي بعدما قد تُوجَدُ
أطالتْ وقوفاً تذرف العينُ جهدَها ... على طللِ القبر الذي فيه أحمدُ
فبوركتَ يا قبرَ الرسولِ وبوركَتْ ... بلادٌ ثَوَى فيها الرشيدُ المسدَّدُ
وبورِكَ لحدٌ منك ضمن طيبةٍ ... عليه بناء من صفيح منضَّدُ
تَهيلُ[٥] عليه الترب أيدٍ وأعينٌ ... عليه وقد غارت بذلك أسعُدُ
لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمةً ... عشيَّةَ علَّوْهُ الثرى لا يوسَّدُ
وراحُوا بحزنٍ ليس فيهم نبيُّهم ... وقد وهنَتْ منهم ظهورٌ وأعضُدُ
يُبكُّونَ من تبكي السمواتُ يومه ... ومن قد بكتْهُ الأرضُ فالناسُ أكمدُ

---

(١) رسالة الإسلام ــ نور بدَّد الظلام ص ٢١٩.
(٢) لعل الصواب (ولا تنمحي). المحقق.
(٣) في الأصل (مصلَى) بدون تنوين والصواب بالتنوين. المحقق.
(٤) (فظلت لألاء الرسول تعدَّد) لعل صوابها (فظلّت لآلاء الرسول تعدَّد). المحقق.
(٥) (تَهيل) لعل الصواب (تُهيل) بضم التاء من (أهال). المحقق.

وهل عدلتْ يوماً رزيةُ هالكٍ ... رزيةَ يومٍ ماتَ فيه محمدُ

تقطّع فيه منزلُ الوحي عنهمُ ... وقد كان ذا نورٍ يفورُ وينجدُ

يدلُّ على الرحمنِ مَنْ يُقتدى به ... ويُنْقِذُ من هول الخزايا ويرشُدُ[1]

إمام لهم يهديهمُ الحقَّ جاهداً ... معلم صدق إن يطيعوهُ يَسعدُ[2]

عفوٌّ عن الزلاتِ يقبلُ عذرَهم ... وإن يحسنُوا فاللهُ بالخير أجودُ

وإن ناب أمرٌ لم يقوموا بحمله ... فمن عنده تيسيرُ ما يتشدَّدُ

فبينا هم في نعمة الله بينهم ... دليلٌ به نهجُ الطريقة يقصدُ

عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى ... حريصٌ على أن يستقيموا ويهتدوا

عطوفٌ عليهم لا يُثنى جناحُه ... إلى كنفٍ يحنو عليهم ويمْهدُ

فبينا هم في ذلك النورِ إذ غدا ... إلى نورهم سهمٌ من الموتِ مُقْصِدُ

فأصبح محموداً إلى اللهِ راجعاً ... يبكّيهِ حقُّ المرسلاتِ ويُحْمدُ

وأمست بلادُ الحُرمِ وحشاً بقاعُها ... لغيبةِ ما كانت من الوحي تَعْهَدُ

قِفاراً سوى معمورةِ اللَّحدِ ضافَها ... فقيدٌ يبكّيهِ بَلاطٌ وفَرقَدُ

ومسجدُهُ فالموحشاتُ لفقدِهِ ... خلاء له فيه مقامٌ ومقعدُ

وبالجمرةِ الكبرَى له ثم أوحشتْ ... ديارٌ وعرصاتٌ وربْعٌ ومولدُ

فبكّي رسولَ الله يا عينُ عبرة ... ولا أعرفنك الدهر دمعُك يجْمُدُ[3]

وما لكِ لا تبكينَ ذا النعمةِ التي ... على الناس منها سابغٌ يُتَغَمَّدُ[4]

فجودي عليه بالدموع وأعولي ... لفقد الذي لا مثله الدهرَ[5] يُوجَدُ

وما فَقَدَ الماضونَ مثلَ محمدٍ ... ولا مثله حتى القيامةِ يُفْقَدُ

أعَفَّ وأوفَى ذمةً بعد ذمةٍ ... وأقربَ منه نائلاً لا يُنَكَّدُ

وأبذلَ منه للطريف وتالدٍ ... إذا ضنَّ معطاء بما كان يُتْلَدُ

---

(١) الصواب (ويُرْشد) من (أرشد). المحقق.

(٢) الصواب (يَسْعدوا). المحقق.

(٣) في الأصل (يجمَد) بفتح الميم والصواب ضمها. المحقق.

(٤) في الأصل (يتفمد) بالفاء والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٥) في الأصل (الدهر) والصواب فتح الراء كما أثبتنا. المحقق.

وأكرمَ صِيتاً في البيوتِ إذا انتمى ... وأكرمَ جَدّاً أبطحياً يُسَوَّدُ
وأمنعَ ذروات وأثبتَ في العلا ... دعائم عزٍّ شاهقات تُشَيَّدُ
وأثبتَ فرعاً في الفروع ومنبتاً ... وعوداً غَذَاهُ المزنُ فالعودُ أغْيَدُ
رَبَاهُ وليداً فاستتمَّ تمامُه ... على أكرمِ الخيراتِ ربٌّ ممجَّدُ
تناهَتْ وصاةُ المسلمينَ بكفّهِ ... فلا العلمُ محبوسٌ ولا الرأيُ يُفْنَدُ
أقولُ ولا يُلْفى[1] لقولي عائبٌ ... من الناسِ إلا عازبُ العقلِ مُبْعَدُ
وليس هوايَ نازعاً عن ثنائهِ ... لعلّي به في جنة الخُلْدِ أخلدُ
مع المصطفَى أرجُو بذاكَ جِوارَهُ ... وفي نيلِ ذاكَ اليوم أسعى وأجهدُ[2]

ومن جملة القصائد التي رثاه بها حسان رضي الله عنه، وأثبتها مؤلف كتاب (عين اليقين في سيرة سيد المرسلين ص ١٨٤) لمؤلفه محمد سيد كيلاني.

هذه القصيدة العصماء يقول:

ما بالُ عَيْنِكَ لا تنامُ كأنَّما ... كُحِلَتْ مآقيها بكُحْلِ الأرمدِ[3]
جزعاً على المهديّ أصبحَ ثاوياً ... يا خيرَ مَنْ وَطِيءَ الحصى لا تَبْعُدِ[4]
وجهي يقيكَ الترابَ لهفي ليتني ... غُيِّبْتُ قبلَكَ في بقيعِ الغَرْقَدِ[5]
بأبي وأمي مَنْ شهدتُ وفاتَهُ ... في يوم الاثنين النبيُّ المهتدي
فظللتُ بعد وفاتِه مُتَبَلِّداً ... مُتَلَدِّداً يا ليتني لم أولدِ[6]
أأقيمُ بعدكَ بالمدينةِ بينهم ... يا ليتني صُبِّخْتُ سُمَّ الأسوَدِ[7]
أو حلَّ أمرُ الله فينا عاجلاً ... في روحةٍ من يومنا أو من غدِ

---

(١) (لا يلفى): لا يوجد. المحقق.

(٢) وأنا اخترتُ هذه القصيدة الجامعة في رثاء حبيب الله ومصطفاه، أكد وأسعى جاهداً للوصول إلى ما عناه الشاعر من جوار الرسول في جنة الخلد.

(٣) أصيبتْ بالرمد الذي هو هيجان في العين.

(٤) ثاوياً: من ثَوى أي مات.

(٥) في الأصل (الفرقد) بالفاء والصواب بالغين كما أثبتنا. المحقق.

(٥) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة المنورة.

(٦) متبلداً: متحيراً متلهفاً. ومتلدداً أي متلفتاً يميناً وشمالاً متحيراً.

(٧) الحية العظيمة.

فتقوم ساعتُنا فنلق طَيّباً ... مَحْضاً ضرائبه كريمَ المحتدِ
يا يكرَ آمنةَ المبارَكَ بكْرُها ... وَلَدَتْهُ مُحْصَنَةً بسعدِ الأسعدِ
نوراً أضاء على البرية كلِّها ... مَنْ يُهْدَ للنور المبارك يهتدي
يا ربِّ فاجمعنا معاً ونبيَّنا ... في جنةٍ تَثْني عيونَ الحُسَّدِ
في جنةِ الفردوس فاكتُبْها لنا ... يا ذا الجلال وذا العُلاَ والسؤدُدِ
واللهِ أسمعُ ما بقيتُ بهالكٍ ... إلا بكيتُ على النبيِّ محمدِ
يا ويحَ أنصارِ النبيّ وَرَهْطِهِ ... بعدَ المغيَّبِ في سَوَاء[1] المَلْحَدِ[2]
ضاقتْ بالانصارِ البلادُ فأصبَحُوا ... سُوداً وجوهُهمُ كلونِ الإثْمِدِ[3]
ولقد وَلدناهُ وفينا قبرُه ... وفضولُ نعمتهِ التي لم تُجحدِ[4]
والله أكرمنا به وهدى به ... أنصارَهُ في كلِّ ساعةِ مَشْهَدِ
صلَّى الإله ومَنْ يَحُفُّ بعرشهِ ... والطيبونَ على المبارك أحمدِ

والقصائد كثيرة في رثائه ﷺ، انتخبتُ منها ما ذكرتُه للسادة القراء، لأن رثاءه دائمٌ في قلب كل مسلمٍ، لا ينقطع، فهو حبيب الكل، والكلُّ يحفظ في صدره مع إيمانه مصابه بالنبي محمد ﷺ.

وفي ذلك كفاية والحمد لله على قضائه وقدره. نسأل الله العلي القدير أن يجمعنا بحبيبنا تحت لوائه، ويسقينا من حوضه شربة لا نظمأ بعدها أبداً، اللهم آمين.

٣٩٣ ــ رسول الله ﷺ في ذمة التاريخ على مر الزمن

قال العلامة الكبير عباس محمود[5] العقاد: (محمدٌ في نفسه عظيمٌ، بالغٌ في العظمة وفاقاً لكل مقياس صحيح يقاس به العظيم عند بني الأنسان، في عصور الحضارة.

(١) (سَوَاء) في الأصل (سَوْآه). المحقق.
(٢) أي القبر.
(٣) كلون كحل الإثمد الأسود.
(٤) (تُجحد) في الأصل (تَجحد) بفتح التاء. والصواب ما أثبتنا. المحقق.
(٥) في كتابه (عبقرية محمد) ص ٢٦٠ حرفياً.

فما مكان هذه العظمة في التاريخ؟ ما مكانها في العالم وأحداثه الباقية على تعاقب العصور؟

مكانها في التاريخ، أن التاريخ كله بعد محمدٍ متصل به مرهون بعمله، وأن حادثاً واحداً من أحداثه الباقية لم يكن ليقع في الدنيا، كما وقع، لولا ظهور محمدٍ ﷺ، وظهور عمله. فلا فتوح الشرق والغرب، ولا حركات أوروبا في العصور الوسطى، ولا الحروب الصليبية، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب، ولا كشف القارة الأمريكية، ولا مساجلة الصراع بين الأوروبيين والآسيويّين والأفريقيين، ولا الثورة الفرنسية، وما تلاها من ثورات، ولا الحرب العظمى التي شهدناها قبل بضع وعشرين سنة، ولا الحرب العالمية الثانية، ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه كانت واقعةً في الدنيا كما وقعتْ لولا ذلك اليتيم الذي وُلِد في شبه الجزيرة العربية بعد خمسمائة وإحدى وسبعين سنة من مولد المسيح ــ عليه السلام ــ.

كان التاريخ شيئاً فأصبح شيئاً آخر، توسَّط بينهما وليدٌ مستهل في مهده، بتلك الصيحات التي سمعت في المهود عداد من هبط من الأرحام إلى هذه الغبراء.

ما أضعفها يومئذٍ صيحاتٍ في الهواء! ما[1] أقواها بعد ذلك أثراً في دوافع التاريخ!

ما أضخم المعجزة! وما أولانا أن نؤمن بها كلما مضت على ذلك المولد أجيال وأجيال! وما أغنانا أن نبحث عنها قبل ذلك بسنين، حيثما بحث عنها المنجمون والعرافون!

على أننا نستعظم الأحداث العظام في تاريخ بني الإنسان بمقدار ما فيها من فتوح الروح، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان. وجائز أن يقع في الدنيا طوفان أو زلزال، فيتصل به من أحداث الزحوف والفتوح ما يبدّل في التاريخ،

(١) لعل الأصوب (وما) بالواو. المحقق.

وينبعث[1] دوافع الشعوب. أما غير الجائز فهو أن تنفتح للإنسان آفاق جديدة من عالم الضمير بغير عظمة روحية يوحيها الإيمان، وبغير رسالةٍ باطنيةٍ تسبق هذه الظواهر التي تهول الأنظار.

ولقد فتح الإسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح في كل قلبٍ من قلوب أتباعه عالماً مغلقاً تحيط به الظلمات، فلم يزدِ الأرضَ بما استولى عليه من أقطارها، فإن الأرض لا تزيد بغلبة سيدٍ على سيدٍ، أو بامتداد التخوم وراء التخوم؛ ولكنه زاد الإنسان أطيب زيادة يدركها في هذه الحياة، فارتفع به مرتبةً فوق طباقِ الحيوان السائم، ودنا به مرتبةً إلى الله عز وجل.

يدين بهذه الحقيقة كل من يدين بحقيقةٍ في عالم الضمير، فمن أنكرها فإنما ينكر تقدم الإنسان كثيراً أو قليلاً في هذه الطريق.

عقد عالم أوروبي[2]، مقارنةً بين محمدٍ وبوذا والمسيح، فسأل: أليس محمدٌ نبياً على وجهٍ من الوجوه؟ ثم أجاب قائلاً: إنه على اليقين لصاحبُ فضيلتين من فضائل الأنبياء، فقد عرف حقيقةً عن الله لم يعرفها الناسُ من حوله، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم، لنشر تلك الحقيقة، وإنه لخليق في هذه الفضيلة أن يسامي أوفر الأنبياء شجاعةً وبطولةً بين بني إسرائيل، لأنه جازف بحياته في سبيل الحق وصبر على الإيذاء يوماً بعد يومٍ عدة سنين، وقابل النفي والحرمان والضَّغينة، وفقد مودَّةَ الأصحاب بغير مبالاة، فصابر على الجملة قصارَى ما يصبر عليه إنسان، دون الموت الذي نجا منه بالهجرة، ودأب مع هذا جميعهِ على بثِّ رسالته، غير قادرٍ على إسكاتهِ وعدٌ ولا وعيدٌ ولا إغراء... وربما اهتدى به إلى التوحيد أناس آخرون بين عبَّاد الأوثان؛ إلا أن أحداً آخر غير محمدٍ لم يُقِم في العالم مثل ما أقام من الإيمان: من إيمانٍ بالوحدانية دائم مكين؛ وما أبيح له ذلك إلا لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الإيمان، فإذا سأل سائل: ماذا الذي دفع بمحمدٍ إلى إقناع غيره حيث رضي الموحدون بعبادة

---

(١) لعل الصواب (ويبعث) لا (ينبعث). المحقق.

(٢) هو الدكتور ماركس دودز في كتابه (محمد وبوذا والمسيح) عن عبقرية محمد للعقاد ص ٢٦٤.

العزلة؟ فلا مناص لنا أن نسلّم أنه هو العمق والقوة في إيمانه بصدق ما دعا إليه).

والحقيقة التي يراها المنصف مُسْلِماً كان أو غير مسلم، هي هذه الحقيقة، وهي أن فتوح محمدٍ فتوح إيمانٍ، وأن قوة محمدٍ قوة إيمانٍ، وأنه ما من سِمَةٍ لعمله، أوضح من هذه السمة، ولا من تعليلٍ لها أصدق من هذا التعليل.

لقد جاءه الإغراء الذي أشار إليه العالم الأوروبي وهو داعٍ مهدَّدٌ في سربه، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته فما حفل بالإغراء، وهو بعيد من مقصده، ولا حفل به وهو واصل إليه. جاءه سيّدُ قومِهِ عتبةُ بن ربيعة، وهو في بداية أمره، فقال له واعداً ملاطفاً بعد أن أعياهم تخويفه متوعدين: يا ابن أخي! إنك منا حيثُ قد علمت، من خيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيتَ قومكَ بأمرٍ عظيمٍ، فرَّقْتَ به جماعتهم، وسفهت أحلامهم وعبتَ آلهتهم ودينهم، وكفَّرتَ من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منّا بعضَها، فقال عليه الصلاة والسلام: قل يا أبا الوليد! فقال: يا ابن أخي! إن كنت تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لكَ من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ تريد شرفاً سوّدناكَ علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنتَ تريد ملكاً ملكناكَ علينا، وإن كان الذي يأتيكَ رئياً من الجنّ لا تستطيع رَدَّهُ عن نفسكَ طلبنا لكَ الطبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئكَ منه.

فما زاد ﷺ على أن أجابه بآياتٍ من القرآن الكريم، ثم تركه يعود كما أتى.

ثم أدرك ﷺ غاية ما سعى إليه، فلم يدخل له المال ولا المتاع في حساب، ولم يكن النعيم المستطاع فوق ما حلم به عتبة بن ربيعة، وكان عليه الصلاة والسلام أزهد فيه من زهده في النعيم الموعود. فلمَ كل هذا؟ لمَ هذا الجهاد؟ ولم هذا الصبر؟ إن لم يكن في سبيل الله... التاريخ هو فيصل التعرفة بمحمدٍ وأعمال محمد... ثم قال العقاد: إن محمداً قدوة المهذبين، وكان محمد في عمله أعظم الرجال أثراً في الدنيا، وكان في عقيدته مؤمناً... فهو باقٍ ما بقيت أرض، وما بقيت في الأرض أديان.

وسيطلع في الأفق هلالٌ، و يغيب هلال، وسيذهب في الليل قمرٌ، و يعود قمر، وتتعاقب هذه الشهور التي كأنها جعلت لتاريخ ما بين الصدور) أهـ ــ هو محبة رسول الله، ومحبة دينه، ومحبّة طريقته، ومحبة آدابه وأخلاقه ــ، لأن محمداً ﷺ وإن التحق بالرفيق الأعلى، فهو في الصدور على وجه الزمن في ذمة التاريخ ما تعاقب الملوان، وما بقي في الأرض إنسان.

فأعماله خالدة، وأخلاقه شاهدة، ومعجزاته باهرة، وهو في القلوب المؤمنة، وفي العيون الشاخصة لعظمته وسحر بيانه، وهو من الخالدين في ذمة التاريخ على وجه الزمن.

٣٩٤ ــ زوجاته ﷺ

المشهورات من نسائه ﷺ إحدى عشرة امرأة (متفق عليهنَّ وهنَّ):

١ ــ خديجة بنت خويلد
٢ ــ عائشة بنت أبي بكر
٣ ــ سودة بنت زمعة
٤ ــ زينب بنت جحش
٥ ــ هند وهي أم سلمة
٦ ــ حفصة بنت عمر
٧ ــ رملة وهي أم حبيبة
٨ ــ جويرية بنت الحارث
٩ ــ صفية بنت حيي بن أخطب
١٠ ــ ميمونة
١١ ــ زينب بنت خزيمة أم المساكين

وقد توفي ﷺ عن تسع زوجات، وقد نظمهنَّ بعضُهم فقال:

توفي رسولُ الله عن تسع نسوة ... إليهنَّ تُعزى المكرمات وتُنسبُ
فعائشة، ميمونة، وصفية ... وحفصة تتلوهنَّ هند وزينبُ

جـويـرة، مـع رمـلـة، ثم سـودة ثلاثة [1] وسـت نظـمـهُـنَّ مهذَّبُ

وماتت السيدة خديجة في حياته صلى الله عليه وسلم، وزينب بنت خزيمة رضي الله عنها.

وكلهنَّ أمهات المؤمنين، فاضلات طيبات، طاهرات صالحات. وأفضلهنَّ عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، التي لم يتزوج بكراً غيرها، وتوفي عنها وعمرها ثمانية عشر عاماً، وعاشت بعده أربعين سنة.

٣٩٥ ـ أولاده ﷺ

أولادُه ﷺ سبعة: ثلاثة ذكور، وأربع أناث، منظومة بقول بعضهم:

قـاسـمٌ ابـراهـيـمُ عـبـدُالله هـم الـذكـور للـنبي الأوّاه
ثم الإنـاث زيـنـبٌ فـاطـمـةْ فـأم كـلـثـوم كـذا رُقـيَّـة

وكلهم من السيدة خديجة رضي الله عنها، إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية، وتوفي في السنة العاشرة من الهجرة، وعمره سنة وعشرة شهور [2]. وأما القاسم وعبد الله، فإنهما ماتا قبل البعثة، فالقاسم وبه كان يكنى ﷺ: عاش حتى مشى ومات بمكة؛ وأما عبد الله ويلقب بالطيب والطاهر، لولادته بعد الوحي، ولد بمكة بعد الإسلام ومات بها.

أما الإناث: فكلهنَّ أدركنَ الإسلام وأسلمنَ، ولم يعش منهنَّ بعد وفاته ﷺ إلا فاطمة الزهراء فإنها ماتت بعد والدها رسول الله ﷺ بستة أشهر، وقيل بشهرين ونصف، والقول الأول هو الصحيح وعليه أهل السير والتاريخ [3].

٣٩٦ ـ سراريه ﷺ

أما سراريه ﷺ فثلاث: مارية القبطية، وريحانة، وجميلة [4].

---

(١) لعل الصواب (ثلاث) لا (ثلاثة). المحقق.
(٢) الأفصح (أشهر) بدل (شهور). المحقق.
(٣) و(٤) انظر كتاب (أحسن القصص) ص ٢٨٧.

٣٩٧ ــ صفته ﷺ مع ذكر بعضٍ من شمائله

كان رسول الله ﷺ أبيض مشرباً بحمرة، واسع الجبين عظيم الرأس من غير إفراط، حسن الجسم، عظيم الجبهة، دقيق الحاجبين مقرونهما، كانت الفرجةُ التي بين حاجبيهِ يسيرة لا تبينُ إلا لمن دقّقَ النظر، أهدبَ الأشفار، أدعج العينين، أقنى الأنف (١) واضح الخدين، ليس فيهما نتوءٌ ولا ارتفاع، كثَّ اللحية ــ كثير شعرها ــ أسودها، واسع الفم من غير إفراط؛ والعربُ تمدح به لدلالة السعة في الفصاحة، مفلّجَ الأسنان قويّها، ضخمَ الكراديس، ــ رؤوس العظام ــ غليظ الكتفينِ واسعهما وناعمهما، بين كتفيهِ خاتم النبوة ــ غدة حمراء مثل بيضة الحمامة ــ غليظَ الأصابع من غير قصرٍ ولا خشونةٍ، واسعَ الصدر، غليظ القدمين، سبَّابةُ قدمه أطول من الوسطى، أشعرَ الذراعين والمنكبينِ وأعالي الصدر؛ لم يكن بالطويل ولا القصير، وهو إلى الطول أقرب؛ شديد سواد الشعر، شعرُهُ وسط بين الجعودة والسبوطة. نقيَّ الثوب، ليّنَ الكلام، حسنَ الصوت قويَّهُ، لا يقولُ هجراً، ولا ينطق هذراً، يخاطبُ كلَّ إنسان على قدر عقله، يكلّم كلَّ قبيلةٍ بما تعرفه، واسعَ الاطّلاع بلغات العرب، إذا فرح غضَّ طَرْفَهُ، ما رُئي ضاحكاً، إنما كان يبتسم، وكان الضحكُ منه نادراً، ولم يقهقه، ما تثاءب قط، وما احتلم قط، ليس بمسترخي البدن، سَهْلَ الخُلُق، ليّنَ الجانب، ليس بفظٍ ولا غليظٍ ولا صخّابٍ ولا فحاشٍ ولا عيّابٍ ولا مزّاحٍ، وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً، يقابل السيئة بالحسنة، يصلُ من قطعه، ويعطي من حرمه، ويعفو عمن ظلمه؛ لا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق، والمسألة، لا يقطع على أحدٍ حديثه، ولا يتكلم في غير حاجة، وكان كلامه يحفظه عنه كل من سمعه، يعظّم النعمة وإن دَقَّتْ؛ لا يغضب لنفسه، ولا ينتصرُ لها، وإنما يغضبُ إذا تُعرّض للحق بشيءٍ، ويكرمُ كريمَ كلِّ قومٍ، ويولّيهِ عليهم، ويتفقد أصحابه، ويسأل عنهم، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زارَهُ، وإن كان مريضاً عادَهُ؛

---

(١) القنا في الأنف: طوله ودقة أرنبته مع حدب في وسطه.

وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس؛ من جالسه أو نادمه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه؛ من سأله حاجةً لم يردَّهُ إلا بها؛ عنده الناس في الحق سواء؛ مجلسهُ مجلسُ حلمٍ وحياء، لا ترفع فيه الأصوات، ولا يتنازعون عنده الحديث؛ إذا تكلّم أطرق جلساؤهُ كأنما على رءوسهم الطير؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم.: ﴿بعثتُ لأتمم مكارمَ الأخلاق﴾ وكان أشدَّ الناس خشيةً وخوفاً من الله؛ ما ضرب بيده الشريفة امرأةً ولا خادماً من أهله، حلمه يسبق غضبه، ولا تزيده شدةُ الجهل عليه إلا حلماً، أسخى الناس كفاً، وأشدهم حياءً، يحب التفاؤلَ، و يكره التشاؤم، وكان إذا رأى شخصاً تسمى باسم قبيح غيَّره إلى اسم حسنٍ، وكان يشاور أصحابه في الأمر، وإذا كره شيئاً عُرف في وجهه، ولم يشافه أحداً بمكروه، يمازح صبيان أصحابه، ويجلسهم في حجره، و يقعدون في صدره الشريف، فيقبلهم و يلتزمهم، يشهد الجنائز، و يقبل عذرَ المعتذر، ما وضع أحدٌ فمه في أذنه إلا استمرَّ صاغياً له، حتى يفرغ من حديثه و يذهب، يمشي مع الأرملة والمسكين والضعيف في حوائجهم، وما صافح أحداً بيده فيرسل يدَهُ ﷺ منه، حتى يكون الآخرُ هو الذي يرسلها، يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه، كان يجلس على الأرض والحصير والبساط؛ يكرم من يدخل عليه، وربما بسط له رداءهُ، وآثرهُ بالوسادة التي تحته، و يعزم عليه إن أبَى، و يدعُو أصحابَهُ بأحبّ أسمائهم، ويكنيهم، ولا يجلس إليه أحدٌ وهو يصلي إلا خفَّفَ صلاته وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته؛ كان يركب الحمار، وربما ركبه عرياناً، و يردف خلفَهُ، وكان يجلس على الأرض، ويجب السواكَ و يكتحل بالإثمد عند النوم ثلاثاً في كل عينٍ، وحجَّ على رحلٍ رثٍّ عليه قطيفةٌ ما تساوي أربعة دراهم، وقال: «اللهم! اجعله حجاً مبروراً لا رياء فيه ولا سمعه»، وكان غالب ما يلبس هو وأصحابه ما نُسج من القطن، وربما لبسوا ما نسج من الصوف والكتان، يحلبُ شاته، ويخصف نعله، و يرقع ثوبه، ويخدم نفسه، و ينظّف بيته، ما يُرى فارغاً قط في بيته، و يأكل مع الخادم، و يطحن معه ويحمل بضاعته من السوق، وكان يحب الطيبَ و يأمرُ

به، ويأمرُ أصحابَهُ بالمشي أمامه؛ وتُوفِّيَ[1] ودرعُه مرهونةٌ عند يهودي على نفقة عياله؛ ما شبع ثلاثة أيام تباعاً من خبز البرِّ حتى فارق الدنيا، وما أكل خبزاً منخولاً؛ وكان يبيتُ الليالي المتتابعة طاوياً؛ وما أكل على خوانٍ قط شأن الملوك والعظماء. إنما كان يأكل على السفرة كالناس تواضعاً، وربما وضع طعامه على الأرض، لا يجمع في بطنه بين طعامين؛ إن أكل لحماً لم يزد عليه، وإن أكل تمراً لم يزد عليه، وإن أكل خبزاً لم يزد عليه؛ وكان يصلي على الحصير وعلى الفروة المدبوغة، وربما نام على الحصير فأثّرتْ في جسدِهِ الشريف، وكان ينام على شيءٍ من أدمٍ محشوٍ ليفاً.

وكان أفصح الناس وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداءً، وأحلاهم منطقاً حتى إن كلامه يأخذ بالقلوب ويسبي الأرواح؛ وكان إذا تكلّم تكلم بكلام مفصّلٍ مبين يَعُدُّه العادُّ، ليس بهذٍ مسرع لا يحفظ، ولا متقطع تخلله السكتاتُ بين الكلام؛ لم يكن بكاؤه بشهيقٍ ورفع صوتٍ، كما لم يكن ضحكُه بقهقهةٍ، وكان يبكي أحياناً في صلاة الليل بين يدي الله تعالى خشية ورجاءً.

وكان إذا دخل بيته لم يكن ﷺ يفجأ أهله عند دخوله بغتةً، ولكنه يدخل على علمٍ منهم بدخوله، وكان يسلم عليهم، وإذا دخل ليلاً على أهله يسلم تسليماً لا يوقظ النائم، وإذا أتى باب قومٍ لم يستقبل البابَ من تلقاء وجهه ولكنه من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: السلام عليكم، السلام عليكم؛ لم يكن يرد السلام بيده ولا برأسه ولا بأصبعه. وكان ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه، وكان أكثر دعائه: «يا مقلب القلوب! ثبّتْ قلبي على دينك». وكان إذا أصابه غمٌّ أو كَرْبٌ يقول: «حسبي الرب من العباد، حسبي الخالق من المخلوقين، حسبي الرزاق من المرزوقين، حسبي الذي هو حسبي، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلتُ وهو رب العرش العظيم»، وإذا اجتهد في

---

(١) (وتُوُفِّيَ) في الأصل (وتوَفَّى) وهو خطأ والصواب ما أثبتنا لأن الذي يتوفَّى هو (الله) قال تعالى (الله يتوفَّى الأنفس) الآية. المحقق.

الدعاء قال: «يا حيُّ! يا قيوم!». وإذا أراد أمراً قال: «اللهمَّ! خِرْ لي واختَرْ لي» وإذا جاءه أمرٌ يُسرّ به، خرَّ ساجداً شكراً لله عز وجل.

وإذا عزَّى قال: «يرحمُه الله ويؤجركم» وإذا هنَّأ قال: «باركَ الله لكم وباركَ الله عليكم» وإذا أراد السفر قال: «اللهم! بكَ أحولُ، وبكَ أصولُ، وبكَ أسيرُ» وإذا سمع المؤذنَ قال: مثل ما يقول، حتى إذا بلغ «حيَّ على الصلاة حيَّ على الفلاح» قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

هذا هو محمدٌ ﷺ، وهذه شمائله الشريفة، فأين المهتدون بهداه، والسالكون على منهجه وتقواه؟

اللهم! ألهم الأمة أن يقتدوا برسولهم، ويتبعوا سلوكه ومنهجه، وصلِّ اللهم على سيد الوجود، سيدنا محمد ﷺ.

٣٩٨ ــ أعمامه ﷺ وعماته

هم اثنا عشر: أبو طالب ــ واسمه عبد مناف ــ والزبيرُ، وحمزةُ، والمقوّمُ، والعباسُ، وضرارُ، والحارثُ، وقثمُ، وأبو لهب ــ واسمه عبد العزَّى ــ والفيداقُ ــ واسمه مصعب أو نوفل ــ وجحلٌ ــ واسمه المغيرة ــ وعبد الكعبة.

وعماته ستٌّ وهن:

(١) صفية أم الزبير بن العوام وهي شقيقة حمزة.

(٢) وعاتكة.

(٣) وأم حكيم.

(٤) وبرَّة.

(٥) وأميمة.

(٦) وأروى.

٣٩٩ ــ بوَّابُه وشعراؤه ومؤذنوه ﷺ

بوَّابهُ ﷺ واحد هو: مولاه أنس بن مالك رضي الله عنه.

أما شعراؤه ﷺ فثلاثة هم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك.

وأما مؤذّنوهُ ﷺ بالمدينة فاثنان؛ هما بلال، وعبد الله بن أم مكتوم. وواحدٌ بقباء هو سعد القرظ [1] «مولى عمار بن ياسر».

٤٠٠ ــ سلاحه ودوابه وخاتمه ﷺ

أما سلاحه: فقد كان له عشرة سيوف وهي: ذو الفقار، والمأثورُ، وهو أول سيف ملكه عن أبيه. والقضيبُ، والقُلَعيُّ، والبتَّارُ، والحتفُ، والمِخْذَمُ، والرسوبُ، والصمصامة، واللحيفُ [2].

وأما دروعه فسبعة كما قاله ابن الأثير، فقد كان له:

(١) درع تسمى «ذات الفضول» وكانت طويلة،

(٢) ودرع تسمى «ذات الوشاح»،

(٣) ودرع تسمى «ذات الحواشي»،

(٤) ودرع تسمى «فضة»،

(٥) ودرع تسمى «السعدية» وهي من دروع سيدنا داود،

(٦) ودرع تسمى «البتراء»،

(٧) ودرع تسمى «الخرنق».

وكان له ﷺ ستُّ قِسيٍّ، وثلاث أتراس، ورمحان، وثلاث حراب، وخوذتان.

وأمّا أفراسه ﷺ فقيل أربع وهن: لزازُ، والظربُ، والمرتجزُ، واليعسوبُ، وقيل: ست فزيد: السكبُ واللحيفُ. وأمّا نوقُه ﷺ المعدة للركوب ثلاث [3]: القصواء والعضباء والصهباء.

---

(١) (القَرَظ) في الأصل (القرط) بالطاء بدل الظاء. والصواب كما أثبتنا. وفي لسان العرب (وسعد القَرَظ مؤذن رسول الله كان بقباء فلما ولي عمر أنزله المدينة، فوَلَدُه إلى اليوم يؤذّنون في مسجد المدينة). المحقق.

(٢) انظر كتاب المواهب اللدنية على الشمائل ص ٨٣.

(٣) الأصوب (فثلاث) بدل (ثلاث). المحقق.

وأما بغالُه: فستٌّ: أشهرها «دلدل» وكانت شهباء.

وأما حميرُه: فاثنان: أحدهما «يعفور».

وأما خاتمه ﷺ فكان من حديد مطلي عليه بالفضة، ونقش عليه (محمد رسول الله) في ثلاثة أسطر، وقيل: كان نقش خاتمه (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله)[1].

٤٠١ ــ مشاهير كُتّابه ﷺ

قال في السيرة الحلبية عن جماعةٍ، كان كتّابه ﷺ، ستةً وعشرين كاتباً، وقيل: اثنين وأربعين، قال:

١ ــ وأول من كتب له من قريش بمكة، عبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري، ثم ارتدَّ بعد إسلامه، وأمر ﷺ بقَتْله، ففرَّ إلى عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة، فاستأمن له رسول الله ﷺ.

٢ ــ وأول من كتب له ﷺ من الأنصار بالمدينة (أبي بن كعب) رضي الله عنه، وكان يكتب له الوحي في بعض الأحيان.

٣ ــ ومن كتاب الوحي: أبو بكر الصديق.

٤ ــ وعمر بن الخطاب.

٥ ــ وعثمان بن عفان.

٦ ــ وعلي بن أبي طالب.

٧ ــ وعامر بن فهيرة.

٨ ــ وعبد الله بن أرقم، وكان يكتب الرسائل للملوك وغيرهم، المرسلة من رسول الله ﷺ.

٩ ــ وثابت بن قيس بن شماس.

---

(١) انظر (سيرة الرسول) التي نشرتها دار الفكر للجميع والمأخوذة عن سيرة ابن هشام، وسيرة ابن سيد الناس والسيرة الحلبية ص ٤١.

١٠ ــ ومعاوية بن أبي سفيان[١].
١١ ــ و يزيد بن أبي سفيان.
١٢ ــ وزيد بن ثابت.
١٣ ــ والمغيرة بن شعبة.
١٤ ــ والزبير بن العوام.
١٥ ــ وخالد بن الوليد.
١٦ ــ والعلاء بن الحضرمي.
١٧ ــ وعمرو بن العاص.
١٨ ــ وعبدالله بن رواحة.
١٩ ــ ومحمد بن مسلمة.
٢٠ ــ وعبدالله بن عبدالله بن أبي سلول، وكانت كتابه جلّهم بالمناوبة وعند الحاجة.

وكان معاوية وزيد بن ثابت ملازمين للكتابة بين يدي النبي ﷺ، للوحي وغيره. لا عمل لهما غير ذلك.

قال ابن حجر في كتابه الإصابة: كان زيد بن ثابت يكتب الوحي، وكان معاوية يكتب للنبي ﷺ فيما بينه وبين العرب.

٤٠٢ ــ معجزات حبيب الله ومصطفاه عليه الصلاة والسلام

إذا تأمل المتأملُ والقارىء العاقلُ، والعالم المتبحّر والفيلسوف المنصفُ، إلى ما[٢] قدمته له من جميل أثر هذا النبي الظاهر في كتابي هذا (الاصطفا في سيرة المصطفى) ﷺ، وإلى صفَاته الحميدة، وشمائله المنيفة، وما كان عليه من براعة علمه، ورجاحة عقله، وحلمه وكماله، بل وجميع خصاله؛ لم يمترِ في صحة نبوته

---

(١) لم يذكر في الأصل (ابن أبي سفيان). وإنما قال: ومعاوية ويزيد ابنا أبي سفيان. ونظراً لذكر كل اسم برقمه مستقلاً فقد أثبتنا أمام كل منهما لفظ (ابن أبي سفيان). المحقق.

(٢) كان الأصوب أن يقول (فيما) بدل (إلى ما). المحقق.

وصدق دعوته، ويكفي القول فيه، ما قاله عبد الله بن سلام، حيث قال: (لما قَدِمَ النبي ﷺ المدينة جئتُهُ لأنظر إليه، فلما استبنتُ وجههُ عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب)، وروى الإمام مسلم في صحيحه: أن ضماداً لما وفد عليه ﷺ قال له: «إن الحمد لله نحمده ونستعينُه، مَنْ يهد الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبدهُ ورسوله» فقال له ضمادٌ: أعدْ عليَّ كلماتك هؤلاء، فلقد بلغنَ قاموسَ البحر، هاتِ يدك أبايعك؛ ولما بلغ مَلِكَ عُمان أن رسول الله ﷺ يدعوهُ إلى الإسلام قال: والله! لقد دلَّني على هذا النبي الأمي، لا يأمرُ بخيرٍ إلا كان أول آخذ به ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له، وإنه يغلبُ فلا يبطر، ويُغلب فلا يضجر، يفي بالعهد، وينجز الموعود، وأشهد أنه نبيّ[1].

وقال ابن رواحة رضي الله عنه:

لو لم تكن فيه آياتٌ مبينةٌ ... لكان منظرهُ ينبيكَ بالخبر

كيف وقد أظهر الله على يديه تصديقاً لدعوته من المعجزات، ما لا يفي به العدُّ؟ فهو ﷺ أكثرُ الأنبياء آيةً، وأظهرهم برهاناً، وسأذكر للسادة القراء[2] في مقالي هذا من الآيات ما تقرُّ به أعينُهم إن شاء الله، ويزداد به يقينُهم مما صحت روايته، ورواه الجمّ الغفير من الصحابة رضي الله عنهم، وأثبته المحدثون في صحاحهم، وأبدأ منها بأظهرها شأناً وأوضحها بياناً.

٤٠٣ ــ المعجزة الأولى القرآن الكريم

هو القرآن الكريم، وإعجازُهُ الفذُّ العجيب.

إن كتاب الله العزيز، منطوٍ على وجوهٍ من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة:

---

(١) انظر كتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) ص ٢٥٥.

(٢) (القراء). في الأصل (القرآء). المحقق.

١ ــ (أولها): حسنُ تأليفِهِ، والتئامُ كلمهِ وفصاحتُه، ووجوهُ إيجازِه، وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن، وفرسان الكلام، قد خُصُّوا من البلاغة والحكم بما لم يخصَّ به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسانِ ما لم يؤتَ إنسان، ومن فصل الخطابِ ما يقيّد الألباب، جعل الله تعالى لهم ذلك طبعاً وخلقةً، وفيهم غريزةً وقوةً، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون بديهاً في المقامات، وشديد الخَطْب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجلّ من سمط اللآلِ، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويُذهبون الإحنَ، ويهيجون الدمن، ويجرّئون الجبان، ويصيّرون الناقص كاملا، ويتركون النبيه خاملاً؛ منهم البدوي ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمنزع القوي؛ ومنهم الحضريُّ ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية، وكلاهما[1] له في البلاغة الحجة البالغة، والقوة الدامغة، والقدح الفالج، والمهيع الناهض، لا يشكُّونَ أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغةَ[2] ملكُ قيادهم، قد حَوَوا فنونها، واستنبطوا عيونَها، ودخلوا من كل بابٍ من أبوابها، وعلَوْا صرحاً لبلوغ أسبابها، فقالوا في الخطير والمهين، وتفنّنوا في الغثّ والسمين، وتقاولوا في القلّ والكثير، وتَساجلوا في النظم والنثر، فما راعهم إلا رسولٌ كريم ونبي عظيم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، أحكمتْ آياتهُ، وفُصّلتْ كلماتهُ، وبهرتْ بلاغتُه العقول، وظهرتْ فصاحتُه على كل مقُول، وتضافر إيجازهُ وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازُهُ، وتبارتْ في الحسن مطالعُه ومقاطعُه، وحوتْ كلَّ البيانِ مجامعه وبدائعُه، واعتدل مع إيجازه حسنُ نظمهِ، وانطبق على كثرة فوائدهة مختارُ لفظهِ؛ وهم أفسحُ ما كانوا في هذا الباب

(١) (وكلاهما) في الأصل (ركلاهما) بالراء. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٢) (والبلاغةَ) في الأصل (والبلاغةُ) بالرفع. المحقق.

مجالاً، وأشهر في الخطابة رجالاً، وأكثر في الشعر والسجع ارتجالاً، وأوسع في الغريب واللغة مقالاً؛ بلغتهم التي بها يتحاورون، ومنازعهم التي عنها يتناضلون صارخاً بها في كل حين، ومقرعاً لهم بضعاً وعشرين سنة على رؤوس الملأ أجمعين: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سورٍ مثله، مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[1].

وقال: (وإن كنتم في ريبٍ مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، فاتقوا النار التي وَقودها الناسُ والحجارةُ أعدتْ للكافرين﴾[2].

وقال جل شأنه: ﴿قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾[3].

فلم يزل يقرعهم أشدَّ التقريع، و يوبخهم أشد التوبيخ، و يسفّه أحلامهم، ويحطّ أعلامهم، و يشتّتُ نظامهم، و يذمّ آلهتَهم وآباءهم، و يستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته محجمون عن مماثلته؛ يخادعون أنفسهم بالشغب والتكذيب والأعتزاز بالافتراء وقولهم: (إن هذا إلا سحر يؤثر[4]، وسحر مستمر[5]، وإفك افتراهُ[6]، وأساطير الأولين[7]). وقد قال لهم: (ولن تفعلوا)[8] فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخّافهم كمسيلمة الكذاب، كشف عوارهُ لجميعهم، فأصبح سخرية الجميع؛ وقد سلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم. وإذا تأمل السادة القراء في قوله

---

(١) من سورة هود آية (١٣).
(٢) من سورة البقرة آية (٢٣ و ٢٤).
(٣) من سورة الإسراء آية (٨٨).
(٤) (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) الآية (٢٤) من سورة المدثر. المحقق.
(٥) آخر الآية (٢) من سورة القمر. المحقق.
(٦) (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه) الآية (٤) من سورة الفرقان. المحقق.
(٧) (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) الآية (٥) من سورة الفرقان. المحقق.
(٨) (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) الآية (٢٤) من سورة البقرة. المحقق.

تعالى: ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾[1] وفي قوله تعالى: ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾[2] وفي قوله تعالى: ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجوديّ وقيل بُعداً للقوم الظالمين ﴾[3] وقوله عز وجل: ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً، ومنهم من أخذتْهُ الصيحةُ، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[4]. وأشباه هذه الآيات، بل أكثر القرآن حقَّقتْ ما بينتهُ من إيجاز لفظها، وكثرة معانيها، وديباجة عبارتها، وحسن تأليف حروفها، وتلاؤم كلمها؛ وإن تحت كلّ لفظةٍ منها جملاً كثيرة، وفصولاً جمة، وعلوماً زواخر؛ ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها، ثم هو في سرد القصص الطوال، وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء الكلام: لدليل قاطع عن هذه المعجزة الخالدة لحبيب الله ومصطفاه.

وأخيراً كشف العقل الالكتروني صحة ما قلناه: (إن إعجاز القرآن يفوق طاقة الإنس والجنّ)[5].

وقال الفيلسوف الكبير (توماس كارليل) تحت عنوان القرآن وإعجازه: لذلك رآه العرب من المعجزات، وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لإنجيلهم، وما برح القرآن، قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع في شؤون الحياة ومسائلها والوحي المنزل من السماء هدىً للناس وسراجاً منيراً، يضيء لهم سُبُلَ العيش، ويهديهم صراطاً مستقيماً، ومصدر أحكام القضاة،

---

(١) أول الآية (١٧٩) من سورة البقرة. المحقق.

(٢) جزء من الآية (٣٤) من سورة فصلت. المحقق.

(٣) الآية (٤٤) من سورة هود. المحقق.

(٤) الآية (٤٠) من سورة العنكبوت. المحقق.

(٥) من أراد حسابات العقل الالكتروني في عصرنا الحاضر فليراجع مجلة آخر ساعة عدد (١٩٩٦) عام (١٩٧٢)، للعلامة الدكتور رشاد خليفة وهذه محفوظة في الكونغرس الأميركي رقم (٢٧٣٨٦).

والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به في غياهب الحياة... ثم قال: والإخلاص المحض الصراح، يظهر لي أن فضيلة القرآن هي منشأ الفضائل كلها،فالقرآن مجلى أسرار الأمور، وهو يعجبني بما أجده في القرآن وهو كماقلتُ: فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم قال تحت عنوان (المعجزات في نظر الإسلام): كان محمد إذا سئل أن يأتي بمعجزة قال: حسبكم بالكون معجزة، انظروا إلى هذه الأرض، أليست من عجائب صنع الله؟ وآية على وجوده وعظمته؟ هذه الأرض التي خلقها الله لكم، ونهج لكم فيها سبلاً، تسعونَ في مناكبها، وتأكلون من رزقه، وهذا السحاب المسيّرفي الآفاق لا يدري من أين جاء، وهو مسخر في السماء كل سحابة كمارد أسود ثم يسبح بمائه ويهضب، ليحيي أرضاً مواتاً، ويخرج منه[1] نباتاً ونخيلاً وأعناباً، أليس ذلك آية؟ والأنعام خلقها لكم، تحوّل الكلأ لبناً وهي فخرٌ لكم، والسفن كالجبال العظيمة المتحركة، تنشر أجنحتها وتحتفز في سواء اليمّ... إنها معجزة وأي معجزات بعدها تريدون؟ ألستم أنتم معجزات؟ لقد كنتم صغاراً، وقبل ذلك لم تكونوا شيئاً أبداً، ثم لكم جمالٌ وقوةٌ وعقلٌ، ثم أنتم تهرمون و يأتيكم المشيب، وتضعفون، وتهن عظامكم وتموتون، فتصبحوا غير موجودين[2].

٢ ــ (الوجه الثاني من إعجاز القرآن) صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب، المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها، الذي جاء عليه، ووقفت عليه مقاطع آيه، وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحدٌ مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثرٍ أو نظمٍ أو سجعٍ أو رجزٍ أو شعرٍ، والإعجازبكل واحدٍ من النوعين، والإيجاز والبلاغة بذاتها، أو الأسلوب الغريب بذاته، كل واحدٍ منها نوع إعجازٍ، لم تقدر العرب على الإتيان بواحدٍ منها، إذ

(١) الصواب (منها) أي من الأرض. المحقق.

(٢) لخصت أقوال الفيلسوف توماس كارليل من كتابه (محمد رسول الهدى والرحمة وشريعته الخالدة) تعريب الأستاذ محمد السباعي ص ٤٥ و٤٦.

كل واحدٍ منهما خارج عن قدرتها، مباينٌ لفصاحتها وكلامها.

سمع أعرابي رجلاً يقرأ ﴿فاصدع بما تؤمر﴾[1] فسجد، فقيل له في ذلك؟ فقال: سجدتُ لفصاحة هذا الكلام. وسمع آخر رجلاً يقرأ ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً﴾[2] فقال: أشهد أن مخلوقاً لن يقدر على مثل هذا الكلام، ولما سمع الأصمعيّ من جارية كلاماً أعجبه فقالت: أو تعد هذا فصاحة بعد قول الله ﴿ وأحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾[3] فجمع بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين؟.

ولما حاول عبدالله بن المقفع أن يتحدى القرآن، وذلك حينما اتصل به بعض الزنادقة وأغروه بالمال، وعدهم سنةً وتكفلوا له بكل ما يحتاجه، ولما مضى نصف عام على وعده، زاروه فوجدوه جالساً والقلم في يده، وهو مستغرق مذهول، والأوراق متناثرة أمامه على الأرض، بينما امتلأت غرفتهُ بأوراق كثيرة ممزقة، وقد أصيب بذهول، واعترف لأصحابه بفشلهِ وغلبهِ وعجزهِ[4].

وقد فشل كثير قبل ابن المقفع أمثال مسيلمة الكذاب وطلحة بن خويلد الأسدي والنضر بن الحارث، وأبو الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندي، وأبو الطيب المتنبي.

٣ ــ (الوجه الثالث من الإعجاز) ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يتوقع؛ كما ورد في قوله تعالى في سورة الفتح[5]: ﴿ لتدخلنَّ المسجد الحرام إن شآء الله آمين) وقوله في الروم: ﴿ وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾[6] وقوله تعالى: ﴿ ليظهره على الدين كله﴾[7] وقوله عز وجل:

---

(١) (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) الآية (٩٤) من سورة الحجر. المحقق.

(٢) أول الآية (٨٠) من سورة يوسف. المحقق.

(٣) أول الآية (٧) من سورة القصص. المحقق.

(٤) انظر قصة ابن المقفع في كتاب (الإسلام يتحدى) لوحيد الدين خان ص ١١٠.

(٥) (سورة الفتح) في الأصل (سورة الإسراء) والصواب ما أثبتناه. والآية المشار إليها هي (٢٧) من سورة الفتح. المحقق.

(٦) جزء من الآيتين ٣، ٤ من سورة الروم. المحقق.

(٧) جزء من الآية (٩) من سورة الصف. المحقق.

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنَّهم من بعد خوفاً أمناً﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾[2] فكان جميع هذا كما أخبر.

٤ ــ (الوجه الرابع) ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذُّ من أخبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورده القرآن المنزل على سيد الوجود محمد ﷺ على صحته.

٤٠٤ ــ رد افتراء مكذوب على القرآن الكريم

وقال (ميلر بروز) أستاذ الفقه الإنجيلي في جامعة بيل ودرمنجهم: (بأن محمداً ألف القرآن).

وقال (نورمان دنيال) عميد كلية الملكة في جامعة أكسفورد في كتابه «الإسلام والعرب»: (الإسلام والقرآن وما فيه من تأليف الراهب بحيرا، أعطاه محمداً أثناء وجوده في بلاد الشام).

إن أقوال هؤلاء القائلين، عارية عن الصحة، يمجها العقل، ويأباها العلم، ولا يصدّق بها الأطفال الصغار، وهي مجانبة للحقيقة من عشرة وجوهٍ؛

١ ــ إن أسلوب القرآن يخالف مخالفةً واضحةً لأسلوب كلام محمد ﷺ، فحديث الرسول ﷺ تتجلّى فيه لغة المحادثة والتفهيم والتعليم والخطابة في

---

(١) الآية (٥٥) من سورة النور. المحقق.

(٢) الآيتان الأوليان من سورة النصر. المحقق.

صورها ومعناها المألوف لدى العرب كافة. بخلاف أسلوب القرآن الذي مر تحدّيه لكل من رام تقليده.

٢ ــ إن الإنسان عند قراءته لكتب الحديث كالبخاري ومسلم وغيرهما يستشعر شخصيةً بشريةً قائلةً لهذا القول، وحينما يقرأ القرآن، فقد يتراءى للقارىء عظمة قائله وقوة منزّله، ويشعر أن كلام القرآن غير كلام الحديث.

٣ ــ إن محمداً ﷺ أمي لم يدرس في مكتب أو مدرسة، ولم يتخرج من جامعة، ولم يتلق العلم من إنسان، ولم يخطّ بقلم، مما يدل على كذب هؤلاء المفترين الذين لا يعرفون قرآناً، ولا يفرقون بينه وبين محمد ﷺ.

٤ ــ إن نظرة القرآن الكاملة الشاملة المتناسقة للكون والحياة والفكر، والمعاملات والحروب والمعاهدات، والزواج والمعاملات والاقتصاد والإرث و... لو كانت من صنع محمد ﷺ لما كان محمدٌ بشراً؛ إن هذه التنظيمات، وهذه التشريعات، والآراء تعجز عن القيام بها ألوف اللجان المختصة، ولها[1] ثقافات عالمية، وتخصص عميق؛ فأنّى لمحمدٍ هذه الاختصاصات، والأوقات الكافية لها؟ مما يدل على كذب هؤلاء المفترين، وعدم اطلاعهم على القرآن.

٥ ــ لماذا يؤلف محمد القرآن على زعمهم، ثم ينسبه إلى غيره؟

٦ ــ في القرآن أخبار الأولين بما يغاير أخبارهم في الكتب المتداولة أيام محمد، وفيه إعجاز علمي في الكون والحياة والفكر والطب والرياضيات والفيزيا والكيمياء والضوء والكهرباء و...

٧ ــ في القرآن عتبٌ من الله تعالى الخالق لرسوله محمدٍ ﷺ، وفيه لومٌ لمحمد ﷺ في عدة مواضع كحادثة عبد الله بن أم مكتوم، في قوله تعالى: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾[2].

---

(١) (ولها) في الأصل بدون واو. المحقق.

(٢) من سورة عبس الآيات (١-٢ إلى العشرة).

وكقوله تعالى: ﴿عفا الله عنكَ لم أذنت لهم﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وما كان لنبيٍّ أن يغلَّ...﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا، والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى...﴾ الآية[4].

وقوله تعالى: ﴿وتخشى الناس، والله أحق أن تخشاه﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرّم ما أحلَّ الله لكَ تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾[6].

هذا العتب وغيرهُ كثير، فهل يعقل أن يؤلف محمدٌ القرآن كما قالوا وهو الأمي ثم يوجه اللوم إلى نفسه. ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾.

٨ ــ كانت تنزل بمحمدٍ نوازل وأحداث، من شأنها أن تحفزه إلى القول وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يقرأ شيئاً جديداً ولكن الإله لم ينزل عليه شيئاً يقرأه على الناس[7].

لقد ثبت عقلاً وعلماً أن هؤلاء المفترين يهرفون بما لا يعرفون وإنما دعاهم لهذا الافتراء: الحقد الأسود والحسد الذّميم في نفوسهم والواقع يكذبهم، و يرفض قولهم، و يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

---

(١) من سورة التوبة آية (٤٣).

(٢) من سورة آل عمران آية (١٦١).

(٣) من سورة الأنفال آية (٦٧).

(٤) من سورة التوبة آية (١١٣).

(٥) من سورة الأحزاب آية (٣٧).

(٦) الآية الأولى من سورة التحريم.

(٧) ذكر المؤلف من الوجوه العشرة التي أشار إليها في أول الحديث عنها ذكر ثمانية فقط ولم يذكر التاسع والعاشر. المحقق.

٤٠٥ ــ اعتراف منصفٍ في رسول الله ﷺ ومعجزته القرآن

أرىَ لزاماً عليَّ بعد أن ذكرت للسادة القراء، أقوال الحاقدين والمفترين على القرآن، أن أذكر لإخواني قول عالم إنجليزي في رسول الله ﷺ، هو مستر (بوسورت سميث) مؤلف كتاب (محمد والإسلام) ليتدبره عشّاق العلم الصحيح، وطلاب الحقيقة يقول فيه: (إن المعجزة الخالدة التي ادَّعاها هي القرآن، والحقيقة إنها لكذلك، وإذا قدَّرنا ظروف العصر الذي عاش فيه واحترام أتباعه له احتراماً لا حدَّ له، ووازنَّاه بآباء الكنيسة، أو بقديسي القرون الوسطى، لتبيَّن لنا أن أعظم ما هو معجزٌ في محمدٍ ــ رسول الله ــ أنه لم يدَّعِ القدرةَ على الإتيان بالمعجزات، وما قال شيئاً إلا فعله وشاهدهُ منه في الحال أتباعهُ، ولم ينسب إليه الصحابة معجزات لم يأتها أو أنكر صدورها منه. فأي برهانٍ على إخلاصه أقطع من ذلك؟

وقد كان محمدٌ يدعي إلى آخر حياته، كما ادعى من مبدأ أمره، أنه رسول الله حقاً، وإني أعتقد أن الفلسفة العالية، والمسيحية الصادقة، ستعترف له بذلك يوماً من الأيام)[١].

وقد أقرَّ بأمية الرسول ﷺ البابا (بيورس) لما سأله عن ذلك (الكونت أوغست) وزاد على قوله: إنّ هذا القرآن هو الكتاب الكريم قد حوى: معتقدات صافية، وعبادات قويمة، وأخلاقاً ساميةً، وتشريعات محكمة، لم يعهد، ولن يكون أسمى ولا أعدل منها، مهما ارتقتِ الانسانية في حالتي السلم والحرب[٢].

وجاء في مجلة نور الإسلام[٣] تحت عنوان: (وزير مسيحي يصف الشريعة الإسلامية) هو فارس الخوري قال في حفل مولدٍ: (إن محمداً أعظم عظماء العالم، ولم يَجُدِ الدهر بعد بمثله؛ والدين الذي جاء به أوفى الأديان وأتمها

---

(١) انظر كتاب (محمد رسول الله) ص٥١٩.

(٢) انظر (كتاب الدراسات الفقهية) للعلامة الشيخ خالد الشقفة ج١ ص١٩.

(٣) العدد الممتاز نقلاً عن جريدة المقطم المصرية في ٢٧ يونيو عام ١٩٣٥م.

وأكملها، وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية، وتشريعية، ولم يَسَعْ علماء القانون والمنصفون إلا الاعتراف بفضل الدعوة التي دعا الناس إليها باسم الله، وإنها متفقة مع العلم، مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية، إن محمداً الذي تحتفلون به وتكرمون ذكراه، أعظم عظماء الأرض سابقيهم ولاحقيهم، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم، وأنشأ منهم أمة موحدة، فتحت العالم المعروف يومئذٍ، وجاء لها بأعظم ديانةٍ، عَيَّنَتْ للناس حقوقهم وواجباتهم، وأصول تعاملهم على أسس تعدُّ من أرقى دساتير العالم وأكملها).

٤٠٦ ــ ومن معجزاته ﷺ انشقاق القمر

المعجزة هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي، وسميت معجزة، لعجز البشر عن الإتيان بمثلها، وهي تدل على صدق من ظهرت على يديه. وشرط تسميتها معجزة أن تظهر على يد مدَّعي الرسالة طبق دعواه. إن أكثر معجزات رسول الله ﷺ متواتر، رواها جمٌّ عن جمٍ، وكانت تظهر في مواطن اجتماعهم، وفي محافل المسلمين، ومجتمع العساكر والجند، ولم ينقل عن أحدٍ من الصحابة مخالفته، ولا إنكار على من روى.

من أعظم دلائل نبوته، وكبريات معجزاته القرآن الكريم، وقد تكلمت عن ذلك، وأما الآن فأكتب عن معجزة رسول الله ﷺ بانشقاق القمر، التي نطق بها[1] القرآن، قال الله تعالى: ﴿اقتربت الساعةُ وانشقَّ القمر، وإن يروا آيةً يُعرضوا و يقولوا سحرٌ مستمر﴾[2]. قال الفخر الرازي في تفسيره: والمفسرون بأسرهم على أن القمر انشق وحصل فيه الانشقاق، ودلت الأخبار على حديث الانشقاق. وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة، قالوا: سئل رسول الله ﷺ آية الانشقاق بعينها معجزة، فسأل ربَّهُ فشقَّه، وقال بعض المفسرين: المراد سينشقُّ وهوبعيدٌ، ولا معنى له، لأن من

(١) (بها) في الأصل (به). المحقق.

(٢) من سورة أقتربت الساعة آية (١ و٢).

منع ذلك وهو الفلسفي، يمنعه في الماضي والمستقبل، ومن يجوّزه لا حاجة إلى التأويل، وإنما ذهب إليه ذلك الذاهب لأن الانشقاق أمر هائل، فلو وقع لعمّ وجه الأرض، فكان ينبغي أن يبلغ حدَّ التواتر؛ نقول: القرآن أدل دليل، وأقوى مثبت له وإمكانه لا يُشكُّ فيه، لأنّ الفاعل للانشقاق الله، فهو القادر أن يشق القمر للدلالة على صدق محمد ﷺ، وقد أخبر عنه الصادق المصدوق ﷺ فيجب اعتقاد وجوبه.

وعن حذيفة رضي الله عنه، أنه لما خطب بالمدائن قال: ألا إن الساعة قد اقتربتْ، وإن القمر قد انشقّ على عهد نبيكم ﷺ، وقال العلامة محمود الزمخشري في تفسيره الكشاف: انشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ ومعجزاته النيرة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الكفّار سألوا رسول الله ﷺ آيةً فانشق القمر مرتين. وكذا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما. قال ابن عباس رضي الله عنهما: انفلق فلقتين فلقة ذهبتْ، وفلقة بقيتْ، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: رأيتُ حراء بين فلقتي القمر؛ وعن بعض الناس: أن معناه ينشقّ يوم القيامة. وفي تفسير الطبري: وقوله: وانشق القمر، يقول جل ثناؤه وانفلق القمر، وكان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة، قبل هجرته إلى المدينة، وذلك أن كفّار أهل مكة سألوه آية، فأراهم ﷺ انشقاق القمر حجةً على صدق قوله وحقيقة نبوته، فلما أراهم أعرضوا وكذبوا وقالوا هذا سحر مستمر، سحرنا محمدٌ، فقال الله جل ثناؤه: ﴿وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾[1] وبنحو الذي قلنا في ذلك جاءت الآثار، وقال به أهل التأويل) ا هـ.

وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آيةً فأراهم انشقاق القمر مرتين، وعن عبد الله بن مسعود قال انشق القمرُ ونحنُ مع رسول الله ﷺ بمنًى حتى ذهبتْ منه فرقة خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا. وعن عبد الله أيضاً قل: انشق القمر على عهد رسول

---

(١) الآية الثانية من سورة القمر. المحقق.

الله ﷺ فصار فرقتين، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق: اشهد يا أبا بكر! فقال المشركون: سحر القمر حتى انشقّ؛ قال القسطلاني شارح البخاري: وهذه معجزة من أمهات المعجزات الفائقة على معجزات سائر الأنبياء، لأن معجزاتهم عليهم السلام لم تتجاوز الأرضيات؛ وكان انشقاق القمر قبل الهجرة بخمس سنين. وإلى حادثة انشقاق القمر أشار شيخنا العلامة الشيخ محمود الشقفة بقوله:

بدر السماء لأحمد مشطورُ وبأصبعيه غدا الماءُ النمير

فمعجزة انشقاق القمر ثابتة في الكتاب والسنة وعن أكابر أصحاب رسول الله ﷺ، أما من قال: إن[1] المراد أنه سينشق، فهو إما منكر المعجزات حتى المذكورة في القرآن وهي كثيرة لا تحصى، وإما أنه لا يفهم اللغة العربية. فقد قال الله تعالى: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ لأن الكفار لما رأوا انشقاق القمر بعد أن سألوا رسول الله ﷺ، كابروا وقالوا إنه سحر مستمر، ولو كانت الآية تدل على أن القمر سينشقُّ لما كان هناك معنًى لقوله: وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحر مستمر، والآية هي معجزة الانشقاق. والذين أنكروها بعد رؤيتها هم كفار قريش، وكان ذلك دأبهم.

وقد روى أحاديث الانشقاق أهل السنة والجماعة، كالبخاري؛ ومسلم، والإمام أحمد بن حنبل، والبيهقي، وبقية كتب أهل السنن، وقد ذكرت تفسير الآية لكبار المفسرين.

قال العلامة الشيخ حمزة فتح الله في كتابه (باكورة الكلام في حقوق النساء في الإسلام) ما نصه:

(ومن ذلك يعلم أنه لا محذور في انشقاق القمر لسيدنا رسول الله ﷺ، وإن تأويل آيته بوضع المستقبل موضع الماضي لتحققه لا داعي إليه، فضلاً عن كونه خلاف الصحيح.

---

(١) (أما من قال: إن المراد) في الأصل (أما من قال من أن المراد) وقد حذفنا كلمة (من) ليستقيم المعنى. المحقق.

وقد ذكرت الجرائد الأجنبية مقالاً، عرَّبتْها جريدة الإنسان العربية التي كانت تطبع بالآستانة العلية، حاصلها: أنه عثر في ممالك الصين على بناء قديم مكتوب عليه أنه بُنيَ عام كذا، الذي وقع فيه حادث سماوي عظيم وهو انشقاق القمر نصفين، فحرر الحساب فوافق سنة انشقاق القمر لسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ). ا هـ.

٤٠٧ ــ ومن معجزاته ﷺ نبع الماء من بين أصابعه

ومن معجزاته ﷺ الثابتة الواضحة، نبع الماء من بين أصابعه الشريفة: وقد روى حديث نبع الماء من بين أصابعه ﷺ جماعة من الصحابة، منهم أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، وقد حدث ذلك يوم غزوة الحديبية ــ وقد مر ذكر ذلك فيها ــ وفي غزوة بواط التي وقعت بعد هجرة الرسول ﷺ على رأس ثلاثة عشر شهراً، وفي غزوة تبوك، حدث ذلك أمام الجموع الكثيرة، ولم ينكر هذا الحديث أحدٌ من الصحابة، حتى قال قائلهم بعد لجابر بن عبد الله: كم كنتم؟ قال: كنا أربع عشرة مائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا، في رواية. وجاء في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال: أتي النبيُّ ﷺ بإناء وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه ﷺ، فتوضأ القومُ، قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، فالتمس الوضوء فلم يجدوه، فأُتِيَ رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء، فأمر الناس أن يتوضئوا منه، فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه ﷺ فتوضأ الناس حتى توضئوا عن آخرهم[1].

ومن معجزاته: (تكثير الطعام) ببركته ودعائه، وقد حدث هذا مرات كثيرة، وأقرّ به كثير من صحابته الذين لمسوه وعلموه علم اليقين. ومنها (حنين

---

(١) (عن آخرهم). في الأصل (من عند آخرهم). المحقق.

الجذع) الذي كان يضع يده ﷺ عليه حين يخطب بالمسلمين على منبره، فاستغنى عنه ﷺ وتركه فسُمِعَ لذلك الجذع حنينٌ بصوت كصوت الناقة إذا حنت على ولدها، حتى ارتجَّ المسجد ببكاء الناس لذلك، ولا زال يحنُّ حتى نزل الرسول ﷺ عن المنبر وضمَّه وحضنه فسكن، فأمر به ﷺ فدفن تحت المنبر، وقال ﷺ: والذي نفسي بيده! لو لم ألتزمه، لم يزل هكذا إلى يوم القيامة؛ تحزّناً على ترك رسول الله ﷺ له. وحديث حنين الجذع مشهور، رواه من الصحابة بضعة عشر؛ منهم أبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وسهيل بن سعيد، والمطلب بن أبي وداعة، وأبو سعيد الخدري، وبريرة، وأم سلمة رضي الله عنهم. وقد حدث به كلهم بمعنى هذا الحديث، والحديث في صحيح البخاري.

ومنها: (إبراء المرضى وذوي العاهات) فإنه ﷺ ثبت أنه ردَّ عين قتادة في غزوة ذي قَرَد، وتفل في عين عليٍّ يوم غزوة الخيبر، وكان رمداً فبرىء بإذن الله.

ومنها: (الإسراء والمعراج).

ومنها: (نسج العنكبوت في الغار).

ومنها: (ما وقع لسراقه بجواده ولبس حلي كسرى).

ومنها: (دعاؤه ﷺ لعبد الرحمن بن عوف بالبركة) فصار أغنى العرب والمسلمين، وكذا دعاؤه ﷺ لثعلبة عندما طلب منه أن يرزقه الله غنماً، فنمت عنده كما ينمو الدود لكثرتها، (ودعاؤه لمعاوية بالتمكن في البلاد) فنال الخلافة، (ودعاؤه لسعد بن أبي وقاص) أن يجيب الله دعوته، فما دعا على أحدٍ إلا استجيب له، وقال ﷺ للنابغة: (لا يفضض الله فاك) فما سقطت له سنٌّ، وعاش مائة وعشرين سنة، وأصاب ملاعب الأسنة مرض الاستسقاء، فبعث إلى النبي ﷺ فأخذ بيده الشريفة حثوة من الأرض فتفل عليها ثم أعطاها رسوله، فأخذها وهو يرى أنه قد هزىء به، فأتاه بها وهو على شفا فشربها ببركتها فشفاه الله بقدرته.

(ومنها: تسبيح الحصا في يده).

(ومنها): دعاؤه ﷺ لعمر أن يعزّ به الإسلام فكان كذلك.

(ومنها): در اللبن لشاة لم ينزُ عليها الفحل كشاة أم معبد.

(ومنها): إخباره ﷺ بموت النجاشي في يومه وحينه.

(ومنها): إعلام الشاة المسمومة عند اليهودية وقول الذراع: لا تأكلني يا رسول الله!..

(ومنها): إخباره لعثمان بمصيبة كبيرة تصيبه خاصة وكانت بقتله رضي الله عنه.

هذا قليلٌ من كثير من معجزاته ﷺ التي لا تعد ولا تحصى. ومنها حديث طلحة أنه ﷺ أطعم ثمانين رجلاً من أقراصٍ من شعير جاء بها أنس.

٤٠٨ ــ اتباع صاحب الرسالة بتنفيذ تعاليم الإسلام

بعدما قدمت للسادة القراء «الاصطفا في سيرة المصطفى» ﷺ، واقتربت من نهايته بما وفقني الله من البحث والتدقيق عن حياة سيد الخلق وإمام الصدق: أتوجه بكلمتي هذه إلى إخواني المسلمين قائلاً: علينا يا معاشر المسلمين وجماعة المؤمنين، وأحباب رسول الله رب العالمين، أن نتمسكَ بالشريعة الإسلامية الغرّاء، ونقتدي بأخلاق حبيب الله ومصطفاه، حتى نصل إلى أوج السعادة في الدارين، وإنَّ مَنْ تَمَعَّنَ في كتاب الله عز وجل، يجد أنه قد حوى مكارم الأخلاق، وأنه حثَّ على الفضائل العالية، والآداب السامية، ونهى عن الرذائل والدنايا، مع أن ما نراه اليوم من الحضارة الحديثة، والمدنية البراقة من علوم وآداب، فإنها لا تعدُّ شيئاً في جانب تعاليم الإسلام النقية الطاهرة، التي شعت على العالمين نوراً وهدى، ولولاها ما تمدن الغرب، ولا تفنَّن الشرقُ، ولا تقدمت الإنسانية بعلومها وفنونها؛ فنحن يا أمة القرآن، وأبناء محمدٍ سيد ولد عدنان، أحق بالاتصاف بكل فضيلة، والابتعاد عن كل رذيلة من

أية أمةٍ أخرى؛ لقد قضى أجدادُكم المسلمون كما قرأتم في كتابي هذا، عن[1] مخازي الوثنية، وآفات الجاهلية، وفتح الله عليهم، وسادوا الأمم، ونشروا العلوم بفضل عقيدتهم، وبما اتصفوا به من صفات الرجولة والأخلاق القوية، والآداب الكريمة التي استفادوها من تعليمات الله في القرآن الكريم، وتعاليم رسول الله الصادق الأمين.

إنه من المحزن أن نرى تدهور الأمة الإسلامية الآن، وأن نرى انتشار الفساد والتهاون بأنواعه: تهاوناً في إقامة الشعائر الدينية من الصلاة والحج والزكاة والصوم، والصدق والأمانة والحب والمودة؛ تهاوناً في اكتساب العلوم ومنافسة الأمم التي سبقتنا أشواطاً في هذا المضمار؛ تهاونا في الحقوق الوطنية حيث تسلب منا شيئاً فشيئاً؛ تهاوناً في الذّود عن الكرامة والمروءة والشرف.

من المحزن حقاً أن نرى فتوراً في الهمم،وتقصيراً في الواجبات، واستهتاراً بالفضائل، وإقداماً على اقتراف الرذائل، ومباهاة بالجرائم والمخازي والفضائح حتى خرجنا على عاداتنا وأصبح الخنفوس يعشعش في رؤوس شبابنا وأردية بناتنا، وأزياء كهولنا.

هل كان سلفنا الصالح يتركون بلادهم طعمةً ونَهباً لكل طامع ولا يحرّكون ساكناً؟ هل كانوا يتخاذلون و يتباغضون ولا يتعاونون؟ هل كانوا لا يشفقون على الضعفاء والمساكين، ولا يبرُّون الأقارب ولا يصلون الأرحام، ولا يعودون المرضى، ولا يغيثون الملهوفين؟ هل كانوا جامدي الإحساس لا يشعرون بمصائب الناس؟ هل كانوا يكتمون الحقّ، ولا يحاربون الباطلَ، ولا ينصفون المظلوم ولا يضمدون جراح المكلوم؟ هل كانوا يغفلون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، و يدّعون أنهم عاجزون مقهورون. لا حول لهم ولا قوة؟ ثم يتركون حبل الأمور على غاربها، طمعاً في ربح قليلٍ أو كثير، وحباً في المناصب الزائلة، أو الجاه الموهوم، وتعلقاً بزخارف الدنيا الزائلة، وشهواتها الفانية؟ إنهم لو فعلوا ذلك لما قامت لهم قائمة، وما كان لهم ذلك الأثر المجيد في تاريخ الدنيا.

---

(١) (عن) في الأصل (على). المحقق.

إن الأجانب قد درسوا حالتنا الاجتماعية، وما وصلنا إليه من انحطاط وجهالة، وخورٍ في العزائم؛ وحكموا[1] بأن هذا راجع إلى جوهر ديننا وتعاليمه، لينفرونا منه، و يصدونا عنه، لئلا ترجع إلى الإسلام شوكتُه الأولى؛ وقد اغترَّ بكلامهم بعض قاصري النظر من المسلمين، فعزّزوا آراءهم، وطعنوا على الدين طعنات شتى، زاعمين أنهم مصلحون؛ وهم في الحقيقة مفسدون، يخربون بيوتهم بأيديهم، و يا ليتهم وقفوا عند هذا الحد؛ بل حللوا المحرمات، ونشروا الفساد، وروّجوا الضلال، وتعلّقُوا بمظاهر المدنية الغربية، من خمورٍ وفجور، ولهوٍ وخلاعة وإباحية، وما دروا أن علماء الغرب والشرق ساخطون ناقمون على انتشار الفساد، وقد صرحوا مراراً وتكراراً أن هذه المساوىء منذرةٌ بسقوط الأمم، مؤذنة بخرابها مع أنها الآن في غاية القوة والمنعة.

قال الأستاذ (بيتريم ساروكين) مدير الأبحاث بجامعة (هارفارد): (إن أمريكا سائرة بسرعة إلى كارثة في الفوضوية الجنسية، الذي سيؤدي إلى السقوط كما سقطت الأمبراطورية الإغريقية، ثم الامبراطورية الرومانية، في الزمان القديم[2]).

فأفهموا هذا يا أمة الإسلام! وأفيقوا من كبوتكم، واستيقظوا من رقادكم، وأقيموا أحكام شريعتكم في أنفسكم، وتزودوا من العلم النافع، فإن من العلم ما هو أشد ضرراً من الجهل، ومن لم يفده العلم فقد باء بخسران مبين.

هذه سيرة نبيكم ﷺ بين أيديكم، وترجمة أكابر أصحابه فيها، فاعملوا على تطبيق ما جاء فيها من السجايا الحميدة والأخلاق الفاضلة، التي هي منار العالمين: هذا ما أردتُ توجيهه إلى السادة القراء بشأن اتباع تعاليم الشريعة الغراء، وما لها من أهمية قصوى في مضمار الحياة، وهي نصيحةٌ موجهةٌ للمسلمين عامةً، والله الهادي إلى سوآء السبيل.

---

(١) (وحكموا) في الأصل (حكموا) بدون واو. المحقق.

(٢) انظر كتابنا (النبي الأمين قدوة للمؤمنين) ص ٢٤.

٤٠٩ ــ وجوب الاقتداء بأخلاق رسول الله ﷺ

يجب على المسلمين الاقتداء بأخلاق حبيب الله ومجتباه وصفيه ومصطفاه، لأنه خير قدوة لنا؛ قال ذو النون[١] المصري رحمه الله تعالى: من علامات المحبِّ لله عز وجل متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه.

وأنا أورد للسادة المحبين لله ولرسوله هنا بعض صفاته التي ذكرتُ بعضاً منها فيما مضى، وأذكر هنا بعضاً آخر للتحلي بها وذلك عن طريق الاختصار، فأقول:

١ ــ كان رسول الله ﷺ نقيَّ الثوب.

إن النظافة من الإيمان، فالمسلم يجب عليه أن يكون نظيف الثياب والأعضاء، والقلب لأنه محل نظر الله إليه؛ وقد فُرض الوضوء والغسل على كل مسلم لتحقيق النظافة قال الله تعالى: ﴿وثيابك فطهِّر﴾[٢] ويعتني المسلم دائماً بنظافة ثيابه وجسمه، وطهارة الفم والاسنان مستعملاً السواك ويتطيّب، كما يحافظ على طهارة لسانه من الغيبة والنميمة، والكذب، ويبتعد عن حلف الأيمان الكاذبة.

٢ ــ لا يقول هُجْراً، ولا ينطق هذَراً. ــ وهجراً ــ أي فحشاً ــ .

وما أكثر قول الهجر والهذر عندنا! وما أكثر الماجنين والسبابين والعيّابين! فهلا اقتدينا برسول الله وتأدبنا بأدبه في الكتابة والقول، وابتعدنا عن الهجر والسب واللعن! ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيد﴾[٣].

٣ ــ لا يقطع على أحدٍ حديثه.

فانظر أيها المسلم! إلى هذا الأدب والحلم وسعة العقل، فكثرة الكلام وقطع الحديث على المتكلم، والهذر والمزاح والغيبة والنميمة والمراء، ليس هو من خلق المسلم، وليس هو من المروءة في شيء.

---

(١) (ذو النون) في الأصل (ذا النون). المحقق.

(٢) الآية (٤) من سورة المدثر. المحقق.

(٣) الآية (١٨) من سورة (ق). المحقق.

٤ ــ يتفقد أصحابه و يسأل عنهم.

لا فرق في ذلك بين كبير وصغير، وغني وفقير، لكن الناس يخصُّون الأغنياء بالسؤال عنهم، و يتكبر الأغنياء على الفقراء، و يتعاظمون عليهم و يرون أنهم من طينة غير طينتهم، ومن هذا نشأت العداوة والبغضاء، وتفككت روابط الأسر والأمة، وقد كان ﷺ مؤلفاً للقلوب، فيصل من قطعه، ويعطي من حرمه، ويعفو عمن ظلمه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق والمسألة، ويعود المريض ويشهد الجنائز.

٥ ــ إذ انتهى إلى قومٍ جلس حيث ينتهي به المجلس.

أين هذا الخلق الكريم المتواضع من الذين دأبهم التصدر في المجالس بحق وبغير حق، وسواء كان المجلس خالياً أو مكتظاً؟ إن الناس يظنون أن التواضع ضعةٌ وضعفٌ، لكن في التواضع رفعة، ومن تواضع لله رفعه، ولن يسود إنسان بالفظاظة والغلظة والتكبّر.

٦ ــ كان أسخى الناس كفاً.

ما عرف التاريخُ أسخى كفاً من رسول الله ﷺ، وهو قدوة المؤمنين، لا يرضى لأتباعه أن يكونوا بخلاء، ولا أشحاء، لأن البخيل ممقوت؛ وقد قال بعض العلماء: إن البخلَ من سوء ظنّ المرء بالله، ولا نعلم أنّ بخيلاً أحبّهُ الناسُ واحترموه؛ ورحم الله الإمام الشافعي حيث قال:

أحسنْ إلى الناس تَستعبد قلوبَهمُ فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

٧ ــ لم يُرَ ﷺ قط مادّاً رجليهِ بين أصحابه.

أما نحن الآن نفعل كلَّ ما يخالف الآدابَ، بلا اكتراثٍ، ظنّاً منا أن ذلك من الحرية، لكن الحرية في المجتمع لا تكون من طرفٍ واحدٍ، بل يجب مراعاة إحساس الأصدقاء واحترام الناس؛ فالأولاد يجب عليهم التأدب في حضرة آبائهم وأساتذتهم ومعلميهم وأقرانهم، كما أنه على الآخرين مراعاة الأدب معهم للاقتداء بهم ومحبتهم؛ ومن كان محباً لرسول الله ﷺ اقتدى به، ونفّذ الآداب التي كان عليها.

٨ ــ كان ﷺ يخدم نفسه.

ومن ذلك أنه كان يخصف نعله، و يرقع ثوبه، و يكنس بيته، ويحلب شاته، وكان يعتمد على نفسه في أموره؛ فعلينا إذاً أن نقتدي به، ونعتمد على أنفسنا في تدبير حاجاتنا.

٩ ــ قال ﷺ: «إذا عمل أحدُكم عملاً فليتقنْهُ».

الإتقان أيها المسلم! أسُّ النجاح في الحياة، فلا يستهين المرء به، فالعلمُ يحتاج إلى الإتقان، والصناعة تحتاج إلى الإتقان، والتجارة تحتاج إلى الإتقان، والنظام الذي هو أساس الحضارة والعمران ما هو إلا الإتقان. وما سوى ذلك فهو إهمال وتقصير، يؤديان إلى الانحطاط والارتباك والخراب، ولا يريد ذلك رسول الله ﷺ، بل يطلب منّا ويُريدُ الاتقان، لذا قال: «إذا عمل أحدكم عملاً فليتقنه».

١٠ ــ كان رسول الله ﷺ يستشير أصحابه.

المشورة في كل شيء حسنة لا تأتي إلا بخير، لذا قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وأمرهم شُورَى بينهم﴾ (١) وقد أمر الله رسولَه بالمشورة فقال عز من قائل: ﴿وشاورهم في الأمر﴾(٢). ولا خاب من استشار؛ قال الحسن البصري: (أمر الله رسوله؛ بمشاورتهم، ليستنّ به المسلمون، ويتبعه المؤمنون فيها، وإن كان عن مشورتهم غنياً). فالاستبداد في الرأي مناف للإسلام، وهو من علامات الكبْر والغطرسة والحماقة، وليس في المشورة إلا ما يدل على صاحبها؛ سعة العقل وبُعد النظر، والرغبة في الإصلاح، والإسلام من مبدئه يقرر فوائد الاستشارة ويحث عليها، لأنها أسّ الفضائل والمكرمات.

١١ ــ الثبات على المبدأ.

إن من تصفح سيرة الرسول العظيم، يتضح له أنه ﷺ لم يتحول عن مبدئه قيد أنملةٍ من نبوته إلى وفاته، وقد تحمل إيذاء المشركين بكل صبرٍ ولم يذق

---

(١) جزء من الآية (٣٨) من سورة الشورى. المحقق.

(٢) جزء من الآية (١٥٩) من سورة آل عمران. المحقق.

للراحة طعماً، في سبيل نشر الدين، ولم يقبل ما عرضته عليه قريش من ملكٍ ومالٍ وجاه، فماذا كانت نتيجة ثباته على مبدئه؟ كانت النتيجة أنه هزم المشركين، وفتح بلادهم، وهدم الأصنام، ونشر الإسلام، وتوفي على مبدئه الإسلامي بعد أن بلّغ رسالات ربه، بكل أمانة وإخلاص، وبعد أن قام بالواجب خير قيام، فليعتبر المسلمون بثبات نبيهم، وليقتدوا به في جميع أمورهم في هذه الحياة.

٤١٠ ــ من دُرَرِ أقواله من مشكاة هدية الشريف

قال ﷺ في الصحاح:

١ - اتّقِ اللهَ في عسركَ و يسركَ.

٢ - اتقوُا مواضع التهم.

٣ ــ اجتنب الخمر فإنها مفتاح كل شرٍّ.

٤ - أحبُّ الأعمال إلى الله تعالى أدومُها وإن قلّ.

٥ ــ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

٦ - أدبني ربي فأحسنَ تأديبي.

٧ - إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموهُ.

٨ - إذا أحبَّ الرجلُ أخاهُ فليخبره أنه يحبه.

٩ - إذا لم تستح فاصنعْ ما شئتَ.

١٠- إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.

١١- ارحموا من في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء.

١٢- استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ.

١٣- أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.

١٤- أعدَى عدوِّكَ نفسُكَ التي بين جنبيكَ.

١٥- اعقلها وتوكل.

١٦- الأعمال بالخواتيم.

١٧- أفضلُ الجهاد كلمةُ حقٍّ عند سلطان جائرٍ.
١٨- أكملُ المؤمنين إيماناً، أحسنُهم خُلُقاً.
١٩- ألا كلكم راعٍ، وكل راعٍ مسئولٌ عن رعيته.
٢٠- ألا لا طاعة لمخلوقٍ، في معصية الخالق.
٢١- انتظار الفرج عبادة.
٢٢- أنت ومالك لأبيكَ.
٢٣- انصر أخاكَ ظالماً أو مظلوماً.
٢٤- إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىءٍ ما نوى.
٢٥- إنما يرحم الله مُن عباده الرحماء.
٢٦- بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق.
٢٧- التائب من الذنب كمن لا ذنب له.
٢٨- ترك الشّرّ صدقة.
٢٩- الجنة تحت أقدام الأمهات.
٣٠- الحلالُ بيّنٌ، والحرامُ بينٌ.
٣١- الحياء لا يأتي إلا بخير.
٣٢- الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله.
٣٣- خيركم من تعلّم القرآنَ وعلّمه.
٣٤- خير الناس أنفعهم للناس.
٣٥- الدعاء مُخُّ العبادةِ.
٣٦- الدعاء يُردُّ البلاء.
٣٧- الدنيا متاع، وخيرُ متاعِ الدنيا، المرأةُ الصالحة.
٣٨- الدنيا مزرعةُ الآخرة.
٣٩- الدين النصيحة.
٤٠- رأس الحكمة مخافة الله.
٤١- رأس الدين الورع.
٤٢- رضا الله من رضا الوالدين، وسخطه من سخط الوالدين.

٤٣- الزنا يورث الفقر.
٤٤- الساعي على الأرملة والمسكين، كالساعي في سبيل الله.
٤٥- ساقي القوم آخرهم شرباً.
٤٦- سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر.
٤٧- السعيد من وُعِظَ بغيره.
٤٨- سيد القوم خادمهم.
٤٩- الصلاة عماد الدين.
٥٠- صوموا تصحوا.
٥١- طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.
٥٢- طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.
٥٣- الظلم ظلماتٌ يوم القيامة.
٥٤- العائد في هبته كالعائد في قيئِهِ.
٥٥- قل الحقَّ ولو كان مرّاً.
٥٦- القناعةُ كنزٌ لا يفنَى.
٥٧- كل شرابٍ أسكر فهو حرام.
٥٨- كل معروف صدقة.
٥٩- كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعدَّ نفسَكَ في أهل القبور.
٦٠- لا تجلس بين رجلين إلا بإذنهما.
٦١- لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضَوا إلى ما قدموا.
٦٢- لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله.
٦٣- لا تُنزع الرحمةُ إلا من شقيٍّ.
٦٤- لا يجني على المرء إلا يدُه.
٦٥- لا يحكم أحدٌ بين اثنين وهو غضبان.
٦٦- لا يخلونَّ رجلٌ بامرأة، ولا تسافر امرأة إلا ومعها محرم.
٦٧- لا يدخل الجنة قتّاتٌ ــ أي نمام ــ.
٦٨- لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبرٍ.

٦٩- لا يزال العبدُ في صلاة ما دام في المسجد ينتظر الصلاة،ما لم يحدث.
٧٠- لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.
٧١- لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين.
٧٢- لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.
٧٣- لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء،والمتشبهات من النساء بالرجال.
٧٤- ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا، و يأمر بالمعروف وينْه عن المنكر.
٧٥- ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.
٧٦- المرء مع من أحب.
٧٧- المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه.
٧٨- من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.
٧٩- من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.
٨٠- من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا.
٨١- ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً.
٨٢- من صمتَ نجا.
٨٣- من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت.
٨٤- من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره.
٨٥- المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً.
٨٦- نعم المال الصالح للرجل الصالح.
٨٧- الوحدة خير من جليس السوء.
٨٨- يا عباد الله تداووا، فان الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً غير داء واحدٍ الهَرَم.
٨٩- يسّروا ولا تعسّرُوا، و بشّروا ولا تنفروا.
٩٠- ينزل عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق.
٩١- يقتل ابن مريم الدجال بباب لدٍّ.

٩٢- يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته.
٩٣- يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء.
٩٤- يحبُّ الله العامل إذا عمل أن يحسنَ.
٩٥- يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب.

٤١١ ـ الخاتمة مسك الختام

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النعمة الكبرى، والسعادة العظمى، وآله وأصحابه نجوم الاهتدا، وبعد: فهذا كتاب الاصطفا في سيرة المصطفى ﷺ، قد تمَّ بفضل الله وتوفيقه، وها هو بين أيدي السادة القراء، وقد اصطفيته من مائة وخمس وعشرين مصدراً ومرجعاً، في بحوث تعدادها أربعمائة وثمانية بحثاً، بعناوينها المبينة خلال صفحاته المشرقة، والمسجلة في فهرسة الكتاب.

وقد انتقيتُ أخبار حبيب الله ومصطفاه من الكتب المختارة، والأخبار المتواترة الموثوقة، وابتعدتُ عن الحشويات، وضعيف الروايات، ليكون الكتاب مصفًّى، على اسم المصطفى، يحملُ سيرة بطل الأبطال، وإمام أهل الفضل والكمال، الذي أنقذ العالم بدعوته، وأنار الوجود بحسن طلعته، من بدَّلَ نظرة الحياة الأولى قبله إلى حياة أفضل، وطريقة أمثل، بما أتى به الإسلام من أصول ثابتة وأحكام، بشريعة خالدة مدى الأزمان والأعوام. هذه الشريعة الخالدة التي أثرَّتْ في العالم كله تأثيراً عميقاً، في الحياة، من حضارة ومدنية وعلوم، وأخلاق وآداب، وتنظيم في المعاملات والعبادات، ومعاهدات سلمية، وبثَّ للسلام في ربوع الدنيا، وربّتْ من بني الإنسان أمةً قوامُها الصدق والأمانة، وغايتُها العدل والمساواة والحرية، والإخاء والمحبة، وإرادة الخير لجميع الناس، وكما أسَّستْها على البرِّ والتقوى، نهتْها عن الكذب والغش والخداع والظلم، بل عن كل منكرٍ وفحشاء.

وقد بلغتْ في العالم حداً مرشدةً وهاديةً ومعلمةً: أن هدتْ إلى معرفة الله واجب الوجود سبحانه وتعالى، وأرشدتهم إلى دار الخلود، والجزاء فيها لما يقوم الإنسان به[1] من أعمالٍ وأفعالٍ ﴿فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره﴾[2].

قام رسول الله ﷺ يبث عقيدته الصحيحة، على مبدأ حفظ الحقوق وكرامة الإنسان، لا فضل لعربي على عجمي[3] إلا بالتقوى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[4]: وقد صدق رسول الله ﷺ في تبليغ رسالة الله بهمّة لا تعرف الوهن، وعزيمة لا تعرف الملل، حتى شعت على العاملين نوراً وهدًى، ولولا صدقُه، لرأينا العالم غارقاً في الجهالات، سادراً[5] في الغوايات، غارقاً في الأهواء، يغشاه الذلُّ والظلمُ في كل مكان، فأنار البصائر، وهدى الضمائر، فكان نبراساً في الحق، ونوراً وضياء للعالمين، وصدق الله حيث يقول مخاطباً رسولَهُ الصادقَ الأمين: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[6].

٤١٢ ــ وخلاصة القول

وخلاصة القول: أن رسولنا الكريم جمع الفضائل كلها، ونور الدنيا، وهدى البرية، ويكفيه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[7] وقوله ﷺ: ﴿أدبني ربي فأحسن تأديبي﴾ وقوله: ﴿إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق﴾.

هذا هو حبيب الله ومجتباه الذي شغفتُ بحبّهِ، وألفتُ سيرتَهُ. وغاية ما ارجوه من السادة القراء، قراءة هذا الكتاب (الاصطفا في سيرة المصطفى)

---

(١) لم يذكر في الأصل كلمة (به). المحقق.
(٢) الآيتان الأخيرتان من سورة الزلزلة. المحقق.
(٣) (عجمي) في الأصل (أعجمي). المحقق.
(٤) جزء من الآية (١٣) من سورة الحجرات. المحقق.
(٥) (سادراً) في الأصل (ساراً) والصواب ما أثبتنا. المحقق.
(٦) الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء. المحقق.
(٧) الآية (٤) من سورة القلم. المحقق.

لينتفعوا منه، وما حققتُه من دراسةٍ عن أعمال وأقوال وشمائل عن[1] هذا النبي الأمين، وعن صحابته الغر الميامين.

أسأل الله العليَّ القدير أن يتقبل مني ما بذلته من جهدٍ وعناء ضمن طاقتي، وما وفقني الله إليه، و يسَّرهُ عليَّ، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وخدمة مني لرسولهِ السندِ العظيم.

وأجعل مسك الختام ابتهالي إلى الله السميع العليم قائلاً: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنتَ الوهاب﴾، ربنا وتقبل منا إنك أنت السميع العليم، واهدنا إلى الصراط المستقيم، وانصرنا على القوم الكافرين.

وصلِّ اللهمَّ على سيدنا محمدٍ الواسطة العظمى في استفاضة كل خير، واجعلنا من أحبابه، واحشرنا في زمرته، واجعلنا من أهل شفاعته يوم الدين، واجعلنا من خدام سيرته وشريعته ومحبي آله وأصحابه، وآخر دعواهم[2] أن الحمد لله رب العالمين.

وكان إتمام هذه السيرة في أول شهر رجب الفرد سنة ألف وثلاثمائة وسبع وتسعين هجرية يوم الجمعة الموافق السابع عشر من شهر حزيران سنة ألف وتسعمائة وسبع وسبعين ميلادية.

المؤلف

محمد نبهان الخباز

---

(١) لم يذكر في الأصل كلمة (عن) وقد أثبتناها لحاجة المعنى اليها. المحقق.

(٢) لو قال (دعوانا) بدل (دعواهم) لكان أوجه. المحقق.

٤١٣ ــ المصادر والمراجع

١ - **القرآن الكريم**، من كلام رب العالمين.
٢ - **كتب الصحاح في الحديث**، من أقوال رسول الله ﷺ.
٣ - **كتب السنن في الحديث**، من أقواله ﷺ.
٤ - **تفسير الخطيب السراج المنير**، محمد الخطيب الشربيني.
٥ - **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.
٦ - **تفسير الفخر**، الرازي.
٧ - **المصباح المنير**، أحمد بن محمد المصري الفيومي.
٨ - **حياة محمد ﷺ**، محمد حسين هيكل.
٩ - **حياة محمد ﷺ**، إميل در منغن نقل عادل زعيتر.
١٠ - **الوحي المحمدي**، محمد رشيد رضا.
١١ - **محمد المثل الكامل**، محمد أحمد جاد المولى.
١٢ - **عبقرية محمد ﷺ**، عباس محمود العقاد.
١٣ - **الأبطال**، توماس كارليل.
١٤ - **بطل الأبطال**، عبد الرحمن عزام.
١٥ - **على هامش السيرة**، طه حسين.
١٦ - **هدي الرسول مختصر زاد المعاد**، محمد أبو زيد.
١٧ - **مروج الذهب**، للمسعودي.
١٨ - **مسند الإمام أحمد**، أحمد بن حنبل.
١٩ - **تاريخ الطبري**، ابن جرير الطبري.
٢٠ - **هداية المرشدين**، الشيخ علي محفوظ.
٢١ - **مكة أم القرى**، فؤاد علي رضا.

٢٢ - **الجامع الصغير**، لجلال الدين السيوطي.
٢٣ - **نظرات في الشريعة**.
٢٤ - **صراع مع الباطل**.
٢٥ - **محمد رسول الله**، محمد رضا.
٢٦ - **الطبقات الكبرى**، لإبن سعد.
٢٧ - **الطبقات الكبرى**، لإبن سعد.
٢٨ - **جد الرسول ﷺ**، لعلي الخربوطلي.
٢٩ - **دائرة المعارف العربية**، البستاني.
٣٠ - **أخبار مكة**، الأزرقي.
٣١ - **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، علي بن أحمد المصري السمهوري.
٣٢ - **المختصر في أخبار البشر**، عماد الدين إسماعيل أبي الفداء.
٣٣ - **طرح التثريب في شرح التقريب**، عبد الرحيم العراقي.
٣٤ - **سيرة النبي ﷺ**، عبد الملك بن هشام.
٣٥ - **كتاب المعارف**، البريطانية.
٣٦ - **تاريخ الأمم والملوك**، الماوردي.
٣٧ - **الشفاء**، للقاضي عياض.
٣٨ - **إشارات الإعجاز**، العز بن عبد السلام.
٣٩ - **لماذا أومن بالله**، هلال علي هلال.
٤٠ - **لسان العرب**، لابن منظور.
٤١ - **الأصنام**، لأبي المنذر هشام.
٤٢ - **الأصنام**، لابن الكلبي.
٤٣ - **الإصحاح الثامن من سفر التثنية**، إنجيل يوحنا.
٤٤ - **تاريخ اليهود**، ولفنسون.
٤٥ - **معجم الأدباء**، كلاهما: لياقوت الحموي.
٤٦ - **معجم البلدان**.
٤٧ - **سيرة النبي ﷺ**، ابن سيد الناس.

٤٨ - **قادة الفتح الإسلامي الرسول القائد**، محمود شيت خطاب.
٤٩ - **أسد الغابة**، لابن الأثير.
٥٠ - **نور اليقين في سيرة سيد المرسلين**، محمد خضري.
٥١ - **إنسان عين العيون**، علي بن برهان الحلبي.
٥٢ - **حاشية البيجوري على أبي شجاع**، إبراهيم البيجوري.
٥٣ - **رسالة الإسلام نور بدر الظلام**، عبد الحميد الخطيب.
٥٤ - **الخلفاء الراشدون أحسن القصص**، علي فكري.
٥٥ - **المستدرك**، الحاكم.
٥٦ - **المجتنى**، لابن الجوزي.
٥٧ - **المسند**، الإمام محمد بن إدريس [1] الشافعي.
٥٨ - **جامع الأصول**، لابن الأثير.
٥٩- **الإصابة في تميز الصحابة**، ابن حجر.
٦٠ - **أعلام النساء**، عمر رضا كحاله.
٦١ - **نساء النبي ﷺ**، الدكتورة بنت الشاطىء المصرية.
٦٢ - **الاستيعاب في التراجم**، ابن عبد البر.
٦٣ - **الثقافة الإسلامية**، محمد لطفي جمعة.
٦٤ - **إنجيل برنابا**، ....
٦٥ - **رياض الصالحين**، محمد النووي.
٦٦ - **دليل الفالحين**، ابن علان الفاسي.
٦٧ - **دراسات عن أبي بكر الصديق**، بهيج البكري.
٦٨ - **جواهر الأدب**، محمد الهاشمي.
٦٩ - **قصص القرآن**، النجار وجماعة من المؤلفين معه.
٧٠ - **الإسلام دين الفطرة**، عبد العزيز جاويش.
٧١ - **فجر الإسلام**، أحمد أمين.

---

(١) (محمد بن إدريس). في الأصل (محمد أديس). المحقق.

٧٢ - **رجال من التاريخ**، علي الطنطاوي.
٧٣ - **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم.
٧٤ - **الفتوحات الوهبية**، إبراهيم الشبرخيتي.
٧٥ - **المناقب**، للمقدسي.
٧٦ - **مجلة الأزهر لعام (١٣٧٢) هـ**، لجماعة من الأزهر.
٧٧ - **مجلة لواء الإسلام لعام (١٣٧٢) هـ**، لجماعة من العلماء.
٧٨ - **تهذيب الأسماء والصفات**، للإمام محمد النووي.
٧٩ - **شرف المصطفى ﷺ**، لابن الجوزي.
٨٠ - **حجة المصطفى ﷺ**، محب الدين الطبري.
٨١ - **الكامل**، لابن الأثير.
٨٢ - **التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول**، منصور علي ناصيف.
٨٣ - **مجلة الهلال المصرية**، السنة (٤١) ج ١٠ ص ٧٨.
٨٤ - **مرآة الجنان**، لليافعي.
٨٥ - **المواهب اللدنّية**، للزرقاني.
٨٦ - **الشمائل المحمدية**، للحافظ الترمذي.
٨٧ - **شمس العرب تسطع على الغرب**، للمستشرقة الألمانية زغريد هونكة.
٨٨ - **زاد المحتاج فيما يلزم للحاج**، محمد نبهان الخباز المؤلف.
٨٩ - **حياة محمد**، للكاتب إيرفنج.
٩٠ - **الإسلام بين الإنصاف والجمود**، ...
٩١ - **خلاصة تذهيب تهذيب الكمال**، صفي الدين أحمد الخزرجي الأنصاري.
٩٢ - **حاشية الباجوري على شرح بانت سعاد**، للعلامة الشيخ إبراهيم الباجوري.
٩٣ - **شرح بانت سعاد**، للعلامة عبد الله الأنصاري.
٩٤ - **تاريخ الأمم الإسلامية**، للعلامة محمد خضري بك.
٩٥ - **فتح الباري بشرح البخاري**، العلامة القسطلاني.

٩٦ - **نفسية الرسول العربي**، لبيب الرياشي.
٩٧ - **فقه السيرة**، للعلامة محمد الغزالي.
٩٨ - **على مائدة القرآن ــ ما وراء الآيات**، أحمد محمد جمال.
٩٩ - **التبشير والاستعمار**، فروخ وخالدي.
١٠٠- **البحث عن الدين الحقيق**، المنسينوز كولي.
١٠١- **تاريخ فرنسا**، تأليف هـ. غيومان و. ف. لوستير.
١٠٢- **تاريخ الدولة العربية**، ليوليوس فلهاوزن.
١٠٣- **ما يقال عن الإسلام**.
١٠٤- **دفاع عن الإسلام**، توماس كارليل.
١٠٥- **الإسلام خواطر وسوانح**، الكونت هنري دي كاستري.
١٠٦- **ما يقال عن الإسلام**، توينبي.
١٠٧- **تاريخ شارلكن**، روبرتسون.
١٠٨- **تاريخ الحروب الصليبية**، ميشود.
١٠٩- **زاد المعاد**، لابن القيم.
١١٠- **العقد الفريد**، لابن عبد ربه.
١١١- **محمد وبوذا والمسيح**، الدكتور ماركس دودز.
١١٢- **أحسن القصص**، علي فكري.
١١٣- **حاشية البيجوري على الشمائل المحمدية**، للشيخ إبراهيم البيجوري.
١١٤- **مجلة آخر ساعة المصرية مقال**، للدكتور رشاد خليفة.
١١٥- **محمد رسول الهدى والرحمة وشريعته الخالدة**، توماس كارليل وعمر بن محمد السباعي.
١١٦- **الإسلام يتحدى**، وحيد الدين خان.
١١٧- **الدراسات الفقهية**، خالد عبد الله الشقفة.
١١٨- **محمد والإسلام**، مستر بوسورث سميث.
١١٩- **الإسلام والعرب**، نورمان دينال.
١٢٠- **تاريخ الدولة العربية**، يوليوس فلهاوزن.

١٢١- **جريدة المقطم**، ...
١٢٢- **مجلة نور الإسلام**، ...
١٢٣- **تفسير الكشاف للقرآن**، للعلامة محمود الزمخشري.
١٢٤- **تفسير الطبري للقرآن**، ابن جرير الطبري.
١٢٥- **باكورة الكلام في حقوق النساء في الإسلام**، للعلامة حمزة فتح الله.
١٢٦- **النبي الأمين قدوة للمؤمنين**، للمؤلف.
١٢٧- **عين اليقين في سيرة سيد المرسلين**، محمد سعيد كيلاني.

فهرس الجزء الثالث

الموضوع	الصفحة
٢٨٢ - غزوة الحديبية وما حدث فيها من الأمور	٥
٢٨٣ - بيعة الرضوان التاريخية	١٣
٢٨٤ - نص كتاب الصلح في عهد الحديبية	١٦
٢٨٥ - مزايا هذا الصلح	١٧
٢٨٦ - نتائج هذه الغزوة وفوائدها القيمة	١٨
٢٨٧ - تنفيذ المعاهدة بين رسول الله ﷺ وقريش	٢٠
٢٨٨ - اتجاه الرسول ﷺ بعد الهدنة واتجاه قريش	٢١
٢٨٩ - دعوة الاسلام والتنظيم الاجتماعي	٢١
٢٩٠ - تحريم الخمر لمضارّه الجسمية والخلقية والاجتماعية	٢٢
٢٩١ - حالة الرومان والفرس وما كان بينهما	٢٣
٢٩٢ - رُسُلُ سيدنا محمد ﷺ إلى الملوك والأمراء	٢٤
٢٩٣ - كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل عظيم الروم	٢٤
٢٩٤ - الكتاب الثاني إلى الحارث بن أبي شمر الغساني	٢٧
٢٩٥ - الكتاب الثالث إلى كسرى بن هرمز عظيم الفرس	٢٩
٢٩٦ - إسلام باذان أمير اليمن	٣١
٢٩٧ - الكتاب الرابع إلى المقوقس جريج بن ميناء عظيم القبط	٣٢
٢٩٨ - الهدايا التي أرسلها المقوقس إلى رسول الله ﷺ	٣٣
٢٩٩ - ترجمة مارية القبطية رضي الله عنها	٣٤

الموضوع	الصفحة
٣٠٠ - الكتاب الخامس إلى النجاشي أصحمة ملك الحبشة	٣٦
٣٠١ - إسلام النجاشي الأصحم بن أبجر	٣٧
٣٠٢ - الكتاب السادس إلى صاحب اليمامة هوذة بن علي	٣٨
٣٠٣ - الكتاب السابع لأمير البحرين المنذر بن ساوى التميمي	٣٩
٣٠٤ - الكتاب الثامن إلى ملكي عُمان جيفر وعبد	٤٠
٣٠٥ - ردُّ افتراء صادر من خصوم الإسلام	٤٠
٣٠٦ - زواج النبي ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان	٤١
٣٠٧ - نتائج إرسال الكتب مع ارسال رسل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء	٤٣
٣٠٨ - غزوة خيبر وتطويق اليهود فيها	٤٤
٣٠٩ - صلح أهل فدك تلبية لطلبهم	٥٢
٣١٠ - غزوة وادي القرى لجماعة من اليهود فيه	٥٣
٣١١ - خمس سرايا في خريف وشتاء السنة السابعة سنة (٦٢٨)م	٥٣
٣١٢ - عمرة القضاء أو عمرة القصاص وحديث قريش	٥٥
٣١٣ - زواج رسول الله ﷺ بميمونة بنت الحارث الهلالية	٥٧
٣١٤ - رد افتراء خصوم محمد ﷺ والكشف عن سر تعدد الزوجات .	٥٨
٣١٥ - أعد الرسول ﷺ خمس سريات قبل غزوة مؤتة ١ — سرية الأخرم إلى بني سليم	٦٤
٣١٦ - سرية غالب بن عبد الله الليثي — السرية الثانية	٦٥
٣١٧ - سرية أخرى لغالب بن عبد الله الليثي — السرية الثالثة ...	٦٥
٣١٨ - سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى جمع من هوازن — السرية الرابعة	٦٥

الموضوع	الصفحة
٣١٩ - سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح ـ السرية الخامسة	٦٦
٣٢٠ - إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة	٦٦
٣٢١ - ترجمة عمرو بن العاص رضي الله عنه	٦٩
٣٢٢ - ترجمة خالد بن الوليد رضي الله عنه	٧١
٣٢٣ - ترجمة عثمان بن طلحة العبدري رضي الله عنه	٧٣
٣٢٤ - سرية مؤتة الهامة	٧٤
٣٢٥ - مواساة رسول الله ﷺ لآل جعفر رضي الله عنه	٧٨
٣٢٦ - إسلام فروة بن عامر الجذامي واستشهاده	٨١
٣٢٧ - سرية ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه	٨١
٣٢٨ - سرية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى أرض جهينة	٨٣
٣٢٩ - سرية أبي قتادة رضي الله عنه إلى نجد	٨٣
٣٣٠ - غزوة فتح مكة، وما جرى فيها من الحوادث	٨٤
٣٣١ - البيعة العامة لرسول الله ﷺ على الصفا	١٠٢
٣٣٢ - سرايا الدعوة إلى التوحيد	١٠٣
٣٣٣ - سرية خالد بن الوليد لتحـ ، العزّى	١٠٤
٣٣٤ - سرية عمرو بن العاص إلى صنم سُواع	١٠٥
٣٣٥ - سرية سعد بن زيد الأشهلي لتحطيم مناة	١٠٥
٣٣٦ - سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة من كنانة	١٠٦
٣٣٧ - دروس من فتوح مكة أولاً: وفاء النبي ﷺ	١٠٧
٣٣٨ - ثانياً: تواضعه ﷺ وهو القائد المنتصر	١٠٨
٣٣٩ - ثالثاً: قوة العقيدة في النفوس المؤمنة	١٠٨
٣٤٠ - رابعاً: تحطيم الأصنام وتطهر مكة منها وما حولها	١١٠

الموضوع	الصفحة
٣٤١ - خامساً: درس عام على أن المعول عليه في الحساب الدار الآخرة	١١١
٣٤٢ - غزوة حنين وحصار الطائف	١١٣
٣٤٣ - درس هام من موقعة حنين	١١٩
٣٤٤ - سرية أبي عامر الاشعري أو سرية أوطاس	١٢٠
٣٤٥ - سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين	١٢١
٣٤٦ - غزوة الطائف وإصابة عين أبي سفيان فيها	١٢١
٣٤٧ - حادثة لطيفة مع أخت رسول الله ﷺ الشيماء	١٢٢
٣٤٨ - انصراف رسول الله ﷺ من الطائف	١٢٣
٣٤٩ - بعث الرسول القائد لقيس بن سعد إلى صُداء	١٢٣
٣٥٠ - شهداء حنين والطائف رضي الله عنهم	١٢٤
٣٥١ - سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم	١٢٥
٣٥٢ - سرية الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق	١٢٦
٣٥٣ - سرية قطبة بن عامر إلى خثعم في تبالة	١٢٨
٣٥٤ - سرية الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب	١٢٨
٣٥٥ - سرية علقمة بن محرز المدلجي إلى الحبشة	١٢٩
٣٥٦ - سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الفُلْس	١٢٩
٣٥٧ - وفود القبائل على النبي ﷺ لتقديم الطاعة	١٣٠
٣٥٨ - قدوم وفد طيء وعلى رأسهم سيدهم زيد الخيل	١٣١
٣٥٩ - وفود هوازن برئاسة زهير بن صرد	١٣٢
٣٦٠ - وفود صداء بضيافة سعد بن عبادة	١٣٣
٣٦١ - وفود بني تميم برئاسة عطارد بن حاجب والزبرقان	١٣٤
٣٦٢ - أحداث ووقائع بوفاة زينب ومولد ابراهيم، وهجر النبي ﷺ لنسائه	١٣٤
٣٦٣ - ردُّ استغلال رخيص للطعن على صاحب الرسالة	١٤١

الموضوع	الصفحة
٣٦٤ - غزوة تبوك أو غزوة العسرة	١٤٢
٣٦٥ - كتاب أمن رسول الله ﷺ ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة	١٤٦
٣٦٦ - انتقاض أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني بدومة الجندل وإرسال خالد بن الوليد إليه	١٤٧
٣٦٧ - المعجزات وخوارق العادات في غزوة تبوك	١٤٧
٣٦٨ - دروس نافعة توحيها لنا غزوة تبوك	١٥٠
٣٦٩ - رد افتراء صادر من حقودين على الاسلام	١٥١
٣٧٠ - مجموع غزوات الرسول القائد صلوات الله عليه وسلامه والسرايا التي بعثها	١٥٦
٣٧١ - إن الأرض لله يرثها من عباده الصالحون	١٥٧
٣٧٢ - هدم مسجد الضرار بقباء بأمر رسول الله ﷺ	١٥٧
٣٧٣ - موت رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول	١٥٩
٣٧٤ - حجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه امتثالاً لأمر النبي ﷺ	١٦١
٣٧٥ - سرية خالد بن الوليد إلى بني الحارث بنجران	١٦٢
٣٧٦ - كتاب سيدنا خالد لرسول الله ﷺ يبشره فيه بإسلام بني الحارث	١٦٣
٣٧٧ - نص كتاب رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد	١٦٤
٣٧٨ - وفاة ابراهيم ابن رسول الله ﷺ	١٦٥
٣٧٩ - عام الوفود الإسلامية على رسول الله ﷺ وعهده لهم	١٦٨
٣٨٠ - حجة الوداع لحبيب الله ومصطفاه ﷺ	١٧٦
٣٨١ - نصُّ الخطبة التاريخية الجامعة لرسول الله ﷺ	١٧٧
٣٨٢ - أثر حجة الوداع وانبساط سلطان الدين الاسلامي	١٨١
٣٨٣ - بعث أسامة بن زيد بجيش بقيادته إلى الروم بالشام	١٨٢
٣٨٤ - وفاة رسول الله ﷺ وما حدث في أثنائها	١٨٤

الموضوع	الصفحة

٣٨٥ - هول المسلمين لخبر الوفاة، وعمر يكذب ومجيئي أبي بكر من السنح ١٨٧
٣٨٦ - دفنه عليه الصلاة والسلام في حجرة عائشة رضي الله عنها . . ١٨٩
٣٨٧ - غسل النبي ﷺ ووداع الجثمان الطاهر الأخير ١٩٠
٣٨٨ - من ساعات التاريخ الرهيبة ١٩١
٣٨٩ - دفن الجثمان الطاهر الشريف ١٩٢
٣٩٠ - بعض شمائله وصفاته ﷺ وخطبه ١٩٣
٣٩١ - من يخلف الرسول ﷺ بعد وفاته؟ ٢٠٠
٣٩٢ - رثاء حسان بن ثابت للرسول ﷺ ٢٠٣
٣٩٣ - رسول الله ﷺ في ذمة التاريخ على مر الزمن ٢٠٦
٣٩٤ - زوجاته ﷺ ٢١٠
٣٩٥ - أولاده ﷺ ٢١١
٣٩٦ - سراريه ﷺ ٢١١
٣٩٧ - صفته ﷺ وذكر بعض من شمائله ٢١٢
٣٩٨ - أعمامه ﷺ وعماته ٢١٥
٣٩٩ - بوّابُه وشعراؤه ومؤذنوه ﷺ ٢١٥
٤٠٠ - سلاحه ودوابه وخاتمه ﷺ ٢١٦
٤٠١ - مشاهير كُتّابه ﷺ ٢١٧
٤٠٢ - معجزات حبيب الله ومصطفاه عليه الصلاة والسلام ٢١٨
٤٠٣ - المعجزة الأولى القرآن الكريم ٢١٩
٤٠٤ - رد افتراء مكذوب على القرآن الكريم ٢٢٥
٤٠٥ - اعتراف منصف في رسول الله ﷺ ومعجزته القرآن ٢٢٨
٤٠٦ - ومن معجزاته ﷺ انشقاق القمر ٢٢٩
٤٠٧ - ومن معجزاته ﷺ نبع الماء من بين أصابعه ٢٣٢
٤٠٨ - أتباع صاحب الرسالة بتنفيذ تعاليم الاسلام ٢٣٤

الموضوع	الصفحة
٤٠٩ - وجوب الاقتداء بأخلاق رسول الله ﷺ	٢٣٧
٤١٠ - من درر أقواله من مشكاة هديه الشريف	٢٤٠
٤١١ - الخاتمة مسك الختام	٢٤٤
٤١٢ - وخلاصة القول	٢٤٥
٤١٣ - المصادر والمراجع	٢٤٧
فهرس الموضوعات	٢٥٣

رقم الايداع في دار الكتب القطرية
١٢٩ / ١٩٨٥